LITERATURE

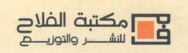
أدب صدر الإسلام والدولة الأموية



أ. د. سامي أبو زيد   د. منذر كفافي

د. عبد الرؤوف زهدي





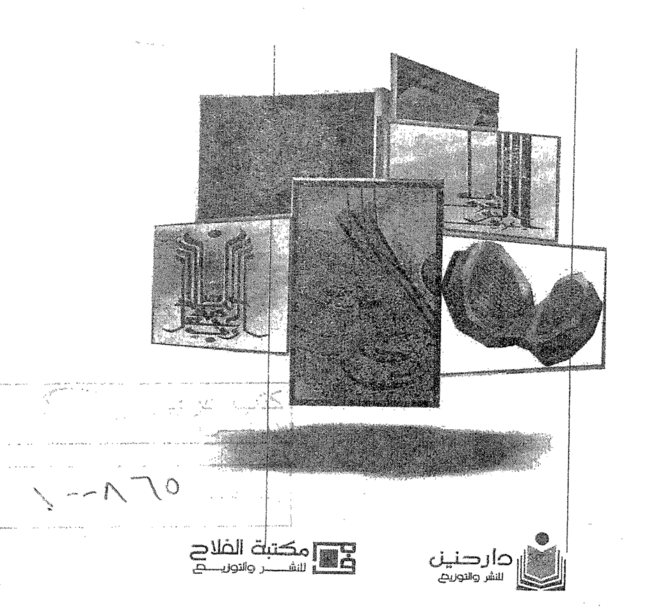
أدب

الإنسان
والدولة الأموية



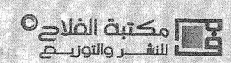
أدب
صدر الإسلام والدولة الأموية

أ. د. سامي أبو زيد　　د. منذر كفافي
د. عبد الرؤوف زهدي



مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع
دار حنين للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
1428 هـ 2007 م



دولة الكويت
حولي-شارع بيروت - عمارة الأطباء
هاتف: 1985 264 فاكس: 7784 264 965+
ص.ب: 4848 الصفاة-الرمز البريدي 13049

دولة الإمارات العربية المتحدة
العين:- ص.ب 16431 هاتف: 7662189 فاكس: 7657901 3 971+
دبي:- ص.ب: 20438 هاتف: 2630618 فاكس: 2630628 4 971+

جمهورية مصر العربية
37 شارع النصر - امتداد رمسيس2
مقابل وزارة المالية ومصلحة الجمارك
مدينة نصر - القاهرة
تلفاكس 8143 262 202 ‎
E-mail:alfalah.cairo@gmail.com

المملكة الأردنية الهاشمية

دار حنين للنشر والتوزيع

العبدلي- مقابل البنك العربي- عمارة الدحو
هاتف 5695611 فاكس 1208 568 6 962+
ص.ب 927385 الرمز البريدي 11190
عمان- الأردن
e-mail: dar_honin@yahoo.com

الفهرس

المقدّمــــة

الحمد لله الذي أنطقنا بروائع البيان، والصلاة والسلام على النبي الأمين محمد - ﷺ -، أفصح العرب لساناً، وأشرفهم بياناً.

وبعد، فهذا كتاب في "أدب صدر الإسلام والدولة الأموية" يرصد مسار الأدب في العصر الإسلامي الممتد من عهد النبوّة إلى نهاية العهد الأموي. وقد وزّعناه على قسمين: أولهما عهد صدر الإسلام، وثانيهما العهد الأموي. ويتناول كل منهما موضوعات شتى في تاريخ الأدب، وأعلامه في الشعر والنثر، فضلاً عن تحليل نماذج من أدبهم تحليلاً فنياً.

ومهدنا لهذا المسار بدراسة الشعر؛ والحديث عن الشعراء المخضرمين في القسم الأول، وتسليط الضوء على الشعر الأموي ومراكزه والمؤثرات العامة فيه، في القسم الثاني. وبيّنا كيف كان الشعر متفاعلاً مع هذه الحياة الجديدة في مختلف جوانبها، وكيف كان يشكّل نسيجها من جهة، وكيف أثّرتْ في مساره من جهة أخرى.

ومفردات هذا الكتاب تلبي حاجة هذا المساق الذي يُعدُّ واحداً من المساقات الجامعية المهمة لطلبة قسم اللغة العربية. وقد رأينا أن النصوص تُشكّل عمدة الدراسات الأدبية والقاعدة الأساس التي تُبنى عليها نظرات الباحثين وآراء النقاد. ومن هذا المنطلق تخيّرنا نصوصاً متنوعة للشعراء والخطباء والكُتّاب الذين تناولتهم هذه الدراسة، وقمنا بتحليل بعض هذه النصوص، وقراءتها قراءة ناقدة، ففي ذلك تنمية لمواهب الطلبة، وتقوية لقدراتهم، وعون لهم على فهم تلك النصوص وتذوقها.

أمّا الأهداف التي نودُّ أن يحققها هذا المساق فهي :

(١) تذوُّق الأدب الرفيع، والاستمتاع به، وإصدار أحكام صحيحة عليه، بعد تحليله إلى عناصره واستعراض ما فيه من أفكار وتجارب، ومن صور وأخيلة، ومن عبارات منتقاة؛ لتكون أحكامهم وليدة الدراسة الواعية والذوق المستنير.

(٢) توضيح العلاقة الوثيقة بين الأدب العربي ومكارم الأخلاق، ذلك أن الأدب العربي أسهم على مرِّ العصور في تهذيب النفوس وغرس الأخلاق الفاضلة في الناس.

(٣) دراسة أعلام الشعر في هذا العصر دراسة نقدية تاريخية، تُرسم فيها شخصياتهم الأدبية، ويتّضح من خلالها أثرهم في تطور الشعر العربي وتجديده.

(٤) حثّ الطلبة على حفظ أكبر قدر من هذه النصوص؛ لأنها تُعين الطالب في مواطن القول والكتابة، وتغرس فيه حب الأدب واللغة العربية، فإذا أحبهما فقد أحبَّ ضمناً القرآن الكريم والإسلام وتاريخ السَّلف، وهذا من أنبل أهداف الدراسة الأدبية.

(٥) توظيف هذه الدراسة لتخريج جيل قادر على استخدام اللغة العربية، والإفادة من مهارات اللغة المتنوعة التي ترتكز على النصوص الأدبية.

إن أبناءنا الطلبة الذين كُتب من أجلهم هذا المساق يعيشون أجمل سنوات العمر التي تتفتح فيها النفوس للقيم النبيلة والمثل العليا، وتحلم بعالم من الصفاء والنور.

نسأل الله - العلي القدير - أن ينفعهم بهذا الجهد المتواضع؛ ليعيدوا بالعزائم المؤمنة سيرة السلف الصالح، وأن يهديهم سواء السبيل.

المؤلفون



القسم الأول

عصر صدر الإسلام

من بعثة الرسول - ﷺ - إلى آخر أيام الخلفاء الراشدين سنة ٤٠هـ

الفصل الأول

الشعر في صدر الإسلام

(١) الشعر في صدر الإسلام :

كان الشعر في زمن الجاهلية في خدمة القبيلة، وأما في فجر الإسلام فقد صار في خدمة الدعوة الإسلامية، إلا أنه تعرَّض لفترة من الركود في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين وذلك للأسباب الآتية :

١ - بُهِـر العرب ببلاغة القرآن الكريم وملأت نفوسهم عقيدة الإسلام وآدابه. يقول ابن خلدون: "انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه . . . " [١].

وفي أثناء ذلك شغلوا بالفتوحات فصرفهم كل ذلك عن قول الشعر إلا قليلا، وقد لاحظ ابن سلام ذلك فقال: "فجاء الإسلام وتشاغلت عن الشعر العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مُدوَّن ولا كتاب مكتوب، وألْفَوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير" [٢].

ويرى شوقي ضيف أن الشعر في صدر الإسلام ظل مزدهراً، وليس بصحيح

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٤٢٧ .

(٢) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص ٢٢ .

أنه توقف أو ضَعُف، وحجته في ذلك ما تحمله كتب الأدب والتاريخ من منظوماته الكثيرة ومن أسماء ناظميه، فضلاً عن ضياع كثير من هذا الشعر [١].

٢ - سقوط منزلة الشعراء لتكسبهم وخضوعهم في سبيل العطاء للممدوحين، وبذلك علا شأن الخطابة وانخفض شأن الشعر وخصوصا بعد أن صارت الخطابة هي الوسيلة الطيعة المرنة لنشر دعوة الإسلام.

وقد هاجم القرآن الكريم الشعر الصادر عن شعراء المشركين أو من دار في فلكهم في قوله تعالى: ﴿والشعراء يتّبعهم الغاوون* ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ [٢] وتعود هذه المهاجمة لأن أولئك الشعراء كانوا يؤذون الله ورسوله بشعرهم. وهو الشعر الذي قال فيه الرسول الكريم: "لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلىء شعراً" [٣].

٣ - إن نفرا من الشعراء الذين ظلوا على الشرك من أمثال عبدالله بن الزّبعرى وأبي سفيان بن الحارث [٤] هجوا رسول الله ﷺ فأمر النبي ﷺ بترك رواية شعرهم.

٤ - حارب الإسلام العصبيات وحرم الخمر، وقاوم الهجاء القبلي المقذع، والغزل الفاحش، ولم يشجِّع رحلات اللهو والقنص، وكل هذه الأمور كانت وقودا جزلا لشعلة الشعر، فلما قاومها الإسلام اقتصرت أغراض شعر المخضرمين على مناقضة شعراء المشركين وعلى مدح رسول الله ﷺ وأصحابه.

ومع هذا فقد كان النبي ﷺ يعجب بالشعر الجيد المنطوي على مثل عليا، ويقول حين يستمع إليه: "إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة" [٥]، وكان

---

(١) انظر: شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص ٤٤.
(٢) سورة الشعراء، ٢٢٤ - ٢٢٧.
(٣) ابن رشيق، العمدة، ١/ ١٢.
(٤) أسلم هذان الشاعران بعد فتح مكة.
(٥) ابن رشيق، العمدة، ١/ ٩.

يحضُّ حسان بن ثابت وغيره على نظمه ويثيبهم. وقد مضى الخلفاء الراشدون على ذلك، فكانوا يَنهوْن عن الهجاء ويعاقبون فيه؛ فقد حبس عمر بن الخطاب < الحطيئة حين هجا الزبرقان بن بدر، إلا أنهم كانوا يرددون الشعر الجيد على ألسنتهم، وكان عمر < يسأل وفود القبائل عن شعرائهم.

(٢) الشعراء المخضرمون ومدى تأثرهم بالإسلام :

ترك الإسلام آثاراً عميقة في نفوس المخضرمين، وبخاصة أهل البادية، فقد نفذت أشعته النيرة إلى قلوبهم جميعا.

ولشعراء المدينة القدح المعلى في هذا الميدان إذ كانوا يصدرون في جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التي آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم. كما أنهم وقفوا مع الرسول ﷺ ودافعوا عن الدعوة الإسلامية، يتقدمهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة.

وتحول شعراء قريش منذ فتحت مكة ودخلوا في دين الله يُكفِّرون عما قدمت ألسنتهم بأشعار يعتذرون فيها للرسول ﷺ وخاصة كعب بن زهير وابن الزبعرى وأبا سفيان بن الحارث.

وامتد هذا التأثر إلى شعراء البادية ونجد من أمثال عبدة بن الطبيب وسويد بن أبي كاهل اليشكري، والحصين بن الحمام المري، والنمر بن تولب، والمخبل السعدي، والشماخ وأبي ذؤيب الهذلي صاحب العينية المشهورة في رثاء بنيه ومنها:

وإذا المنيةُ أنشبتْ أظفارَها ... ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تَنفعُ
والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبْتَها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليل تقنع

وعمرو بن شأس صاحب البيت المشهور :

أردتِ عَراراً بالهوان ومن يُرِدْ ... عَرارا لعمري بالهوان فقد ظَلَمْ

يعاتب الشاعر في هذا البيت امرأته التي كانت تؤذي ابنا له من أَمَةٍ سوداء.

ومعن بن أوس المشهور بعتابه لابن عمه الذي أساء إليه، ومنه :

وذي رحم قلَّمْتُ أظفارَ ضِغنه بحلميَ عنه وهو ليس له حِلْمُ

فما زلتُ في لينٍ وتعطُّفٍ عليه كما تحنو على الولدِ الأُمُّ

ومن أبرز شعراء البادية: لبيد [1] صاحب اللامية المشهورة التي نؤمن بأنه نظمها في الإسلام، وفيها يقول :

ألا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطلُ وكلُّ نعيم لا محالةَ زائلُ

وكل أناس سوف تدخل بينهم دُويهية تصفرُّ منها الأنامل

ويزعم الرواة أنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً ويختلفون فيه، فمن قائل هو قوله :

الحمد لله إذ لم يأتني أجَلي حتى كساني من الإسلام سربالا

ومن قائل، بل هو قوله :

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كنفسه والمرءُ يُصلِحهُ الجَليسُ الصّالحُ

والحق أن له أشعاراً كثيرة تفيض بمعاني الإسلام ومثاليته.

والنابغة الجعدي [2] الذي وفد على النبي ﷺ مع قومه سنة تسع للهجرة وأنشده قصيدة يقول فيها :

بلغنا السماءَ مجدُنا وجدودُنا وإنا لنبغي فوق ذلك مظهرا

---

(١) هو لبيد بن ربيعة، من أصحاب المعلقات، أسلم وهو في الثمانين من عمره، انتقل إلى الكوفة وقضى فيها أواخر حياته، إلى أن توفي نحو سنة ٢٣ هـ.

(٢) النابغة الجعدي: شاعر مخضرم، توفي في خلافة مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ.

فقال له الرسول الكريم : فأين المظهر يا أبا ليلى؟ فأجابه: الجنة. وأعجب الرسول ﷺ بشعره ومنطقه، فقال له: لا يفضض الله فاك.

وله موعظة مشهورة مطلعها :

الحمد لله لا شريك له ... من لم يقلها فنفسه ظَلَما

والحطيئة صاحب البيت المعروف :

من يفعلِ الخيرَ لا يعدَمْ جوازِيَهُ ... لايذهبُ العُرفُ بين اللهِ والناسِ[1]

وقوله في وصف التقى والعمل الصالح :

ولست أرى السعادةَ جمعَ مالٍ ... ولكنَّ التقيَّ هو السعيدُ

وخلاصة الأمر، لم يَخْلُ هذا العصر من أصوات شاعرية عذبة من أمثال حسان بن ثابت، وكعب بن زهير، والحطيئة، والخنساء وغيرهم.

وفي المقابل هبطت فنون شعرية أخرى كالمدح الذي يقوم على التكسب والخضوع في سبيل العطاء للممدوحين وحَلَّ مكانه مدحُ النبي ﷺ وأصحابه.

وكذلك سقطت فنون أخرى كالهجاء القبلي المقذع والغزل الفاحش ووصف الخمر فقد قاومها الإسلام.

وارتقى شعر الدعوة الإسلامية؛ وهو شعر يقوم على الدفاع عن العقيدة، وبيان شريعة الله، ووصف المعارك الحربية ومدح الأبطال والمجاهدين.

---

(١) العرف : المعروف.

الفصل الثاني

أعـــلام الشعـــر

أ - حسان بن ثابت (٦٧٤م / ٥٤هـ)

حياته :

١ - نشأته :

أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي، وكانت أمه "الفريعة" خزرجية مثل أبيه. ولد في يثرب نحو عام ٦٠ ق.هـ في بيت من أعرق بيوت بني النجار أخوال الرسول ﷺ وهو يُسلك في المعمَّرين إذ يقال إنه عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الإسلام ستين أخرى. وكانت يثرب ميدانا للنزاع بين الأوس والخزرج، تكثر فيها الخصومات والحروب؛ وكان قيس بن الخَطيم وأبو قيس بن الأسلت شاعري الأوس، وقد اصطدم بهما مدافعا عن قومه ومفاخراً بأمجادهم.

ويقال إنه عرض شعره على النابغة بسوق عكاظ، وقدم عليه الأعشى، فأثار مَوجِدَته [١].

٢ - شاعر الملوك :

اتصل بالغساسنة، متكسبا عندهم بالمدح، متقرباً إليهم بنسبه في اليمن. وفي ربوع الشام وبين جنانها وعلى ضفاف بردى وفي أحضان الجبال المكللة بالثلوج، قضى حسان أجمل فترات حياته. ويقال إنه مدّ رحلاته إلى بلاط النعمان بن المنذر.

(١) انظر الأغاني: ٩/ ٣٤٠ .

٣ - منزلته :

دخل حسان في الإسلام عندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، وأخذ يردُّ هجمات شعراء قريش في هجاء الرسول ﷺ وصحبه، وكان الرسول ﷺ يحثه على ذلك ويدعو له بمثل: "اللهم أيِّده بروح القُدُس" ونصب له منبراً في المسجد يستمع إلى بعض هجائه قائلاً: "لَهذا أشدُّ عليهم من وَقْع النَّبل" . وفي حديث عنه ﷺ أنه قال: "أمرتُ عبدالله بن رواحة (بهجاء قريش)، فقال وأحسن، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى" .

ويروى أن الرسول ﷺ قال له: كيف تهجوهم وأنا منهم؟ فقال حسان: سأسلُّك منهم كما تُسلّ الشعرة من العجين. فقال له: إِيتِ أبا بكر فهو أعلم بالقوم لِتَقِفَ منه على أنسابهم" [١].

وعند دراسة شعر حسان لابد من مراعاة أمرين :

- بطء أثر التغيير في الأدب، إذ يحتاج الشاعر إلى وقت كاف كي يعيش هذا التغيير ويعتاده ويترسب في أعماق نفسه.
- تقدُّم سن حسان: فقد جاوز الستين عند دخوله الإسلام، إلا أنه استطاع أن يستجيب لهذا التغيير ويتشكل معه، وهذا موضع تقدير وإعجاب.

كان يُنشد الرسول ﷺ شعره في المسجد، وحظي منه بمنزلة رفيعة، فكان يرفع أزواجه إلى أُطُمه حين يخرج لحرب أعدائه، وكان حين يعود يقسم له في الغنائم، وقد أهداه بستانا، كما وهبه سيرين أخت زوجه مارية القبطية.

وكان الخلفاء الراشدون يُجلّونه ويفرضون له في العطاء. مَرَّ به عمر < يُنشد شعراً فقال له منتهرا: أرُغاء كرُغاء البعير؟! فأجابه حسان: فوالله لَتعلم أني كنت أُنشد في هذا المسجد من هو خير منك. فيمضي عمر إكراماً للذكرى الطاهرة على كراهية لصنيع حسان.

---

(١) انظر الأغاني، ج٤، ص٧.

ومع هذا الإحساس بأنه أصبح زائداً ولم يعد المجتمع الإسلامي بحاجة إليه كانت أعباء الشيخوخه تهدُّه، وكان فقده بصره يزيد الأمر سوءاً فينزوي في عزلته إلى أن توفي في خلافة معاوية نحو سنة ٥٤هـ.

ومهما يكن من أمر، فقد سُمِّيَ بحق شاعر الإسلام ورسوله الكريم إذ عاش يناضل عنه أعداءه من قريش واليهود ومشركي العرب.

ويروى أن النبي ﷺ كان يبتسم حتى تبدو أسنانه إذا سمع حسّان يفتخر بشجاعته إذ إنه لم يرافقه إلى الحروب، ولم يشهد مشهدا ولا غزوة، ومع هذا فقد كان محل احترام رسول الله ﷺ لقوة شعره في الدفاع عن الإسلام ولأنه من أخوال أبيه.

آثـــاره :

له ديوان ضخم رواه ابن حبيب، غير أن كثيراً من الشعر المصنوع دخله، يقول الأصمعي: "تنسب إليه أشياء لا تصحّ عنه" [1] ويقول ابن سلام: "قد حُمل عليه مالم يُحمَل على أحد" [2]. قام بهذا العمل أعداء الإسلام، وبعض كُتّاب السيرة من مثل ابن إسحاق، ولاحظ ابن هشام (ت ٢١٨هـ) جامع السيرة، وملخصها، ومهذبها، فذكر كثيراً مما اختُلق وَدُسَّ على الشاعر.

ويرى شوقي ضيف أن شعر حسان اختلط بأشعارالأنصار وخاصة كعب بن مالك وعبدالله بن رواحه وابنه عبدالرحمن [3].

كما وضع الأمويون كثيراً من أشعاره المملوءة غيظاً على قتلة عثمان ليجعلوه في صفهم من جهة وليغسلوا عنهم عار الأشعار التي نظمها حسان في هجاء

(١) ابن عبدالبر، الاستيعاب، ص ١٣٠ .
(٢) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص ١٧٩ .
(٣) انظر: شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص ٧٩ وما بعدها.

أسرتهم. ومثلها ما يضاف إليه من أشعار في مديح الزبير بن العوام وعبدالله بن العباس وكأن الأحزاب السياسية أدّت دوراً في وضع الشعر على لسانه.

والحق أن شعره الإسلامي كَثُر الوضع فيه وهذا سبب ركاكة بعض الأشعار المنسوبة إليه؛ مما ينسف مقولة الأصمعي: "الشعر نكد بابه الشر". هذا حسان بن ثابت، فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره [1].

فهذا كلام يحمل ظلا من الحقيقة ولكنه في عمومه ظالم لحسان وللشعر، فقد بقي حسان حامل لواء شعراء الدعوة ولم يسقط شعره، ثم إن الشعر لا يصدر دائما عن الشر وإنما غلبة الشر عليه تعود إلى شيء في طبيعة الناس والشعر أداة صالحة للخير والشر على السواء.

طُبع ديوان حسان مراراً منذ أواسط القرن التاسع عشر في الهند وتونس ومصر. وقد نشرته دار صادر في بيروت حديثاً.

أغراض شعره:

أكثر شعر حسان في الهجاء؛ وما تبقى في الفخر بالأنصار، ومدح الغساسنة والنعمان وسادات العرب وأشرافهم؛ ومدح النبي ﷺ، ووصف مجالس اللهو والخمر مع شيء من الغزل.

وسنقف في هذه الدراسة عند أربعة محاور:

أولاً - حسان شاعر القبيلة:

كان حسان قبل الإسلام منصرفا إلى الذوذ عن حياض قومه بالمفاخرة، فكان شعره شعر النضال القبلي تغلب عليه صبغة الفخر. فقد هبَّ في وجه شعراء الأوس ولا سيما قيس بن الخطيم. ويقوم فخره على ذكر الشجاعة والكرم وشرف الأصل والنسب كقوله:

(١) انظر: محمد محمد حسين، الهجاء والهجاءون، ص ٢١١.

لساني وسيفي صارمان كلاهما ... ويبلغُ ما لا يبلغ السيفُ مِذْوَدِي[1]

وإني لَحلُوٌ تعتريني مرارةٌ ... وإني لتراكٌ لِمَا لم أُعَوَّدِ

وقوله :

لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعْنَ بالضُّحى ... وأسيافُنا يقطُرنَ من نجدةٍ دَمَا[2]

ثانياً - حسان شاعر التكسب :

اتصل حسان بالغساسنة ومدح أمراءهم، فقربوه إليهم وأكرموه وأغدقوا عليه العطايا وجعلوا له مرتبا سنوياً. ومن روائع شعره فيهم لاميته في مدح جبلَة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة [3]:

للـهِ دَرُّ عِصابةٍ نادمتُهمْ ... يوماً بِجِلَّقَ في الزّمانِ الأولِ[4]

يمشون في الحُللَ المضاعَفِ نسجُها ... مشيَ الجمالِ إلى الجمالِ البُزَّلِ[5]

الخالطون فقيرَهم بغنيِّهمْ ... والمُشفقون على الضّعيفِ المُرملِ[6]

أولادُ جفنةَ حول قبرِ أبيهمِ ... قبرِ ابنِ ماريةَ الكريمِ المُفضلِ

يُغْشَوْنَ حتى ما تهِرُّ كلابُهمْ ... لا يسألون عن السّوادِ المُقبلِ

يَسقون مَنْ وَرَدَ البريصَ عليهمِ ... بردى يُصفّقُ بالرّحيقِ السلسلِ[7]

بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابُهمْ ... شمُّ الأنوفِ من الطّرازِ الأولِ

---

(١) المذود: أي اللسان الذي يذود ويرد القول.

(٢) الجفنات: جمع جفنة وهي الوعاء الضخم يوضع فيه الثريد واللحم للضيوف.

(٣) ديوان حسان، ص ١٨٠ .

(٤) جلق: دمشق.

(٥) الحلل المضاعف نسجها: الدروع. البزل: جمع بازل وهو الجمل الناضج الشاب.

(٦) المرمل : الشديد الفقر.

(٧) البريص: موضع بدمشق كان يسكنه ملوك الغساسنة. يصفق: يمزج.

تُعدُّ هذه الأبيات من أروع ما قيل قي المدح، وقد نالت إعجاب ملوك الغساسنة حتى لقد كانوا يرسلون إلى حسان راتباً سنوياً وهدايا.

وإذا تأملت الأبيات وجدت صوراً في غاية الروعة والجمال، وإن كان بعضها موغلا في البداوة، إذ شبه إقدامهم في القتال، وعليهم دروعهم بهجوم الجمال الشابة بعضها على بعض. أما البيت الثالث فمن أجمل كنايات الكرم. وأما البيت الخامس فقد قيل إنه أحسن بيت قيل في المدح إذ فيه كنايتان تصوران الكرم والشجاعة تصويرا محسوساً، وهما: "ما تهر كلابهم" أي لكثرة ما ترى من ضيوف، وقوله: "لا يسألون عن السواد المقبل" أي حين يبصرون جماعة كثيرة مقبلة على بيوتهم لا يسألون لأنهم قد أعدوا لها ما تستحق. إن كانت ضيوفا فالقِرىٰ جاهز وكثير، وإن كانت أعداء فالسيوف على أُهبة القتال. وأما البيت السادس فوصفٌ جميل لنهر بردى. وأما البيت السابع ففيه إيقاع جميل ومعنى رائع.

ثالثاً - حسَّان شاعر الإسلام:

نصَّب حسان نفسه للدفاع عن الإسلام والرد على المشركين، وشعره هنا يدور حول موضوعين، هما:

أ - مدح النبي ﷺ وأصحابه، ويرتكز على وصف الخصال الحميدة وبروز المعاني الإسلامية ويلحق بهذا المدح رثاء النبي ﷺ.

ب - هجاء المشركين من قريش بعامة وهجاء خصوم الدعوة من أمثال أبي جهل وأبي لهب وأبي سفيان بن الحارث بخاصة. ويغلب عليه الإقذاع بالأيام والأنساب.

كما هجا هند بنت عتبة هجاءً مقذعا، على شاكلة قوله (١) :

يا هندُ ويحَكِ سُبَّةَ الدَّهْرِ ... ونَسيتِ فاحِشَةً أَتيْتِ بِها

(١) ديوان حسان، ص ١٣٣ .

زَعَمَ الولائِدُ أنّها وَلَدتْ ولداً صغيراً كان من عَهْرِ[1]

ويذهب بعض الرواة إلى أنه كان ممن خاض في حديث الإفك الكاذب على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، إلا أنه أعلن براءته من هذا القول الآثم بأشعار يمدحها بها مدحاً رائعاً من مثل قوله [2]:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبَةٍ وتُصبِحُ غرثى من لحومِ الغَوافِلِ[3]
فإنْ كان ما قد قيلَ عني قلتُهُ فلا رَفعتْ سَوطي إليَّ أناملي

ومن أجمل مراثيه التي يبدو فيها تمكنه الفني وتدفقه العاطفي داليته في رثاء النبي ﷺ، ومنها[4] :

لقد غيبوا حلما وعلما ورحمةً عشية علوه الثرى لا يوسد
وراحوا بحزنٍ ليس فيهم نبيُّهم وقد وهنَتْ منهم ظُهورٌ وأعضُدُ

رابعاً – حسان شاعر اللهو :

وصف حسان الخمر المعتَّقة قبل الإسلام على سبيل الفخر، كقوله[5] :

ولقد شربتُ الخمرَ في حانوتها صهباءَ صافيةً كطعمِ الفُلفلِ[6]
إن التي ناوَلْتِنيَ فرددتُها قُتِلتْ - قُتِلْتَ! فهاتها لم تُقتَلِ[7]

وقد كان من عادة حسان افتتاح بعض قصائده بالخمر وعلى أنها وصف شيء كان

---

(١) الولائد : جمع وليدة وهي الصبية أو الأمة. عهر: فجور.

(٢) ديوان حسان، ص ١٨٨ .

(٣) حصان: عفيفة. رزان: ذات وقار. تزن: تتهم. غرثى: جائعة والمقصود أنها لا تغتاب النساء.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٥ .

(٥) المصدر نفسه، ص ١٨١ .

(٦) الصهباء: الخمرة، سميت بذلك للونها الأحمر.

(٧) قتلت: مزجت بالماء.

وخلا، وقد ذكر الخمر في قصيدته في صلح الحديبية والتي كانت بعد تحريم الخمر ومنها [1]:

كأنَّ سبَيئةً من بيتِ رأسٍ ... يكونُ مزاجها عسلٌ وماءٌ
ونشربُها فتتركُنا ملوكا ... وأُسداً ما يُنهنهنا اللقاءُ

وغزل حسان تقليدي في معانيه وصوره.

قيمة شعر حسان:

■ القيمة الفنية:

حسان شاعر شديد التأثر، تمثّلت فيه البساطة والوضوح والبعد عن التعقيد. وهو قوي العاطفة، يفوته التأني الزهيري، ولهذا ترى شعره يتدّفع تدفعا، متتبعا في ذلك الطبع والفطرة لا الصنعة والتعمّل.

وتبرز في شعره المعاني الإسلامية، إذ نلمس أثراً إسلامياً يظهر في المعاني الجديدة في ارتياح إلى المصير، وتفصيل لبعض العقائد والشعائر من توحيد وتنزيه وثواب وعقاب. كما تبرز الألفاظ الإسلامية المنثورة في شعره؛ وهي ألفاظ اكتسبت إيحاءً جديداً ودلالة جديدة.

وقد برع في خلق الصور الفنية وابتكارها مما أتاح له الشهرة والذيوع، وهذه الموهبة تصور إلى جانب الذكاء بصيرة هجائية وروحا فكهة، كقوله [2]:

لا بأس بالقومِ من طُول ومن عِظَمٍ ... جسمُ البغالِ وأحلامُ العصافيرِ

وأكثر ما يكون هجاؤه لاذعا قارصا حين يقصر فلا يتجاوز الأبيات.

ويبدو في شعر حسان الإسلامي صدق العاطفة؛ وذلك لحبه العظيم لرسول الله ﷺ وللإسلام.

(١) ديوان حسان، ص ٨ .
(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٢ .

كما أن ألفاظه في مجملها أصبحت تميل إلى السهولة والعذوبة، ولم تعد فيها تلك الخشونة الجاهلية.

وعلى أية حال، فقد اختلف النقاد في شاعريته؛ فمنهم من قال: إن شعره ضَعُفَ وَلانَ عندما جاء الإسلام، وابتعد عن الكذب في القول؛ ومنهم من قال: إن شعره بلغ الذروة في شكله ومضمونه؛ لتأثُّره بالأسلوب القرآني.

■ **القيمة التاريخية:**

يُعدُّ شعره مصدراً من مصادر تاريخ تلك الأيام، يُسجِّل مآثر الغساسنة ويصف غزواتهم وملوكهم ويُسجِّل أحداث الفجر الإسلامي ويُطلعنا على أخبار النبي ﷺ في غزواته وفتح مكة، كما يطلعنا على أسماء الصحابة وأسماء أعداء الإسلام. وهكذا كان حسّان شاعراً ومؤرخاً كما كان شعره فاتحة للشعر السياسي الذي نما وتطور في عهد بني أمية.

المتخيَّر من شعره

حسان يفتخر ويهجو المشركين [1] :

مناسبة النص :

هجا شعراء المشركين النبي ﷺ، وكان من أشدهم هجاءً له أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وشاعر آخر يقال له ابن الزبعرى.

ويبدو أن الشاعر نظم قصيدته قُبيل فتح مكة رداً على أبي سفيان بن الحارث. وقد استهلها بمطلع غزلي جميل :

عَفَتْ ذاتُ الأصابعِ فالجِواءُ ... إلى عذراءَ منزلُها خلاءُ [2]

النص :

عَدِمْنا خيلَنا إن لم تَرَوْها ... تُثير النقعَ موعدها كَدَاءُ [3]

يبارينَ الأعنةَ مُصعِداتٍ ... على أكتافها الأسَلُ الظماءُ [4]

تظلُّ جيادُنا متمطِّراتٍ ... تُلَطِّمُهنَّ بالخُمُرِ النساءُ [5]

فإما تُعرِضوا عنا اعتمَرْنا ... وكان الفتحُ وانكشفَ الغِطاءُ [6]

وإلا فاصبروا لجِلادِ يومٍ ... يُعِزُّ الله فيه من يشاءُ [7]

وجبريلٌ أمينُ الله فينا ... وروحُ القدسِ ليس له كِفاءُ [8]

(١) ديوان حسان، ص ٧ - ٩ .

(٢) عفت: زالت ودرست. ذات الأصابع والجواء وعذراء: أسماء مواضع.

(٣) النقع: غبار الحرب. كداء: موضع بأعلى مكة.

(٤) مصعدات: مسرعات في الصعود. الأسل: الرماح الجيدة.

(٥) متمطرات: مسرعات متحفزات.

(٦) الفتح: يعني فتح مكة.

(٧) الجلاد: المصابرة في القتال.

(٨) روح القدس: جبريل.

وقــال الله قــد أرســلــتُ عــبــداً | يــقــول الحــقَّ إنْ نَــفَــع الــبــلاء
شــهــدتُ بــه فــقــومــوا صــدّقــوه | فــقــلْــتُــم لا نــقــوم ولا نــشــاء

* * *

الا أَبْــلِــغْ أبــا ســفــيــان عــنــي | فــأنــت مُــجَــوَّفٌ نَــخِــبٌ هــواء[1]
بــأنَّ ســيــوفَــنــا تــركــتْــك عــبــدا | وعــبــدَالــدارِ ســادتُــهــا الإمــاء[2]
هــجــوت مــحــمــدا فــأجــبــتُ عــنــه | وعــنــد الله فــي ذاك الجــزاء
أتــهــجــوه ولــســتَ لــه بــكــفءٍ | فــشــرُّكــمــا لخــيــركــمــا الــفــداء
فــمــن يــهــجــو رســولَ الله مــنــكــم | ويمــدحُــهُ ويــنــصــرُه ســواء
فــإن أبــي ووالــدَه وعِــرضــي | لــعِــرْضِ مــحــمــدٍ مــنــكــم فــداء
لــســانــي صــارمٌ لا عَــيْــبَ فــيــه | وبــحــري لا تُــكــدّره الــدِّلاءُ[3]

إيجاز المضمون :

تشتمل أبيات النص على الأفكار الرئيسة الآتية :

١ - حرب أعصاب وتهديد المشركين (١-٥).

٢ - فخر إسلامي (٦-٨).

٣ - هجاء أبي سفيان والمشركين (٩-١٥).

يقول الشاعر في الأبيات (١-٥): لا عاشت خيلنا إن لم تهاجمكم من أعلى مكة عند كداء (وهذا ما حدث عند الفتح) وسيكون على أكتافها رماحنا المتعطشة إلى دمائكم. وستصحبنا نساؤنا في المعركة يمسحن وجوه خيولنا بخُمُرِهن، فإن

(١) نخب: جبان.
(٢) عبدالدار: أخو عبدمناف.
(٣) صارم: قاطع.

استسلمتم تَـمَّ الفتح وانكشفت الغُمَّة وإلا فانتظروا قتالاً مريراً ينصر الله فيه المؤمنين.

وفي الأبيات من (٦-٨): يفخر الشاعر بأن الملائكة تؤيد جيش المسلمين، وعلى رأسهم جبريل روح القدس الذي لا يَنهَضُ لقوته نـدٌّ من البشر، ويُعيّـر المشركين بأنهم لم يستجيبوا لدعوة محمد ﷺ كما أمرهم الله بذلك.

ثم ينتـقل في الأبيات من (٩-١٥): إلى هجاء أبي سفيـان بن الحارث والمشركين فيقول: أبلغ أبا سفيان بأنه أجوف وجبان رعديد، وأن سيوفنا قد جعلته عبدا ذليلا وتركت كفار بني عبدالدار عبيدا للإماء.

ويخاطبه قائلاً له: لقد هجوْتَ محمداً وهأنذا أجيب عنه محتسبا أجري عند الله. كيف تهجوه ولست ندا له؟ عسى الله أن يجعل السيء الشرير منكما فداء للطيب الخير.

إنكم يا كفار قريش لا وزن لكم ولا أهمية وما أبالي أن تمدحوا محمدا أو تهجوه، وأنا أفدي محمداً بأبي وعرضي. وأتمتع بلسان صارم قاطع كما أنني بالنسبة لشعراء قريش كالبحر الذي لا تعكره الدلاء.

النقد والتعليق:

هذه إحدىٰ القصائد التي نظمها حسان في الإسلام وهي تمثل واقعا جديداً في تلك الحقبة من عمره ومدى إخلاصه لرسول الله ﷺ ودفاعه عنه. وقد كان هجاء الكفار أحد الأساليب الفنية التي تعبر عن مكانة الشعر في التصدي لأعداء الإسلام.

وإذا أنعمنا النظر في هذه القصيدة وجدنا فيها الخصائص الآتية:

١ - اختلاف فخر حسان وهجائه في الإسلام عن الفحر والهجاء عند الجاهليين. فلم يعد الفخر بالأحساب والقبيلة. ولم يعد الهجاء بما كان يتهاجى به

الجاهليون، وإنما نرى حسانا يفتخر بالإسلام وباتباع رسول الله ﷺ ويهجو المشركين بإعراضهم عن الإسلام وتكذيبهم لرسول الله ﷺ ويعيرهم بالهزائم في معارك الإسلام.

٢ - تأثر شعر حسان بألفاظ القرآن الكريم ومصطلحات الإسلام ويبدو ذلك واضحاً في قوله: (اعتمرنا، يعز الله من يشاء، جبريل أمين الله، روح القدس، وقال الله قد أرسلت عبدا، يقول الحق، وعند الله في ذلك الجزاء).

٣ - حسان شاعر قوي العاطفة، وعاطفته الحارة الصادقة هي أبرز عنصر فني في شعره، ولا عجب فهو مخلص للإسلام محب لرسول الله ﷺ؛ وحسبك أن تتأمل البيت الرابع عشر لترى مقدار التضحية التي يحب حسان أن يقدمها للحفاظ على عرض رسول الله ﷺ. وقد قيل في البيت الثاني عشر إنه أعدل بيت قيل في الهجاء. وفي البيت الثالث عشر سخرية شديدة لاذعة، كما أن في البيت الخامس عشر هجاء مصوراً.

ومن هذا المنطلق يمكن أن نقول إن حسان بن ثابت هو مؤسس شعر الدعوة الإسلامية.

التقويم الذاتي :

السؤال الأول : ما مناسبة النص ؟

السؤال الثاني : بالغ حسان في وصف سرعة الخيل وقوّتها. فبم وصفها؟ ولماذا يُهوِّل في هذا الوصف ؟

السؤال الثالث : علل ما يأتي :

أ - كان البيت الثالث عشر لاذع السخرية.

ب - كان البيت الرابع عشر صادق العاطفة.

السؤال الرابع : في أحد الأبيات وصف لدور المرأة المسلمة في المعركة. اذكر البيت واشرحه.

السؤال الخامس : لماذا لم يَهْجُ حسان قبيلة أبي سفيان وجعل هجاءه لشخصه؟

السؤال السادس : ما مدى تأثر حسان بمعاني الإسلام وألفاظه؟ وضح ذلك.

السؤال السابع : قال الأصمعي: هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية. فلما جاء الإسلام سقط شعره. ناقش هذه المقولة على ضوء دوافع الشعر وعلاقة الشعر بسن الشاعر.

السؤال الثامن : وضح الصورتين الواردتين في البيت الخامس عشر.

السؤال التاسع : تحدّث عن الموسيقا في النص بنوعيها الخارجي والداخلي.

السؤال العاشر : ذكر النقاد ثلاث مميزات فقالوا: هو شاعر اليمانية في الجاهلية، وشاعر النبي (ﷺ) في الإسلام؛ وشاعر الأنصار في الإسلام؛ وضحها.

ب - كعب بن زهير (٦٢٢م / ٢٤هـ)

حياته :

أبوه زهير بن أبي سلمى، ولد في غطفان قبيلة أمه كبشة حيث عاش والده، وهما أصلاً من قبيلة مزينة. وقد تلقّن الشعر عن أبيه، فكان يخرج به إلى الصحراء، فيلقي عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يجيزه تمريناً له وتدريباً على صوغ الشعر ونظمه.

وإذ أسلم أخوهُ بُجيْر وبّخه واستحثّه على ترك الإسلام وهجاه هجاء آذى فيه رسول الله - ﷺ - فأهدر دمه، ومن ثم راح يستجير بالقبائل. ونصحه أخوه بالرجوع ودعاه أن يُقدم على رسول الله تائباً. وشرح الله صدره للإسلام، فقدم المدينة وبدأ بأبي بكر، فوقع من نفسه فلما سلَّم النبي ﷺ من صلاة الصبح جاء به وهو متلثم بعمامته، فقال: يا رسول الله؟ هذا رجل جاء يبايعك على الإسلام، فبسط النبي ﷺ يده، فحسر كعب عن وجهه وقال: هذا مقام العائذ بك يا رسول الله! أنا كعب بن زهير، فتهجمته الأنصار وغلظت له، لذكره قبل ذلك رسول الله ﷺ، وأحبت المهاجرة أن يسلم ويؤمّنه النبي ﷺ، فأمّنه رسول الله[1].

وأنشده مدحته الخالدة:

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولُ مُتيَّم إثرها لم يُفْدَ مكبولُ

فكساه النبي - ﷺ - بُردته التي كان يلبسها، وقد اشتراها معاوية من أبنائه بعشرين ألف درهم، وتوارثها الخلفاء الأمويون فالعباسيون حتى آلت مع الخلافة إلى بني عثمان.

وقد توفي كعب نحو سنة ٦٦٢م/ ٢٤هـ.

---

(١) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص ٨٣، وابن قتيبة، الشعر والشعراء، ١/١٠٤ .

آثـاره :

لكعب ديوان طبعته دار الكتب المصرية، ليس فيه، إذا استثنينا قصيدة "بانت سعاد" إلا المقطوعات القصيرة التي نظمت في الأغراض المعروفة من مديح، وغزل، وهجاء، ورثاء وما إلى ذلك.

قصيدة "بانت سعاد" (البردة)[1] :

تُعدُّ من المشوبات [2]، وهي لامية من البحر البسيط لا تتجاوز ٥٨ بيتاً. اكتسبت شهرة واسعة وتناولها العلماء بالشرح والتفسير، كما تناولها الشعراء فشطروها وخمسوها وعارضوها. ومن شراحها ابن دريد (٩٣٣م) والتبريزي (١١٠٩م) وابن هشام (١٣٦٠م).

النص :

بانتْ سعاد فقلبي اليومَ متبولُ	مُتيَّمٌ إثرها، لم يُفدَ مكبولُ[3]
وما سعادُ غداةَ البين، إذ رحلوا	إلا أغنُّ غضيضُ الطرف مكحولُ[4]
تجلو عوارضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتسمت	كأنه مُنهلٌ بالراحِ، معلولُ[5]
أكرمْ بها خُلَّةً! لو أنها صدقتْ	موعودها، أو لو انَّ النصح مقبولُ[6]
فلا يغرنك ما منَّت وما وعدت	إن الأمانيَّ والأحلامَ تضليلُ[7]

---

(١) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، ٧٨٩/٢ .

(٢) المشوبات: قصائد شابها الكفر وأصحابها: النابغة الجعدي (٦٣٠م) كعب بن زهير (٦٢٢م)، القطامي (٧١٠م) الحطيئة (٦٧٩م)، الشماخ (٦٤٠م)، عمرو بن أحمر (٦٦٣م)، تميم بن مقبل (٦٢٥م).

(٣) بانت: فارقت. متبول: أسقمه الحب. متيم: مذلل بالحب. لم يفد: لم يجد من يفديه. مكبول: أسير مقيد.

(٤) البين: الفراق. أغن: صفة لصوت الغزال محببة. غضيض الطرف: فاتر النظر.

(٥) تجلو: تكشف. العوارض: الضواحك من الأسنان. الظلم: ماء الأسنان وبريقها. منهل: مسقي. الراح: الخمر.

(٦) خلة: المراد الخليلة. لا تلفظ همزة أن لضرورة الوزن.

(٧) منت: جعلتك تتمنى.

كانت مواعيدُ عُرقوبٍ لها مثلا   وما مواعيدُها إلا الأباطيل[1]
أرجو وآمُلُ أن تدنو مودتها   وما أخال لدينا منكِ تنويل[2]

* * *

أمست سعاد بأرض لا يُبلِّغها   إلا العتاقُ النجيباتُ المراسيل[3]
تسعى الوشاةُ بجنبيها وقولهم: إنك يا ابن سلمى لمقتول[4]
وقال كل خليل كنت آمُلُهُ   لا أُلهينَّكَ إني عنك مشغول[5]
فقلتُ: خلوا سبيلي، لا أبالكمُ   فكلُّ ما قدَّر الرحمنُ مفعولُ[6]
كلُّ ابن أنثى وإن طالتْ سلامتهُ   يوماً على آلةٍ حدباءَ محمول[7]

* * *

نُبِّئتُ أنَّ رسولَ اللهِ أوعدني   والعفوٌ عندَ رسول الله مأمولُ[8]
مهلا: هداكَ الذي أعطاك نافلةَ   القرآنِ، فيه مواعيظٌ وتفصيلُ[9]
لا تأخذَنّي بأقوالِ الوُشاة ولم   أذنب ولو كثُرت فيَّ الأقاويل[10]
إني أقومُ مقاما لا يقوم له   أرى وأسمع ما لو يسمعُ الفيلُ

---

(١) عرقوب: رجل من يثرب يضرب به المثل في إخلافه الوعد.
(٢) التنويل: العطاء.
(٣) لا يبلغها: لا يبلغ سعاد إليها. العتاق: النوق الكرام الأصول. النجيبات: السريعات.
(٤) جنبيها: حواليها، والضمير للناقة.
(٥) الهينك: أشغلنك.
(٦) لا أبالكم: يقال في المدح والذم.
(٧) حدباء: مؤنث أحدب وهو الذي تقوس ظهره، والمراد وصف النعش.
(٨) أوعدني: هددني، مأمول: متوقع.
(٩) النافلة: العطية الزائدة على ما يجب من العطاء.
(١٠) لا تأخذني: لا تتهمني.

حتى وضعتُ يميني ما أُنازعُها في كفِّ ذي نَقِماتٍ قولُه القِيلُ[1]
من خادرٍ من ليوث الأُسدِ مسكنُهُ من بطنِ عثَّر غيلٌ دونه غِيلُ[2]
إن الرسولَ لنورٌ يُستضاء به مهنَّدٌ من سيوفِ الله مسلولُ

* * *

في عُصبة من قُريش قال قائلهمْ ببطن مكّةَ لما أسلموا زُولوا[3]
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ عند اللقاءِ ولا مِيلٌ معازيلُ[4]
شُمُّ العرانين أبطالٌ لَبوسُهُمُ من نسجِ داودَ في الهيجا سرابيلُ[5]
لا يفرحون إذا نالتْ رماحهمُ قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا[6]
لا يقعُ الطعنُ إلا في نُحورِهمُ وما لهم عن حياضِ الموتِ تهليلُ[7]

تقسم القصيدة من حيث المضمون[8]:

أ - مقدمة غزلية تقليدية ألمّ فيها بالمعاني الآتية :

١ - فراق محبوبته ورحيلها.
٢ - تشبيهها بالغزال.
٣ - تغريرها به ومخادعته.
٤ - وصف عذابه بها.

---

(١) ما أنازعها: مستسلما. قوله القيل: كلامه الصادق.
(٢) الخادر: الأسد في الغابة. ليوث الأسد: أقوى الأسود وأجلدها. عثر: مكان تكثر فيه الأسود. الغيل: أجمة الأسد.
(٣) عصبة من قريش: يعني المهاجرين. زولوا: هاجروا. قائلهم: هو عمر بن الخطاب: زولوا: أي انتقلوا من مكة إلى المدينة.
(٤) أنكاس: جمع نكس وهو الضعيف. كشف: أكشف وهو الذي لا ترس له. ميل: جمع أميل وهو الجبان. معازيل: جمع معزال وهو من لا سلاح له.
(٥) شم العرانين: الأنوف العالية، كناية عن العزة والإباء. من نسج داود: صنع داود، كناية عن الدروع القوية. الهيجا: الحرب. سرابيل: دروع؛ أي لباسهم دروع من نسج داود.
(٦) نالت: أصابت. مجازيع: جمع مجزاع وهو شديد الخوف. نيلوا: أصيبوا.
(٧) حياض الموت: موارد الهلاك. تهليل: فرار.
(٨) انظر: إيليا حاوي، في النقد والأدب، الجزء الثاني، ص ١٥٣ - ١٦٤ .

فيذكر سعاد ويشير إلى فراقها دون تفصيل مقتصرا على الناحية الإخبارية، ويذكر أن قلبه مرتهن عندها فليس له فكاك.

وشبهها بالغزال الأغن، المنكسر الطرف، المكحول العينين. مستعيراً لها بذلك جمال الصوت وحسن إيقاعه ووقعه. وفتور النظر ناميا إليها بها السحر والإغواء.

ويردف بوصف أسنانها، وبسمتها المتألقة عليها، ويتعرض إلى رضابها، متمثلا إياه بالراح وهذه معان أتباعية مكرورة لم يضف إليها من ذاتيته ما يبث فيها الحياة والقدرة على الإيحاء والتأثير. أما سوء ظنه بها وذكره لمخادعتها، فيتخذ منهما أداة لإظهار تنكره للمرأة. فهي تواعده لتغرر به وتخلبه، ثم تخلف وعدها فيتضلل ويلتبس عليه أمره. والكذب هو وسيلة للتدليل. تفرح بإغواء الرجل وتتيمه، دون أن تواصله، ليتضاعف شغفه بها وتتضاعف غبطتها بإذلاله واقتياده.

ويعمد الشاعر إلى مقارنة طباعها بطباع عرقوب الذي ذهب مثلاً في وعده ومماطلته، ومؤدى كلامه في هذا الشأن أن الإنسان عبد لميوله، وأن المرأة تخادعه وتفقده كرامته، ولا خلاص له من نفسه وأهوائه.

وأما وصف عذابه بها، فقد عرض له بألفاظه المأثورة والتتيم والكبول، وهي ألفاظ تكرر معنى واحداً متشابهاً، مباشراً، وإن كانت الكبول تؤدي له صورة، بعد أن كانت فكرة.

ب - **وصف الناقة التي تبلغ بالشاعر إلى المحبوبة** : ويخرج من ذلك إلى وصف ناقته مستلهماً ما نظمه أبوه في هذا الموضوع من قبل.

وتتجلى في هذا القسم براعة الشاعر الذي نشأ على حب الطبيعة والتأمل في جزئياتها وقد بث في هذا الوصف قوة واندفاعاً بظهران حتى في الألفاظ والموسيقى الشعرية.

غـلـبـاءُ وَجـنـاءُ عُـلـكـومٌ مُـذكّـرَةٌ		فـي دَفِّـهـا سـعـةٌ قُـدّامـهـا مِـيـلُ[1]

ج - **ذكر أقوال الوشاة**: وقد عالج فيه أربعة معان أساسية هي الآتية :

١ - إنذاره بالقتل المحتم: يطالعنا في قول القائلين "إنك يا بن أبي سلمى لمقتول" وهو يتوسلهم لتعظيم شأن النبي بهيبته فيهم وإيمانهم بقدرته المطلقة. وقوله هذا شبيه بقول النابغة معتذراً للنعمان ومعظماً له :

فإنّـكَ كـالـلـيلِ الـذي هـو مُـدركي		وإن خلـتُ أنّ المُنتـأى عنكَ واسعُ

٢ - تولي أصحابه عنه وانشغالهم بهمومهم عن مناصرته: فأصحابه عرفوا صولة النبي ﷺ، فإذا هم ينأون عنه، نجاة بأنفسهم من الويل المحدق به والذي لا مفر منه، إذ يقول :

وقـال كـل خـلـيـل كـنـت آمُـلـهُ		لا أُلـهـينّـك إنـي عـنـك مشـغـول

٣ - إيمانه بقدر الموت المكتوب، بقوله :

فقـلـت: خـلـوا سبيـلي، لا أبالكـم		فـكـلُّ ما قـدر الـرحـمـنُ مفـعـول

وهو تعبير عن يأسه العميق وخضوعه لقدر الموت، مما يعد امتدادا لما تقدم ذكره من تعظيم لهيبة النبي ﷺ وصولته.

٤ - إذعانه لحتمية الموت: فهو يتعزى بالقول إنه مائت لا محالة، ولا فرق في ذلك أن يموت اليوم أو غدا أو فيما بعده.

---

(١) الغلباء: الغليظة الرقبة، كناية عن القوة.
الوجناء : الناقة الشديدة الصلبة.
العلكوم: الضخمة، العظيمة. الدف: الجنب.
قدامها ميل: أي طويلة العنق.

د - المدح والاعتذار المباشران.

أولاً - المدح : ويقوم على المعاني الآتية :

١ - إقراره برسالة النبي ﷺ بقوله: "نبئت أن رسول الله أوعدني" ناسخاً المعنى بلفظه من النابغة بقوله: "نبئت أن أبا قابوس أوعدني" وممهدا بها لطلب العفو إذ يقول: "والعفو عند رسول الله مأمول"، مكررا العبارة الإضافية "رسول الله" مرتين. مازجاً بين المعنى المدحي والمعنى الاعتذاري.

٢ - تمثيله بنور للهداية، أي امتداحه بالقتال في سبيل الحق والدين إذ يقول:

إن الرسول لنور يستضاءُ به   مهند من سيوف الله مسلول

ولما سمع النبي ﷺ هذا البيت خلع على الشاعر بردته.

٣ - امتداحه باجتماع قريش حوله، وبخاصة من هاجر منهم ليوعز بذلك إلى أن قوم النبي ﷺ ناضلوا من دونه منذ البدء.

٤ - امتداح القرشيين بالبطولة في صورة موحية إذ يقول:

شم العرانين، أبطال، لبوسهم   من نسج داود في الهيجا سرابيل

والدروع هنا ترمز إلى ما دونها من سائر الأسلحة.

ثم يرسل لهم صورة أخرى تجمع الواقعية إلى المثالية بقوله :

لا يقع الطعن إلا في نحورهم   وما لهم عن حياض الموت تهليل

فالواقعية تبدو في اعترافه بأنه قد يقع منهم قتلى، والمثالية في أنهم لا يطعنون في ظهورهم بل في صدورهم، فهم يؤثرون الموت على الفرار.

وفي بيت آخر يجعلهم يقاتلون قياما بواجب القتال لا رهبة ولا رغبة، إذ يقول :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم   قوما، وليسوا مجازيعا، إذا نيلوا

وهذه معانٍ مدحية متزنة عاقلة، ولعله ورث الروية عن أبيه زهير.

ثانياً - الاعتذار:

ويقوم على معنى أساسي عام، مستفاد من سنة الاعتذار في شعر النابغة، يحشد فيه معاني الرهبة المباشرة بعد أو أوحى بها في مطلع سابق بصورة غير مباشرة. ويمكن أن نستطلع عبر ذلك ما يلي :

١ - دحضه لما زوَّر الوشاة عليه بقوله :

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب، وإن كثرت فيَّ الأقاويل

فهؤلاء يتقولون تقولا، ويتحاملون عليه، وهو بريء.

٢ - خوفه من الهلاك، إذ أوعده النبي ﷺ، ويمثل ذلك بالمقام الذي يقوم فيه بين يدي النبي ﷺ، وهو يبث الرعب حتى في روع الفيل. ويشفع هذا الاعتذار، بتأكيده قوة النبي ﷺ.

أما عاطفة الشاعر فصادقة يمتزج فيها الخوف والرجاء والإعجاب.

وهذه القصيدة تُعدُّ من روائع الشعر العربي، وحسبها شرفا أنها نالت إعجاب النبي ﷺ فعفا عن قائلها، وألبسه بردته التي كانت عليه. وقد ترجمت حديثاً إلى الفرنسية والإيطالية.

وقد أخذ النبي ﷺ مأخذاً واحداً على القصيدة، وهو أنها اشتملت على مدح المهاجرين دون الأنصار[1]، ولذلك قال لكعب: هلا ذكرت الأنصار؟! فنظم الشاعر قصيدة رائية يمدح فيها الأنصار.

---

(١) وقد عرض بهم من خلال مدح المهاجرين. وأنكر المهاجرون ذلك، وقالوا: لم تمدحنا إذ هجوتهم. ولم يقبلوا منه ذلك حتى مدح الأنصار. أما تعريضه ففي قوله :

يمشون مشي الجمالِ الزُهر يعصمهم
ضرب إذا عرّد السود التنابيل

فقد وصف الأنصار بالجبن وقصر القامات، ثم عاد فمدحهم إذ يقول :

ورثوا السيادة كابرا عن كابر
إن الكرام هم بنو الأخيار

وخلاصة القول، فإنَّ كعباً شاعر أوسي نشأ تحت رعاية والده، وأخذ عنه طريقته. نلمس في شعره سيطرة الخيال الحسي، إذ يعبر عن الأشياء ويحسها عن طريق المخيلة المدققة التي تحول العاطفة والفكرة إلى صورة. وهو يبالغ في اصطناع الألوان والصور ويستعيض بها عن ثورة العاطفة.

وهو يعنى بتتبع المعنى، فإذا وصف إخلاف سعاد للوعد. تبسط في الموضوع، ولكن تبسطه ليس تحليلاً وتعمقاً إنما هو تكرارات وصور مختلفة يقصد بها التقرير.

كما أنه يعنى بالتنسيق ووحدة القصيدة، وهو يحكم الانتقال من معنى إلى معنى ومن قسم إلى قسم، فإذا أراد الانتقال مثلاً من الغزل إلى وصف الناقة قال:

أمست سعاد بأرض لا يبلغها إلا العتاق، النجيبات المراسيل

وتظهر الصناعة في شعره، وهو لا يكتفي باصطناع الأقدمين، بل يلجأ إلى الإطناب للتقرير، ثم إنه يلجأ إلى اختيار الألفاظ ذات الجرس الشديد، وإلى التكرير اللفظي. يدعم كل ذلك بالحِكَم التي تزيد كلامه قوة، وتلك العناصر قوام بلاغته.

التقويم الذاتي :

السؤال الأول : تحدَّث عن جو القصيدة.

السؤال الثاني : ما نوع المقدمة التي بدأ بها الشاعر قصيدته؟

السؤال الثالث : هل استطاع الشاعر أن يحسن الانتقال من مقدمته إلى موضوعه الرئيس؟ وضّح ذلك.

السؤال الرابع : يشير الشاعر في البيت الحادي عشر إلى ركن من أركان الإيمان. فما هو؟

السؤال الخامس : لماذا يكرر الشاعر كلمة رسول الله في البيت الثالث عشر؟

السؤال السادس : في البيت العشرين صورتان جميلتان، وضحهما.

السؤال السابع : ماذا يقصد الشاعر بقوله : (لا يقطع الطعن إلا في نحورهم)؟

السؤال الثامن : ما الصفات والفضائل التي نسبها الشاعر للمهاجرين؟

السؤال التاسع : ما المأخذ الذي أخذه النبي (ﷺ) على القصيدة؟

السؤال العاشر : كيف تبدو عاطفة الشاعر في القصيدة؟

السؤال الحادي عشر : وازن بين البيت الأخير وقول الشاعر :

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا

ولكن علــى أقدامــنا تقطر الدّما

ج - الحطيئة (٦٧٩م / ٥٩هـ)

حياته :

١ - نشأته :

هو جرول بن أوس بن مالك. لقب بالحطيئة لقصره أو لدمامته[١]، وولد لأمة تسمى الضراء، كانت لأوس بن مالك العبسي. ونشأ في حجره مغموزا في نسبه، مما جعله قلقا مضطربا.

وزاد في اضطرابه ضعف جسمه وقبح وجهه إذ كانت تقتحمه العيون، ولم يكن فيه فضل شجاعة يستطيع أن يتلافى به هوان شأنه في "عبس" على نحو ما صنع عنترة من قبله. تزوج بأم مليكة، وأظهر لها ولأولاده العطف[٢].

٢ - مدرسته :

لزم زهير بن أبي سلمى، منذ تيقظت في نفسه موهبة الشعر. وتَخرَّج في مدرسته التي كانت تُعنى بالتعبير وصقله وتصفيته من كل شائبة، كما كانت تُعنى بالمعاني ودقتها. وكان يروي شعره وشعر ابنه كعب.

٣ - إسلامه :

اختلف الرواة في تاريخ إسلامه، إلا أنه أسلم في أواخر حياة النبي ﷺ، ونراه يسارع إلى الردة، معينا بشعره المرتدين على أبي بكر وخلافته، حتى ليقول:

أطعنا رسولَ اللهِ إذ كان بيننا ... فيا لعبادِ اللهِ ما لأبي بكرِ

أيورثُها بكرا، إذا مات، بعده ... فتلك، وبيتِ اللهِ، قاصمةُ الظهرِ[٣]

---

(١) خزانة الأدب، ٤٠٩/١ .

(٢) انظر : ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ٢٣٨/١ .

(٣) ديوان الحطيئة، ص ١٠٩ و١١٠ .

صفاته وتكسبه :

يقول الأسمعي: "كان الحطيئة جشعا سؤولا ملحفا دنيء النفس، كثير الشر، قليل الخير، بخيلا، قبيح المنظر، رثَّ الهيئة، مغموز النسب، فاسد الدين، وما تشاء أن تقول في شاعر من عيب إلا وجدته، وقلما تجد ذلك في شعره" [1].

ويبدو أن الأصمعي بالغ في نعته بهذه الصفات، وكان كغيره يمدح سادة القبائل بشعره، وقد تكون حادثته مع الزبرقان بن بدر هي التي شوَّهته، إذ أقام عنده زمنا على سعة ورحب، ثم إن امرأة الزبرقان خشيت أن يتوله زوجها بابنة الحطيئة وكانت جميلة، فجعلت تسيء معاملته. وأتيحت بذلك الفرصة لبني أنف الناقة - إذ كانوا ينافسون عشيرة الزبرقان - فضموا الحطيئة إليهم وبالغوا في إكرامه، فمدحهم [2] معرضا بالزبرقان، بقوله :

دَعِ المكارمَ لا ترحل لِبُغيتها　　　واقعد فإنك أنتَ الطّاعمُ الكاسي

ورفع الزبرقان أمره إلى عمر، فحكَّم حسان بن ثابت فيه، فلما حكَم بأنه هجاه حبسه. وأخذ الحطيئة يستعطفه بأبياته المشهورة التي يقول فيها :

ماذا تقول لأفراخ بذي مَرَخٍ　　　زُغبِ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شجرُ [3]

ألقيت كاسبهم في قعر مُظلمةٍ　　　فاغفر عليك سلامُ الله يا عمرُ

وَلَانَ له قلب عمر، فعفا عنه بعد أن أخذ عليه العهد أن لا يعود إلى الهجاء [4].

---

(١) الأغاني، ١/ ١٧٥ .

(٢) مما قاله فيهم :

قوم هم الأنفُ والأذنابُ غيرهمُ　　　ومن يُسوّي بأنفِ الناقة الذَّنبا

فرفع به عار اسمهم، بل صار لهم ذلك فخرا.

(٣) ذو مرخ: واد بالحجاز. زغب الحواصل: كناية عن صغرهم؛ الدقيق من الريش. الحواصل: جمع حوصلة: وهي معدة الطائر. المظلمة: البئر المظلمة.

(٤) الأغاني، ٢/ ٧٩ وما بعدها.

والواقع أن الحطيئة لا يقذع في هجائه هنا، بل يعمد إلى التهكم والسخرية؛ ذلك أنّ الإسلام خفّف من حدة لسانه.

وفي عهد عثمان < اتجه نحو العراق، فمدح الوليد بن عقبة واليه على الكوفة. ويمدح من بعده سعيد بن العاص الذي خلفه في تلك الولاية، كما يمدحه في ولايته لمعاوية على المدينة (٤٩ - ٥٥هـ) ونرى أهلها يجمعون له من أموالهم خشية معرة لسانه.

وفاتــه :

توفي الحطيئة نحو سنة ٦٧٩م/ ٥٩هـ، ويُروى أنه لما حضرته الوفاة أوصى أن يُحمل على أتان إلى أن يموت، قائلا في ذلك إن الكريم لا يموت على فراشه فحمل على أتان تذهب وتجيء به.

آثــاره :

للحطيئة ديوان تصرَّف الرواة بقسم من شعره؛ طبع للمرة الأولى في القسطنطينية سنة ١٨٩٠م ثم طبع في ليبسك سنة ١٨٩٣، ثم في مصر سنة ١٩٠٥، وفيه مديح، وهجاء، وفخر، ونسيب.

فنــه :

ينتسب الحطيئة إلى المدرسة الأوسية [١]، فلا عجب أن ظهرت في فنه جميع الميزات الأوسية؛ وأبرزها الرويّة والتأنّي؛ والتصوير الحسي. وكان على شاكلة زهير. فكان يعنى بشعره عناية شديدة وقد أثر عنه أنه كان يقول: "خير الشعر الحولي المحكك"؛ فكان ينقّحه ولا يذيعه إلا وقد استقام له من كل الوجوه.

وقد أفرد له صاحب الأغاني ترجمة وافية، وقدّمه بالقول: "وهو من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم، متصرف في جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب، مجيداً في ذلك أجمع" [٢].

---

(١) مدرسة اوس بن حجر؛ استاذ زهير بن ابي سلمى.

(٢) الأغاني، ٢/١٤٩ .

ونراه في مطولاته يشبب ويصف الصحراء وحيوانها. ومدائحه لا تقل عن مدائح زهير جودة على شاكلة قوله في بني أنف الناقة (آل شماس) [1]:

يسوسون أحلاما بعيدا أناتُها ... وإن غضبوا جاء الحفيظة والجِدُّ
أولئك قوم إنْ بَنَوا أحسنوا البُنى ... وإن عاهدوا أوفَوا وإن عقدُوا شدُّوا

واستطاع أن يغسل بخله - الذي أشار إليه الرواة - بكثرة مديحه للكرم، وبقصيدته "وطاوي ثلاث" [2] وفيها يصور أعرابيا فقيراً نزل به ضيف، وعياله من حوله يتضوَّرون جوعاً، فهمَّ أن يذبح له أحدهم، لولا أن عَنَتْ له أتان وحشية، فصادها وقدَّمها لضيفه.

كما بالغ الرواة في اتهامه بفساد الدين، فقد حسن إسلامه، وآية ذلك قوله في وصف العمل الصالح :

ولست أرى السعادةَ جمعَ مالٍ ... ولكن التقيّ هو السعيد
وتقوى الله خيرُ الزاد ذُخرا ... وعند الله للأتقى مزيد

وقال أبو عمرو بن العلاء: لم يقل العرب بيتا قط أصدق من بيت الحطيئة [3] :

من يفعلِ الخيرَ لا يعدَمْ جوازِيَه ... لا يذهبُ العُرْفُ بين اللهِ والناسِ

ويعتمد الحطيئة التصويرَ الحسي في شعره، فيميل إلى الواقعية التي تجسم الفكرة وتكسوها مادة، كقوله في هجاء الزبرقان:

جارٌ لقومٍ أطالوا هُونَ منزله ... وغادروه مقيما بين أرماسِ [4]

---

(١) ديوان الحطيئة، ص ٧٢ .

(٢) مطلع القصيدة :

وطاوي ثلاثٍ عاصب البطن مُرمل ... ببيداءَ لم يعرفْ بها ساكنٌ رسما

طاوي ثلاث: جائع ثلاث ليال. عاصب البطن: كناية عن الجائع. رسما: أثرا للعمران. مرمل: شديد الفقر.

(٣) الأغاني ٢/ ١٧٣ .

(٤) الهون: الذلة. الأرماس: جمع رمس وهو القبر.

مـلّــوا قِــراه وهــرّتــه كــلابــهــمُ   وجــرَّحــوه بــأنــيــابٍ وأضــراسِ[1]

وكان ميَّالا إلى الهجاء، تدفعه حاجته إلى المال؛ ويروى أن عمر بن الخطاب < قال له: إياك وهجاء الناس! فقال: يموت عيالي جوعا: هذا مكسبي ومنه معاشي. فاشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم[2].

وكان هجاؤه يهدف إلى أمرين، هما:

١ - التكسب والتشفي كهجائه للزبرقان.

٢ - إرضاء حاجة في نفسه كالذي قاله في زوج أمه، وفي أمه، وفي ضيفانه.

وكلها مزاح حتى لنراه يمزح مع نفسه، فيقول:

أرى لـيَ وجـهـاً شـوّه الـلـه خَـلـقَـهُ   فـقُـبّـحَ مـن وجـهٍ وقُـبّـح حـامـلُـه

وكذلك هجا زوجته فقال:

أُطَــوف مـــا أطــوّفُ ثــم آوي   إلـى بـيـتٍ قـعـيـدتُـه لَـكَـاعِ[3]

(١) القرى: الضيافة. هرته كلابهم: نبحته لأنها لم تالف الضيوف.

(٢) الشعر والشعراء، ص ٢٠٣ .

(٣) لكاع: المرأة اللئيمة.

المتخيَّر من شعره :

الحطيئة يمدح آل شماس[1]

أقلّوا عليهم لا أباً لأبيكمُ … من اللوم أوسُدّوا المكانَ الذي سَدُّوا
أولئكَ قومٌ إن بَنَوْا أحسنوا البُنى … وإن عاهدوا أوفَوا وإن عَقدُوا شدُّوا[2]
يسوسون أحلاما بعيدا أناتُها … وإن غَضِبوا جاء الحَفيظة والجِدُّ[3]
وإن كانت النُّعمى عليهم جَزَوْا بها … وإن أنعموا لا كدَّروها ولا كَدُّوا[4]
وإن قال مولاهم على جِلِّ حادثٍ … من الدهر: رُدُّوا فضل أحلامكم رَدُّوا[5]
مطاعينُ في الهيجا مكاشيفُ للدجى … بنى لهم آباؤهمْ وبنى الجَدُّ
وتعذلُني أفناءُ سعدٍ عليهمُ … وما قُلتُ إلا بالذي عَلِمتْ سعدُ[6]

جو النص :

قصد الحطيئة زعيما من زعماء تميم هو الزبرقان ومدحه، لكن زوجه أساءت إلى الشاعر، فتحوَّل إلى آل شماس، وهم أيضاً من تميم، لكنهم كانوا منافسين للممدوح الأول.

ومدحهم بقصيدة بدأها بالغزل على عادة الشعراء :

ألا طرقتنا بعدما هجعوا هندُ … وقد سِرن خمساً واتلأبَّ بنا نَجْدُ[7]

(١) ديوان الحطيئة، ص ٧١ – ٧٣ .
(٢) يروى البُنى؛ والبنى جمع بنية وهي ما يبنى.
(٣) الحفيظة: الأنفة.
(٤) النعمى: طيب العيش ورفاهيته.
(٥) جلّ حادث: أمر عظيم.
(٦) الأفناء : أخلاط الناس، والمقصود هنا بطون سعد.
(٧) طرقتنا: زارتنا ليلا. اتلأب: انطلق وتتابع. والمتلئب: المنبسط. النجد: ما ارتفع من الأرض. ومعنى البيت يرجو أن تقبل عليه هند بطيفها، بعد رحلة أيام خمسة، اجتاز بها الأرض المرتفعة.

المضمون :

يخاطب الشاعر منافسي آل شماس فيقول لهم: لا تلوموا هؤلاء العظماء، وإن أردتم أن تتعرضوا لهم فافعلوا مثل فعالهم.

إنهم قوم يجيدون بناء المجد، ويوفون بالعهد، ويتمسكون بالحقوق والمواثيق المعقودة. وهم حلماء، واسعو الصدور، يتحلّون بالرفق والأناة. ولكنهم عند الغضب ذوو ثورة وجد عظيمين، وإذا أسدى إليهم أحد نعمة جزوْه بها، وإذا أنعموا على الناس لم يُتبعوا نعماهم منّاً وتكديرا وإرهاقاً. ومهما تشتدّ الأمور فإنهم يحترمون الكلمة ويقفون عندها، حتى لو أن سيدهم قال لهم: الزموا الحلم لوقفوا عند رأيه.

وهم يجيدون الطعان في المعركة، ويكشفون ظلام الخطوب، وقد ورثوا الفضائل أبا عن جد.

وقد لامني في مدحهم منافسوهم من بطون سعد مع أني لم أقل إلا الذي يعلمه عنهم الجميع.

تحليل النص :

- **العاطفة :** تبدو عاطفة الشاعر في أبياته صادقة فهو معجب حقاً بآل شماس الذين أكرموه وبالغوا في إكرامه بعد أن انصرف عن منافسيهم.
- **الألفاظ :** كان الحطيئة من الشعراء الذين يُنقّحون ألفاظهم، ولهذا جاءت في غاية الجمال والجزالة. لا ترى لفظة مستكرهة أو شديدة الغرابة. ثم إن في عباراته تقسيماً موسيقياً عذباً تلمحه في كل بيت، ولكنه يتجلى بوضوح في البيتين الثاني والسادس.

وهناك تناسب رائع بين الألفاظ والمعاني، فهو يختار الألفاظ الفخمة حين يمدحهم بالشجاعة كقوله: "وإن غضبوا جاء الحفيظة والجد". وكقوله: "مطاعين في الهيجا مكاشيف للدجى". لكنه يأتي بألفاظ رقيقة حين يصف

شمائلهم الرقيقة، كقوله: "إن بنوا أحسنوا البنا". وكقوله: ـ "إن كانت النعمى عليهم جزوا بها".

- **الأفكار**: تدور الأبيات حول فكرة رئيسة واحدة، وهي مدح آل شماس بالصفات الفاضلة التي كان يتمدح بها العرب من كرم، وحلم، وشجاعة، وسؤدد.

وهذه المعاني منتزعة من بيئة الشاعر وهي البيئة البدوية التي يزداد فيها التنافس على تلك الصفات. وقد نسبها الشاعر لممدوحيه بطريقة جميلة.

الصورة والأخيلة :

الحطيئة بدوي الخيال، وقد جاءت صوره لطيفة محببة، ومنها قوله :

١ - "وإن بنوا أحسنوا البُنى" : فقد صوَّر المجد بالبناء الشامخ.

٢ - "وإن عقدوا شدوا" فقد صوَّر الميثاق بالحبل المعقود.

٣ - "يسوسون أحلاما بعيدا أناتها" فقد صوَّر أحلامهم، أي عقولهم، بالخيل العنيفة التي تحتاج إلى ترويض.

٤ - "مكاشيف للدجى" فقد صوَّر الخطوب والكرب والمصائب بالظلمات.

الموسيقى :

أ - الموسيقى الخارجية (الوزن والقافية): فقد حافظ الحطيئة على وحدة الوزن والقافية، شأنه في ذلك شأن معاصريه؛ فوزن القصيدة هو بحر الطويل، وهو بحر يصلح لطول تفعيلاته للحديث عن المدح، ورويها الدال المضمومة.

ب - الموسيقى الداخلية: وتتمثل في الألفاظ الموحية بمعاني القوة، فضلاً عن شدة جرسها وجزالتها. وتبدو في صوره الخيالية التي تلائم طبيعة الممدوحين.

وخلاصة الأمر فإن هذه الأبيات تُعدُّ من عيون الشعر لما تميزت به من صفاء الأسلوب، وأناقة اللفظ، وجمال الخيال، وشرف المعنى.

د - الخنساء (٦٦٤م / ٤٤هـ)

حياتها :

هي أم عمرو تُماضِر بنت عمرو بن الشَّريد السُّلمية. ولدت نحو سنة ٥٧٥م، وكانت تقيم بين المدينة ومشارف نجد. وقد نشأت في بيت عز وشرف، فأبوها سيد قومه، وأخوها صخر يخلفه على السيادة. وكانت لها مكانة مرموقة، إذ رفضت الزواج من سيد هوازن دريد بن الصِّمَّة. ثم تزوجت مرتين الأولى بعبد العزى والثانية بمرداس السلمي.

لقبت الخنساء لخَنَس[1] في أنفها، ومعنى الخنساء بقرة الوحش. وكانت الخنساء جميلة.

طُعن أخوها صخر في إحدى الغارات بين بني سُليم وبني أسد، وقد أورثته تلك الطعنة علة لم يلبث أن مات بعدها، وحزنت عليه وجزعت لفراقه، ورثته، وكان شقيقها معاوية قد قتل قبله، فبكته، دون أن ترثيه بمثل ما رثت صخرا، ويقال إن صخرا كان يقاسمها ماله مراراً، إذ تزوجت رجلاً كريماً مسرفا، ولم يترك لها شيئاً. لقد كان عظيم البِرِّ بها، مع أنها أخته لأبيه.

وَفَدَتْ الخنساء مع قومها بني سليم على الرسول ﷺ، وأسلمت على يديه وأنشدته شعرها فاستحسنه، وكلما قدمت إليه استزادها من إنشاد الشعر، بقوله لها: هيه يا خُناس. ولما استشهد أبناؤها الأربعة يوم القادسية سنة ٦٣٨م قالت: الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته.

توفيت الخنساء بعد أن كُفَّ بصرها، واختلف في تاريخ وفاتها، فقيل في أول خلافة عثمان (﵁) سنة ٢٤هـ، وقيل في أول خلافة معاوية بن أبي سفيان نحو سنة ٦٦٤م/ ٤٤هـ ولها من العمر نحو ٨٩ سنة.

---

(١) الخنس : تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع الأرنبة.

شاعريتها :

تُعدُّ الخنساء شاعرة متميزة؛ فشعرها يتسم بالصفاء والصدق، نفثته عاطفة جياشة تستدر البكاء وتملأ القلب بالحزن. وشعرها معظمه مقطوعات، تدور حول الرثاء والفخر وبعض الوصف.

تكثر في شعرها أساليب الاستفهام التي يغلب عليها التحسر والحيرة والذهول، ولربما تخرج أحياناً في مبالغاتها عن المألوف، إذ تذهل عن نفسها، لحزنها الشديد على أخيها صخر. ويكثر التكرار البليغ في شعرها، وكذلك التصوير الفني كالتشبيه والكنايات الطريفة.

وخلاصة القول، فإن أسلوب الخنساء سهل ليّن يرتكز على العاطفة الهائجة التي تنطلق دون تكلف، وتنبع من عالم الذكريات، فكل شيء يُذكِّرها بأخيها صخر، فالشمس إذا طلعت تذكرها بغارات صخر، وإذا غربت تذكرها بكرمه :

يذكرني طلوع الشمس صخرا وأذكره لكل غروب شمس

ولولا كثرة الباكين حولها لقتلت نفسها، فنسمعها تردد قائلة :

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

وإذ ملأت الدنيا بكاء وعويلا فقد صوّرت تجربة الموت أدقّ تصوير وعبَّرت بأشعارها عن مرارة الفراق وألم الموت، فعاش هذا الشعر وأحسَّته القلوب وتجاوبت معه، وانفعلت به.

المتخيَّر من شعرها :

قالت ترثي صخرا وتفخر به[1] :

قذىً بعينيكَ أم بالعين عُوّار ... أم ذَرَّفت إذ خلتْ من أهلها الدار[2]

كأنّ دمعي لذكراه إذا خطرتْ ... فيضٌ يسيل على الخدّ مِدرارُ[3]

تبكي لصخرٍ هي العبرى وقد ولِهتْ ... ودونه من جديد التُّربِ أستارُ[4]

تبكي خُنّاسُ على صخرٍ وحَقَّ لها ... إذ رابها الدهرُ إن الدهرَ ضَرّارُ[5]

لا بد من ميتةٍ في صرفها غِيرٌ ... والدهر في صرفه حَوْلٌ وأطوارُ[6]

وإنّ صخراً لوالينا وسيدنا ... وإن صخراً إذا نشتو لنحّار

وإنّ صخراً لمقدامٌ إذا ركبوا ... وإن صخراً إذا جاعوا لعقّارُ

وإن صخراً لتأتمُّ الهداةُ به ... كأنه علمٌ في رأسه نارُ[7]

حمّالُ ألويةٍ، هبّاطُ أوديةِ ... شهّادُ أنديةٍ، للجيشِ جرّارُ

لم ترهُ جارةٌ يمشي بساحتها ... لريبةٍ حين يُخلي بيته الجارُ

---

(١) ديوان الخنساء، تحقيق أنور أبو سويلم، ص ٣٧٧ وما بعدها.

(٢) عُوّار : رمد.

(٣) فيض : مطر غزير.

(٤) العبرى : التي تسكب الدموع. وَلِهَتْ: ذهلت من الحزن.

(٥) رابها : أثار ريبتها وأضرّ بها.

(٦) صرفها : حوادثها. غيرَ : مصائب. حول وأطوار: تحوّل وتقلّب.

(٧) علم : جبل.

التقويم الذاتي :

السؤال الأول : تحدّث عن جو النص.

السؤال الثاني : ما غرض الاستفهام في البيت الأول ؟

السؤال الثالث : في البيت الأول تجريد. تقول فيه (قذى بعينكِ). فما معنى التجريد؟

السؤال الرابع : كيف ترى عاطفة الشاعرة؟ ولماذا؟

السؤال الخامس : تقول الخنساء: وإن صخراً - إذا نشتو - لنحار. فما فائدة قولها إذا نشتو؟

السؤال السادس : كررت الشاعرة كلمة "صخر" خمس مرات في ثلاثة أبيات. فما فائدة هذه التكرار؟

السؤال السابع : في البيت الثامن صورة بيانية رائعة. وضحها .

السؤال الثامن : في البيت التاسع أربع صفات رائعة، وضّحها.

السؤال التاسع : في البيت الأخير فضيلة أيّدها الإسلام وحثّ عليها، اذكرها.

الفصل الثالث

النثـــــر

أبرز فنون النثر التي سنقف عندها هي الخطابة، والكتابة التي تمثلت في العهود والمواثيق.

(أ) الخطابة :

كان ظهور الإسلام إيذاناً بتطور واسع في الخطابة، إذ اتّخذها الرسول - ﷺ - أداة للدعوة إلى الدين الحنيف، ومتمّمة للذكر الحكيم، ومن ثم كانت فرضا مكتوبا في صلاة الجمع، والأعياد، ومواسم الحج.

وطبيعي أن تقضي هذه الخطابة على كل لون قديم من الخطابة الجاهلية لا يتفق وروح الإسلام، سواء سجع الكهان أو خطابة المنافرات، فقد نهى الإسلام عن التفاخر بالآباء والأنساب والأحساب وإن ظلت لذلك بقية في حياة الرسول ﷺ حين كانت تفد عليه وفود العرب، على نحو ما نعرف عن وفد تميم وقيام خطيبهم عطارد بن حاجب بن زرارة بين يديه مفاخرا بقومه، وقد ندب له الرسول ﷺ ثابت بن قيس بن الشماس، فردّ عليه مستوحياً هدي الإسلام، ولم يلبثوا أن استجابوا لله ولرسوله [1].

وقد ازدهرت الخطابة في هذا العصر للعوامل الآتية :

١ - أنها أصبحت لسان الدعوة الإسلامية ووسيلة نشرها.

٢ - أن الإسلام فرض الخطابة وجعلها من شعائره في الجمعة، والعيدين، وفي يوم الحج الأكبر.

(١) انظر : تاريخ الطبري، ٢/ ٣٧٢ .

٣ - استعملت الخطابة في تحميس الجنود في معارك الفتوحات، إذ كان العصر الإسلامي عصر فتوحات، ومعارك خالدة.

٤ - ثارت الفتن السياسية والدينية منذ مقتل عثمان > ، وتشعَّبت المذاهب والمعتقدات والفرق.

خطابة الرسول ﷺ :

كان محمد - صلوات الله عليه - يخطب في العرب ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية، وقد أوتي من الفصاحة ما ملك به أزمّة القلوب وظل طوال ثلاثة عشر عاماً يعرض على قومه من قريش ومن يلقاه في الأسواق كتاب الله حينا، وحيناً آخر كان يخطب في الناس داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة فقد قال ﷺ بعد الجهر بالدعوة [١] :

"إن الرائد [٢] لا يكذبُ أهلَه، والله لو كَذَبتُ الناسَ جميعا ما كذبتكم، ولو غَرْرتُ الناس جميعاً ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسولُ الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتُنّ كما تنامون، ولتُبعثُنَّ كما تستيقظون، ولتحاسبُنّ بما تعملون، ولتُجزَونْ بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنها لجنّةٌ أبدا أو لنارٌ أبدا".

التحليل والدراسة :

الهدف من الخطبة :

هدف الخطبة محدد وهو إعلان دعوة الإسلام التي تقوم على وحدانية الله تعالى، ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام، وقد ربط الرسول ذلك بالبعث والحساب والجزاء؛ فإذا كان لكل شيء غاية فإن غاية ذلك سعادة الآخرة، ومن هنا كان ربط الوسيلة بالغاية.

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبي)، ٤/٢٤٥ .

(٢) الرائد: من يتقدم القوم، يبصر لهم الكلأ ومساقط المياه، وهو مثل يطلق على الذي لا يكذب إذا حدَّث.

أسلوب الخطبة :

هذه الخطبة إشارة البدء لدعوة الإسلام، ويكفي إعلانها، ولذلك جاء حجمها قصيراً، بل ربما كانت أقصر خطب الرسول عليه الصلاة والسلام. ومن هنا جاءت هذه الخطبة محددة الهدف، مرتبة الفكرة، مركزة المعاني، قوية العبارة.

ولعل جوانب التأكيد خير ما يبرز ملامح الأسلوب، ففي صدر كل معنى يقدم القسم (والله . . .) فضلاً عن مؤكدات أخرى مثل: إنّ ونون التوكيد، واللام.

وتمتاز بالإيجاز البليغ الذي يجمع المعاني العظيمة الواسعة في الألفاظ القليلة.

ونلمس فيها جمال التقسيم في الجمل، مع وقوع بعض المحسنات كالسجع والطباق في غير تكلف.

وهي ملائمة لنفوس السامعين، فلم تتعرض للأصنام وعبادتها، ولم تتحدث عن فساد تفكيرهم؛ لأن هدفها هو التأثير في النفوس والعقول جميعا.

كما أنها تعتمد على الدليل والحجة؛ فقد ورد في بدء الخطبة دليل خطابي "إن الرائد لا يكذب أهله" وهي قضية مسلمة، من ورائها إنسان أمين هو محمد ﷺ، ثم ساق دليلا على البعث من حياتهم اليومية، فهم ينامون بغير إرادة منهم، ويستيقظون بغير إرادة منهم، وإنما هناك قوة خفية وراء ذلك، هي الله.

حتى إذا انتقل إلى المدينة فرضت الخطابة، وكان ما يزال يخطب في الأحداث التي تلم بالمسلمين. وفي أخباره أنه كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات.

ومن أروع خطبه ما قاله في حجة الوداع، وهي تجري على هذا النمط: "الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله.

أوصيكم - عباد الله - بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو

خير. أما بعد أيها الناس! اسمعوا مني أُبين لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبدالمطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب. وإن مآثر الجاهلية موضوعة، غير السدانة والسقاية. والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . . . »[1] .

الأحكام التي اشتملت عليها :

١ - حرمة الأموال والدماء وقداستها، فمن أكل مال مسلم أو سفك دمه، فكأنما انتهك حرمة يوم عرفة في الشهر الحرام، وفي البلد الحرام.

٢ - أداء الأمانات إلى أهلها.

٣ - إلغاء الربا وثارات الجاهلية وتراثها غير خدمة البيت الحرام، وسقاية الحجيج.

٤ - أن القاتل عمدا يُقتل، والقتل شبه المتعمد يكون بأداة غير حادة، وفيه دية مغلظة مائة من الإبل.

تعليق :

خطبة الوداع من أعظم الخطب في أدبنا، وقد امتازت بما يأتي :

١ - الإيجاز البليغ الذي يجمع المعاني العظيمة الواسعة في الألفاظ القليلة.

٢ - لهجة المودِّع سواء عند افتتاحها أو عندما يشهد الله على أنه بلغ الرسالة.

---

(١) البيان والتبيين، ٢/ ٣١ . والسيرة النبوية لابن هشام. موضوع: ساقط ومحرم. السدانة: خدمة الكعبة. السقاية: سقاية الحجاج. القود: قتل القاتل بمن قتل.

٣ - البساطة في الألفاظ، وذلك لأن الخطبة تعليمية، والأسلوب التعليمي يجب أن يخلو من الصعوبة والتعقيد والتكلف.

٤ - حلاوة النغمة وجمال التقسيم في الجمل مع وقوع بعض السجع في غير تكلُّف أو إكثار.

٥ - الإفادة الواضحة من ألفاظ القرآن الكريم وجميع الأحكام التي أوردها مستمدة من كتاب الله.

وهذه الخطبة وغيرها تصوِّر في دقة حسن منطق الرسول ﷺ في خطابته، وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع ولا بلفظ غريب. وقد وصف الجاحظ بلاغته في خطابته أدق وصف، فقال إنه: "لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظا ولا أعلى وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، من كلامه ﷺ"[1].

ويرى شوقي ضيف أنه "فتق معاني هذه الخطابة الدينية التي لم يعرفها العرب قبله، فهو الذي رسمها، وفجرَّ ينابيعها"[2].

خطابة الخلفاء الراشدين:

كان الخلفاء الراشدون في الذروة من الفصاحة والبلاغة؛ إذ سرى في نفوسهم بيان القرآن بترغيبه وترهيبه وبيان الرسول ﷺ بمواعظه وتشريعاته، وتسرَّب هذا البيان إلى أجزاء نفوسهم وأخذ بمجامع قلوبهم.

وقد أثرت عن أبي بكر رضي الله عنه خطب كثيرة، تدل دلالة واضحة على شدة شكيمته في الدين ويقظته وصدق حسه.

وعندما تمَّت له البيعة خطب في الناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه وقال:

---

(١) البيان والتبيين، ١٧/٢ .

(٢) العصر الإسلامي، ١٢١ .

"أيها الناس! إني قد وُلّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم. ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم" [1].

واستَنَّ بجانب خطبه ومواعظه سنة الوصية للجيوش الفاتحة، وهو في وصاياه يصدر عن روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية في معاملة المسلمين لمن يغلبون عليهم.

وأما عمر رضي الله عنه فكان في مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة، وكان بيانه في مقدار عقله قوة وسدادا. وسار سيرة أبي بكر في تشييع الجيوش بالخطابة محرِّضا على الجهاد.

وخلفه عثمان رضي الله عنه، وكان يهبط درجة عنه وعن أبي بكر في الفصاحة والبيان. ويروى أنه أرتج عليه يوما وقد أراد الخطابة في الناس فقال: "إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى أمام خطيب. ولكنه كان يخطب أحياناً، فيملأ النفس بمواعظه، على شاكلة قوله حين بويع على الخلافة: "ألا وإن الدنيا خضرة [2] وقد شهيت إلى الناس، ومال إليها كثير منهم. فلا تركنوا إلى الدنيا، ولا تثقوا بها، فإنها ليست بثقة. واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها".

وتعدُّ خطب الإمام رضي الله عنه التي ألقاها في أتباعه من أكثر الخطب العربية بلاغة وصدقا (بعد خطب النبي ﷺ)، كما أنها في الآن ذاته أكثرها عدداً. وذلك لأنه ظل يجاهد خصومه نحو أربع سنوات، فكان يخطب في أصحابه حاثاً لهم على الجهاد.

---

(١) عيون الأخبار، ٢/ ٢٣٤ والطبري، ٢/ ٤٥٠ .

(٢) خضرة: حلوة.

المتخيَّر من خطبه :

خطبة الجهاد[1]

أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجُنته[2] الوثيقة. فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء، ولزمه الصغار، وسيم الخسف[3]، ومنع النصف[4].

ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غُزي قوم قَطّ في عُقر دارهم إلا ذلّوا، فتواكلتم[5] وتخاذلتم، وثَقُل عليكم قولي، واتخذتموه وراءكم ظِهريا[6]، حتى شُنّت عليكم الغارات. فيا عجبا من جِدّ هؤلاء القوم في باطلهم، وفشلكم[7] عن حقكم ... حتى صرتم هدفا يُرمى وفيئا يُنتهب، يُغار عليكم ولا تُغيرون، وتُغزون ولا تَغزون ... قد وَريتم[8] صدري غيظا، وجرّعتموني الموت أنفاسا[9]، وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان".

وقد خلّف علي < خطباً كثيرة، نجد منها أطرافا في البيان والتبيين وعيون الأخبار والطبري إلا أنه نسبت إليه خطب في الكتب المتأخرة وخاصة نهج البلاغة.

باعث الخطبة :

أغار سفيان بن عوف الغامدي بجيش من جيوش معاوية على الأنبار وقتل عامل علي < عليها، فنقم على جماعته بسبب تقاعسهم.

---

(١) البيان والتبيين، ٢/ ٥٣ . وقد ألقى خطبته في أهل الكوفة.
(٢) جُنّة: وقاية.
(٣) الخسف: أنزل به الذل.
(٤) النصف: الإنصاف.
(٥) تواكلتم: وكّل كل منكم الأمر إلى صاحبه.
(٦) ظهريا: أي نسيتموه.
(٧) فشلكم: جبنكم، ضعفكم.
(٨) وريتم: ملأتم.
(٩) الأنفاس: جمع نفس، وهو الجرعة من الماء ونحوه.

موضوعها :

النص الذي أثبتناه من الخطبة يشتمل على فكرتين هما :

١ - عظم شأن الجهاد في سبيل الله وكيف أنه باب الجنة الذي يلجه أولياء الله، وكيف أن ترك الجهاد يؤدي إلى أمور خطيرة، كالذل والمهانة والظلم.

٢ - تذكير لأهل الكوفة بما كان أمرهم به من صائب الرأي، وكيف أنهم تكاسلوا حتى هاجمهم العدو.

العوامل المكونة لعبقرية علي الخطابية :

١ - تربيته في بيت النبوة على يدي الرسول ﷺ وتتلمذه على بلاغته.

٢ - علمه بكتاب الله، وتأويله، وأسراره، وتشريعه، ومقاصده.

٣ - حياته الحافلة بالأحداث والفتن، وبخاصة بعد توليه الخلافة.

الخصائص الفنية لخطبة الإمام عليّ :

بتأمل الخطبة تتضح لنا الخصائص الآتية :

١ - الألفاظ ذات موسيقى مؤثرة، وهي ألفاظ منتقاة ينظمها الإمام عليّ في عبارات رائعة التقسيم، يقع فيها أحياناً سجع جميل.

٢ - ظهور أثر الثقافة الواسعة في كلام الإمام عليّ؛ القرآنية واللغوية.

٣ - تدرُّجه من اللين إلى العنف، فقد بدأ هادئاً نسبياً وهو يتحدث عن الجهاد وفضله ثم استعمل العنف حين تعرض لغزوهم من خصومهم.

٤ - قدرة الإمام عليّ على إثارة الحماسة بوسائله البلاغية المتعددة.

(٢) الكتابة :

نوّه الإسلام بالكتابة وفضلها منذ أول آية نزلت على الرسول ﷺ، فقال جل شأنه : ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم﴾ [١].

ومن تمام هذا التنويه القسم بالقلم في قوله تعالى: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ [٢] وبالكتاب في قوله سبحانه : ﴿والطور وكتاب مسطور في رق منشور﴾ [٣] .

وعمل الرسول ﷺ جاهداً على نشر الكتابة بين أصحابه، حتى لنراه يجعل فداء بعض أسرى قريش ممن حذقوا الكتابة عشرة من صبيان المدينة[٤]، وقد حثّ القرآن على استخدامها في المعاملات، يقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه . . .﴾ [٥].

وأخذت الكتابة تستخدم على نطاق واسع، سواء في كتابة القرآن أو في كتابة كل ما يهم المسلمين في معاملاتهم وعقودهم. وكان الرسول ﷺ يستخدمها في جميع مواثيقه وعهوده، كذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده.

وقد جمع محمد حميد الله الحيدر آبادي "مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة". ومما ورد في هذا الكتاب أن جميع أهل يثرب : "أمة واحدة من دون الناس"، وكذلك المواثيق والعهود، وكتب النبي ﷺ إلى الملوك والأساقفة والقبائل، من ذلك معاهدته مع أهل نجران، ومنها: ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيَعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . . ."[٦].

---

(١) سورة العلق، الآيات ١ - ٥ .
(٢) سورة القلم، الآية ١ .
(٣) سورة الطور، الآيات ١ - ٣ .
(٤) طبقات ابن سعد، ٢/ ١٤ .
(٥) سورة البقرة، من الآية ٢٨٢ .
(٦) بِيَع: جمع بيعة؛ وهي معبد النصارى.

وعلى هدي هذا الكتاب كانت كُتب أبي بكر وعمر التي كتباها إلى أهل البلاد المفتوحة، وعهد عمر لأهل إيليا (بيت المقدس) مشهور، وفيه يقول: "هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان: أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها: أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم ولا يضارّ أحد منهم، ولا يسكن بإيليا أحد من اليهود. وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية . . . وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين".

وواضح أن عمر تَرسَّم في هذا العهد عهد الرسول ﷺ لنصارى نجران، وكذلك كان يستلهم وصاياه لولاته في سياسة الناس ومعاملتهم بإحسان، ومن ذلك رسالته إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة، ومنها:

"بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلُّمَ بحق لا نفاذ له.

آسِ[1] بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمعَ شريف في حَيفك[2] ولا يخافَ ضعيف من جورك. البيّنة على من ادّعى، واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صُلحاً حرم حلالا أو أحلَّ حراما، فلا يمنعنّك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك، وهُديت فيه لرشدك، أن ترجع عنه إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . . . ".

ولقد أصبحت الكتابة جزءاً أساسياً في أعمال الدولة، وحددت العلاقات السياسية والاقتصادية بين المسلمين وأهل الذمة.

وكان عثمان يكتب أحياناً إلى ولاته في الحرب والسلم. وخلفه علي فكثرت

---

(١) آس: داو، عالج؛ والمقصود أصلح.

(٢) حيف: جور، ظلم.

الحاجة بحكم حروبه إلى مكاتبات مختلفة بينه وبين الخارجين عليه. ومن أهم ما كتب حينئذ وثيقة التحكيم بينه وبين معاوية.

وهكذا تطورت الكتابة تطوراً واسعاً في هذا العصر، وكان الرسول ﷺ هو الذي ذللها لتجمل النظم الجديدة التي قامت عليها الدولة الإسلامية وخلفه عليها خلفاؤه الذين فصلوا هذه النظم، وكذلك قادة الجيوش في عهودهم للبلاد المفتوحة، ولعمر القدح المعلى[1] إذ ساعدت كتبه الكثيرة إلى الولاة وغيرهم إلى نهضة الكتابة وتطورها.

---

(١) أي النصيب الأكبر.

القسم الثاني

العصر الأموي

من قيام الدولة الأموية سنة ٤٠هـ إلى سقوطها سنة ١٣٢هـ

الفصل الأول

الشعر الأموي : مراكزه والمؤثرات العامة فيه

(أ) توطئة عن الشعر الأموي :

بدأ العهد الأموي عام الجماعة سنة ٤١هـ مع أول خليفة أموي معاوية بن أبي سفيان، وانتهى بمقتل آخر خلفائهم مروان بن محمد سنة ١٣٢هـ.

اتسعت رقعة الدولة الإسلامية نتيجة الفتوحات، فأدت إلى اتساع مساحة الفن حجماً ونوعاً وذلك بدخول شعوب هذه البلاد المفتوحة في الإسلام، إذ دخلت بثقافاتها وعلومها وأفكارها، فحدث التأثر والتأثير، فاغتنت من جهة، وازدادت تشتتا من جهة أخرى.

وبما أن الفن للحياة فما كان عليه إلا أن يواكب هذا التطور، وخير من يقوم بهذا هم الشعراء.

هذا عصر الفرق السياسية والآراء الفكرية، والعصبية القبلية، والالتزام بفكر معين، والالتصاق بالقبيلة، فارتبط الشعراء بكيانهم الفردي معبرين أحسن تعبير عن قيمهم الإسلامية المتعددة.

هذا عصر الصراع الفني الذي أسقط على الصراع السياسي والقبلي والفكري.

إنه عصر حركة الفن للحياة، وحركة الحياة للحياة، وحركة النقائض وثالوثها (جرير، والفرزدق، والأخطل)، وقد رأى بنو أمية فيها حلاً لمشكلات يواجهونها، فشجعوها لإلهاء الناس عنهم، فغدت المناقضات سجلا للأحداث والتغييرات، ودخلت في صميم حياة الدولة بعد أن كانت في بدايتها حركة فنية أدبية.

وقد بعثت النقائض في هذا العصر حركة نقدية منظمة، لأنها عُدَّت المرحلة الأخيرة لغرض الهجاء المعروف مبنى ومعنى بشروطها (وحدة الموضوع، والوزن والقافية، وحركة الروي).

وتطلُّ الشعوبية برئاسة إسماعيل بن يسار العجمي، وقد اشتهروا بالنفاق السياسي شعرا مادحين بني أمية ومؤججين الصراع بين العرب تشتيتاً وفرقة.

إنه عصر الأحزاب السياسية، **وأولها حزب السلطة الأموية الحاكمة وشعراؤهم** فهؤلاء بنو أمية خلفاء الله في الأرض يحكمون بقدرة الله وليس على الناس إلا طاعتهم. ومن شعرائهم عبدالله بن الزبير الأسدي وغيره الذين مدحوا بني أمية تعصباً، وطائفة ثانية مدحتهم - رغبة أو رهبة، أو لكليهما معاً، ومنهم : (الكُميت) و(كُثيِّر) و(عبيدالله بن قيس الرّقيات).

وثاني الأحزاب الدينية السياسية، حزب بني هاشم الذين يرون الخلافة في قريش وبني هاشم ثم في آل البيت، وقد دخلت أفكار وافدة من هندية وفارسية ويونانية فتأثروا بالديانتين اليهودية والنصرانية ممن أسلم من أتباعهم، فصار الجدل سمة لأعضاء هذا الحزب فاختلفوا فظهرت السبئية والكيسانية وغيرها من الفرق.

ورافق ظهور هذه الفرق ظهور مصطلحات كثيرة اختلفوا فيها كالمهدي المنتظر، والوصي، والرجعة، والعصمة، والتقية. ومن أشهر شعرائهم أبو الأسود الدؤلي والكميت وكثّير عزة.

وثالث الأحزاب السياسية والدينية حزب الخوارج الذين شقُّوا عصا الطاعة وخرجوا على الإمام علي < الذي سمّاهم الحرورية لنزولهم يوم خروجهم بحروراء بالكوفة. ولأنهم أهل جدل ومنطق فإنهم تمايزوا فرقا منها (الأزارقة والصفرية والإباضية) فخالفوا الأحكام الشرعية الإسلامية، ومن أشهر شعراء الخوارج (عمران بن حطان من القعدة). وكان شعرهم سياسياً جامحاً، وثورياً

صادقاً، وكان شاعرهم زاهداً تقياً، وشجاعاً مقداماً، لذلك دار شعرهم في الحماسة والرثاء وفي بعض آرائهم، وقالوا في الفخر والمديح، فكان شعرهم شعر العقيدة الصارمة الصادقة، منفلتين من تقاليد القصيدة الجاهلية، في الحجة والجدة في المعاني والموضوعات في مقطعات على شكل رسائل شعرية.

ورابع الأحزاب السياسية الدينية حزب الزبيرية الذي دخل في دائرة الصراع السياسي والقبلي المتمثل في الطموح الفردي ومن شعرائهم أعشى همدان. ورأى الزبيريون أن الخلافة في العرب وفي قريش دون غيرها، ويرون أن بني أمية قضوا على وحدة الأمة واستأثروا بالحكم مراعين مصالحهم الخاصة، ولا يحكمون إلا بأهوائهم وغاياتهم.

وظهرت بعض الفرق الأخرى كالمرجئة الذين تمسكوا بمذهب الإرجاء أي إرجاء الحكم على الإنسان إلى يوم القيامة، ومن أشهر شعرائهم ثابت قُطنة.

وهذا هو الشعر الديني بشكليه العام والخاص، أما العام فجاء متأثراً بالدين وتعاليمه، يحثُّ فيه شعراء على الزهد والوعظ والإرشاد، وتذكره بالموت والآخرة، وتدعوه إلى التقوى والتوكل على الله أمّا الشكل الخاص فكان متأثراً بالفرق الدينية والسياسية وما تحمله من أفكار وثقافات مختلفة، وظهرت في الشعر الديني ظاهرة المقطعات دون مقدمات أو تكلف يخاطب الشاعر فيها العقل والقلب معاً، وقد غلب هذا الشعر على أرض العراق، أما الشعر الغزلي فغلب على أرض الحجاز حاضرة وبادية، وغلب الشعر الغزلي السياسي على القصور والولايات.

أما النوع الثاني من الشعر الأموي فهو شعر الغزل بشكليه الغزل العفيف والغزل الإباحي. فالغزل الأموي لم يخرج في دائرته الكبرى عمّا في الجاهلية والإسلام، غير أنه اكتسب أبعاداً حضارية جديدة وأنماطاً لم تكن من قبل، فالغزل الضعيف لم يعد ضرباً من المكابدة والمعاناة والهجر وتصويراً للواعج النفس، بل حلل العواطف نفسياً واجتماعياً. والشيء نفسه بالنسبة للغزل الإباحي (الماجن) والغزل الكيدي؛ فلم يكتف الشاعر بوصف محاسن الفتاة أو عرض مغامراته،

وإنما حلل تطلعاته إلى لقاء محبوبته ورسم ملامح نفسيتها والآثار التي يمكن أن تحدث، وحلل ذاته أيضاً. ويتركز هذا بشكل تام في الغزل الكيدي (أقرب إلى الهجاء) الذي يأكل صدور الرجال حنقا على من يتغزل بنسائهم.

إن محاولة بني أمية إلهاء الناس في الشام والعراق بالمناقضات وإلهاء أهل الحجاز بالغزل، لإبعادهم عن الخلافة والسياسة، فضلاً عن الحرية الدينية النسبية التي أتيحت للشعراء ولاسيما أيام الحج، والعادات الاجتماعية المحافظة والمنفتحة، كانت سبباً في ازدهار هذا النوع من الغزل ، أضف إلى ذلك البيئة في الحاضرة وقصور الخلافة وانتشار ضروب اللهو والترف فيها، وفي هذا الوسط طلع علينا شيخ الغزليين عمر بن أبي ربيعة وابن الرُّقياتْ والوليد بن يزيد وغيرهم.

أمّا الغزل الكيدي الذي يعد تياراً فنياً أموياً جديداً ولوناً من الغزل السياسي، فاشتهر به العرجي، والأحوص، ووضاح اليمن، وأما رواده فابن الرقيات، وعبدالرحمن بن حسان بن ثابت، وقد هجم أصحاب هذا اللون على خصومهم ونالوا منهم إغاظة ونكاية؛ لأنهم يتعرضون لما يتوجب على العربي أن يموت من دونه، إنها الزوجة.

ولابد من الكلام هنا عن الغزل العفيف الذي حلّ محلّه مصطلح الغزل العذري نسبة إلى بني عذرة إذ كانوا أكثر رقة وعفافا في قصص حبهم، فهم الذين إذا أحبوا ماتوا. ويقوم هذا النوع من الغزل على العفّة والبراءة والنقاء والتفرد بواحدة فقط، فلا يتصنع في قوله، ولا يقدم لعشقه بمقدمات وإنما ينقلك إلى معطيات تجربته ومشاعره وقد شاعت ظاهرة التشاؤم في هذا اللون من الشعر الذي اكتسى بمسحة الحزن والأسى والفراق.

ولا ننسى القول: أنّ المرأة أدّت دوراً، وأخذت حظاً وافراً من الحرية جعلتها تقول الغزل العفيف، فهذه ليلى الأخيلية وعشيقها توبة، تقول فيه شعراً دون أن تخون زوجها، بل وعلى علم منه.

أمّا شعر الطبيعة الذي صور فيه الشعراء كثبانها، وغدرانها ومناخها، وحيوانها، في لوحات رحبة واقعية في مقدمات المطولات أو في مقطوعات، وأشهر الشعراء الذين برعوا في هذا اللون من الشعر هما : الراعي النميري، وذو الرمَّه. فقد وصفا الطبيعة الحية والجامدة بمعان تقليدية ممزوجة بألفاظ ومعان حضارية كشق الأنهار والترع في البادية.

وقد ظهر لون شعري آخر هو (الصعلكة) التي نمت من جديد في العصر الأموي بعد ضعفها في العصر الإسلامي. ويعود سبب ظهور الصعلكة في هذا العصر إلى أسباب اقتصادية تمثلت في الضرائب المفروضة، وقسوة الجباة، أضف إلى ذلك فقر الناس، فاحتموا بآكام البادية وهضابها إذ ظهرت الصعلكة، إضافة إلى خلع القبائل بعض أبنائها ليصبح رفيقاً للوحش يأكل معه ويشرب معه كالقتّال الكلابي، والأحيمر السّعدي، وقد رسم شعراء الصعلكة الطبيعة بما فيها خير وصف في لوحات حية ناطقة.

وآخر الألوان الشعرية التي ظهرت في العهد الأموي الرجز إذ تحمل الرجّاز والصعاليك عبء وصف الطبيعة وتصويرها. وقد انحصر الرجز قديماً في دائرة الطبيعة والإغراب، أمّا الرجّاز الأمويون فقد مالوا إلى الغريب في أراجيزهم، وبذلك ظفروا بإعجاب أهل اللغة.

ومن شعراء الرجز أبو النجم العِجلي، والعجاج وابنه رؤبة، والشمردل. وما يعاب على الرجز الأموي كثرة الضرورات التي يحتاجها الوزن والقافية.

(ب) مراكز الشعر الأموي [1] :

انتشرت مراكز الشعر في العهد الأموي؛ نظراً لانتشار العرب في ربوع الدولة الإسلامية، فكانت حركة الشعر تنشط في بعضها، وتضعف في بعضها الآخر. ويتضح ذلك من خلال تناولنا لهذه المراكز.

١ - المدينة ومكة :

عاشت المدينة في هذا العصر عيشة دعة إذ كان الأمويون يغدقون على أهلها إغداقا استرضاء لهم، حتى يصرفوهم عن التفكير في الخلافة. وفي جو رقيق زاخر بالغناء [2] والمرح نهض الشعر نهضة واسعة، فبرز شعراء منهم: عبدالرحمن بن حسان، والأحوص، وإسماعيل بن يسار.

وكانت مثلها مكة تغرق في ثراء واسع ورثه الشباب عن آبائهم، وكان كثير من أهلها يشغفون بالغناء شغفاً شديداً [3]. ومن أبرز شعرائها عمر بن أبي ربيعة، والعرجي، وعُبيد الله بن قيس الرقيات، والدارمي، وقد تأثر الغزل في هاتين المدينتين بالغناء وغلب الطابع المادي الصريح على شعراء المدينة، في حين كان الغزل في مكة أقل صراحة وحرية، إذ كانت موجة اللهو في المدينة أكثر حدة.

٢ - نجد وبوادي الحجاز :

ضعف نشاط الشعر في هذه البيئة البدوية، إذ أمات الإسلام فكرة الأخذ بالثأر مما أضعف الروح العصبية، فضلاً عن كثرة من هاجروا في الفتوح شرقاً وغرباً. ومن ثم فقد ضعف في مجال الفخر والهجاء. ولكنه ازدهر في مجال الغزل، إذ تكاثر شعراؤه كثرة مفرطة وتكاثرت قصصه الغرامية، وخاصة في بني عذرة وبني عامر. وقد ترجم أبو الفرج في أغانيه لكثير منهم من أمثال جميل بن معمر، وقيس بن ذريح [3] وعروة بن حزام، إلا أنه شكك في مجنون ليلى (قيس بن الملّوح).

---

(١) انظر: شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص ١٣٩ - ١٦٨ .

(٢) من كبار المغنيين طويس ومعبد وابن عائشة، ومن أشهر المغنيات عزة الميلاء وسلامة القس، ومن ظرفائها أشعب. ومن أبرز النساء السيدة سكينة بنت الحسين التي عملت على تهذيب الأذواق، وكانت تفسح في مجالسها للشعراء وتفاضل بينهم.

(٣) من كبار المغنيين ابن مسجح وابن محرز وابن سريج.

ومما ساعد على هذا الغزل البداوة والتدين بالإسلام الحنيف ومثاليته السامية، والشعور بالحزن. ولعل الغزل في نجد من أروع صور الغزل العربي، لما شاع فيه من نبل، وسمو، وطهارة، ونقاء.

وظهرت أشعار الفخر والهجاء عند شعراء قيس وتغلب في أطراف الجزيرة الشمالية على حدود الشام والجزيرة، حيث اصطدمت المصالح السياسية والاقتصادية، فالتهب الهجاء والفخر عند شعراء كلب (جوّاس بن القعطل وعمرو ابن المخلاة ومنذر بن حسان) وشعراء تغلب (الأخطل) من جهة وشعراء قيس (زفر ابن الحارث وعمير بن الحباب . . .) من جهة أخرى.

ومضى كثير من شعراء القبائل بعد أن عاد السلام إلى نصابه يمدحون الخلفاء والولاة طلبا للنوال. يتقدمهم في ذلك الأخطل، والقُطامي، وأعشى تغلب، وأعشى بني شيبان، ونابغتهم.

٣ - الكوفة والبصرة :

خُطِّطت الكوفة في سنة ١٧هـ، ثم اتخذها علي بن أبي طالب (<) حاضرة له، ومن ثم كانت موئل الشيعة في هذا العصر، ومن شعرائها المتشيعين الكميت بن زيد الأسدي (- ١٢٦هـ).

ولم يكن للخوارج شأن مذكور فيها، ومع ذلك نجد لهم فيها شاعراً مشهوراً هو الطرماح (- ١٠٥هـ). وأقبل بعض الشعراء على اللهو والخمر، أمثال الأقيشر الأسدي. في حين تعصّب آخرون لبني أمية مثل عبدالله بن الزبير الأسدي.

ومع أن الكوفة لم تتورط في العصبيات القبلية، ومن ثم كان حظها في شعر الفخر والهجاء ضعيفاً إلا أنها أخرجت شاعراً هجاء هو الحكم بن عبدل.

أما البصرة فقد خططت حوالي سنة ١٦هـ لتكون معسكراً للجيوش المقاتلة في الشرق، ونزلها كثير من القبائل العربية فضلاً عن الرقيق الفارسي الذي جلبه المحاربون.

تحولت البصرة في هذا العصر إلى سوق أدبية يتناشد فيها الشعراء أشعارهم، ولكل شاعر حلقة. وظلت طوال العصر تعيش للعصبيات القبلية، ومن ثم كانت المحور الذي دار عليه شعرها، إذ تحول كل شاعر يفخر بقبيلته مصوبا سهام هجائه لمن يعادونها من القبائل، من ذلك معركة الهجاء التي نشبت بين الفرزدق وجرير.

وكان الخوارج في البصرة كثيرين، فظهر من بينهم غير شاعر مثل عمران بن حطان، وكان الشيعة فيها قليلين، ومن ثم لم ينشط الشعر الشيعي بالبصرة ويلقانا بين أعاجم البصرة غير شاعر مثل يزيد بن مُفرِّغ الحميري. ويلقانا أيضاً شعراء اللهو والخمرة مثل حارثة بن بدر الغُداني، إلا أن ذلك كان محدودا، فقد كانت أكثر وقاراً من الكوفة؛ مما فسح للزهد وشعرائه من أمثال أبي الأسود الدؤلي.

٤ - خراسان :

نشط الشعر في خراسان، حيث احتدمت المنازعات القبلية، وكانت الأحداث كثيرة، فألهمت الشعراء بالشعر الرائع. ومنهم زياد الأعجم بن مَعدان الأشقري وثابت بن قُطنة، والمُغيرة بن حبَناء، وأبو جلدة اليشكري، وأعشى همدان، وكان معظمهم من الفرسان. وكان بعضهم يحن إلى ديار قومه في الجزيرة، مثل مالك بن الريب؛ وقصيدته في رثاء نفسه مشهورة، والصِّمة القُشيري الذي مات غازيا بطبرستان.

٥ - الشام :

كان الشعر في الشام لهذا العصر محدود النشاط، وأهم شاعر أنبتته بيئة الشام هو عدي بن الرقاع العاملي. وكان في جملته طارئاً إما مع قبائل قيس، وإما مع الوافدين على أبواب الخلافة من أمثال جرير، والفرزدق، والأخطل (العراق)، وابن قيس الرقيات، ونصيب، والأحوص، وكثير (الحجاز)، والراعي، وابن

ميادة، والعُجير السلولي، وأرطاة بن سُهيَّة وغيرهم، وإما مع البيت الأموي القرشي نفسه؛ فقد اشتهر من بين أفراده يزيد بن معاوية ويزيد بن عبدالملك والوليد بن يزيد، وإما مع الفرسان الذين كانوا يجاهدون الروم على نحو ما نجد عند أبي العيال الهذلي حين غزا مع يزيد بن معاوية إذ رثى ابن عم له رثاء حاراً.

٦ - مصر والمراكز الأخرى :

لم يكن بمصر نشاط قوي للشعر في هذا العصر حيث نجد العناصر اليمنية تغلب عليها وهي من حيث الشعر والشاعرية تتخلف عن العناصر المضرية. ومن شعرائها ابن أبي زمزمة في ولاية عبدالعزيز بن مروان الذي وفد عليه كثير من الشعراء يمدحونه لأخذ نواله أمثال كثير، وابن قيس الرقيات، ونصيب.

وكذلك كان الشعر خامدا في اليمن والأندلس المفتوحة في عهد الوليد بن عبدالملك.

(ج) المؤثرات العامة في الشعر والشعراء [1] :

أولاً - الامتزاج بالأمم الأجنبية وتعريبها وأثر ذلك في اللغة :

أدى الامتزاج الواسع بالموالي إلى استخدام بعض الألفاظ الأعجمية، كقول جرير في جعثن أخت الفرزدق [2] :

لا خيرَ في غضب الفرزدق بعدما ... سلخوا عِجانَك سَلْخَ جِلد الرَّوْذَقِ
سبعون والوُصفاءُ مهرُ بناتنا ... إذ مَهْرُ جِعثنَ حُرّ البيذَقِ[3]

فقد استخدم كلمة "الرّوذق" الفارسية بمعنى الحمل المنتوف وبره، وكلمة "البيذق" الفارسية للدلالة على الشيء التافه.

وانتشر اللحن في الكوفة والبصرة مما دفع النحاة واللغويين إلى تنقية العربية مما دخلها من فساد، فقد تتبع عبدالله بن أبي إسحاق الفرزدق وراجعه في بعض شواذه النحوية، فهجاه بقوله المأثور :

فلو كان عبدُ الله مولىً هجوتهُ ... ولكنّ عبدَ الله مولى مواليا

فيتعرض له ابن أبي إسحاق قائلاً: كان يحسن أن تقول: مولى موال [4] .

على أن الفرزدق لم يعرف بضعف في الحس اللغوي لأنه نشأ في البادية، إنما الذي عرف بذلك بعض الشعراء الذين نبتوا في المدن مثل الطرماح، والكميت اللذين استخدما الألفاظ البدوية استخداماً غير دقيق.

---

(١) انظر: شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ١٦٩ - ٢١٤ .
(٢) النقائض، ص ٨٤٥ .
(٣) الوصفاء : جمع وصيف، الخادم، غلاما كان أو جارية.
(٤) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص ١٦ وما بعدها.

ثانياً - الإسلام وأثره في موضوعات الشعر :

أثر الإسلام في موضوعات الشعر الأموي على النحو الآتي :

١ - **الغزل :** أضفى الإسلام البراءة والطهر والصفاء والنقاء على الغزل. مما هيأ لظهور الغزل العذري إذ يتحول الشاعر إلى نفسه يشكو ما أصابه من تباريح الحب، وقد يضرع أحياناً إلى ربه كقول جميل [١] :

إلى الله أشكو لا إلى الناس حبها ... ولابدّ من شكوى حبيبٍ يُروّعُ

٢ - **المديح :** تحول في كثير من جوانبه إلى تصوير الفضيلة الدينية في الممدوح، ورسم كثير من الشعراء التقوى في عمر بن عبدالعزيز، على شاكلة قول كثير[٢]:

تركت الذي يفنى وإن كان مُونقا ... وآثرت ما يبقى برأيٍ مُصمّمِ

وهو لا يصور في عمر التقوى فحسب، بل يصور فيه أيضاً الزهد والإعراض عن الدنيا وفتنتها ومتاعها الزائل، وتوسع الكميت في هذه الصورة في هاشمياته.

٣ - **الهجاء :** أخذ الشعراء يهجون خصومهم بانحرافهم عن الدين كقول جرير في آل المهلب [٣] :

آل المُهلَّبِ فرّطوا في دينهم ... وطغَوا كما فعلتْ ثمودُ فبادُوا

ورمى شعراء الشيعة الأمويين بالظلم وتعطيل أحكام الدين من مثل قول الكميت [٤] :

تحلّ دماءُ المسلمين لديهمُ ... ويحرُمُ طلعُ النخلةِ المتهدّلُ

---

(١) ديوان جميل، تحقيق حسين نصار، ص ١١٧ .

(٢) ديوان كثير، طبعة الجزائر، ٢/١٢٣ .

(٣) ديوان جرير، طبعة الصاوي، ص ٢١٩ .

(٤) الهاشميات، ص ١٢٣ .

٤ - **شعر الحماسة** : وكان أقوى في تأثره بالإسلام من شعر الهجاء والمديح، إذ كان ينظم أكثره في الجهاد. وقد برع فيه شعراء الخوارج وبخاصة قطري بن الفجاءة، كقوله [١] :

أقول لها وقد طارت شَعاعا ... من الأبطالِ ويحك لن تُراعي

فإنّكِ لو سألت بقاءَ يوم ... على الأجلِ الذي لك لن تُطاعي

فصبراً في مجالِ الموت صبرا ... فما نيلُ الخلودِ بمُستطاعِ

٥ - **الرثاء** : كان الشعراء يرثون المجاهدين ويندبونهم ندبا حارا، مازجين ذلك بما ينتظرهم من نعيم الخلد كقول الضحاك بن قيس يرثي بهلولا الصفري الذي خرج لعهد هشام بن عبدالملك وقتل [٢] :

يا عينُ أذري دموعا منك تَهتانا ... يا عينُ أذري دموعا منك تَهتانا

خَلُّوا لنا ظاهر الدنيا وباطنَها ... وأصبحوا في جنان الخلد جيرانا

وتعمُّ هذه الروح الدينية في مراثي آل البيت، وكذلك في رثاء عمر بن عبدالعزيز، كقول جرير [٣] :

حُمّلتَ أمرا عظيما فاصطبرت له ... وقُمت فيه بأمر الله يا عُمرا

ثالثاً - الثقافة :

اندمج كثير من الشعراء في الفرق السياسية والعقدية[٤] وما نشب بينها من مجادلات؛ من ذلك مجادلة بين ذي الرمة ورؤبة في القدر.

وبتأثير هذه المجادلات أخذ جرير والفرزدق يتجادلان جدالاً عنًفا في عشيرتيهما من جهة، وفي قيس وتميم من جهة ثانية على نحو ما هو معروف في نقائضهما.

---

(١) انظر : المبّرد، الكامل، ص ٦١٧ وما بعدها.

(٢) الطبري، تاريخه، ٥/ ٤٦٠ .

(٣) ديوان جرير، طبعة الصاوي، ص ٣٠٤ .

(٤) مذاهب القدرية، والجبرية، والمرجئة، والمعتزلة.

الفصل الثاني

فن النقائض

توطئة :

نشأ فن النقائض بين شعراء الهجاء في العصر الأموي. والنقائض اسم اخترعه أبو عبيدة لقصائد الهجاء المتبادلة بين جرير وغيره من الشعراء وبخاصة الفرزدق. نبهه إليه مسحل بن كسيب سَبط جرير الذي روى له أخبار التهاجي بين جرير والفرزدق. وطريقة هذا الفن أن ينظم شاعر قصيدة في الفخر والهجاء من وزن وقافية، فيرد عليه شاعر آخر وينقض فخره وهجاءه بقصيدة من نفس الوزن والقافية.

وأول اشتباك في النقائض حدث بين جرير وشاعر يقال له غسان السليطي، فلما انتصر عليه جرير انبرى شاعر من قوم الفرزدق يقال له البعيث فانتصر لغسان وهجا جريرا.

إلا أن هذه النقائض تشبه الأهاجي القديمة؛ فهي في أكثرها أراجيز ومقطوعات. وليس فيها عمق أو تعقيد وليس فيها اتصال بظروف الحياة السياسية الجديدة.

فإذا تقدمنا بعد ذلك وجدنا جريرا يسوق نقائض من طراز جديدة، فيها دفاع عن قيس. وفيها اتصال عميق بماضي القبائل العربية وأمجادها، وفيها اتصال بالظروف السياسية المعاصرة، فضلاً عن تعبيرها عن كل ما حصل عليه العرب حينئذ من ذخائر عقلية وروحية، أدّت إلى "نمو العقل العربي، ومرانه الواسع على الحوار والجدل" [1].

---

(١) شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص ٢٤٢ .

من هنا نجد جريرا وصاحبيه (الأخطل والفرزدق) قد حوّلوا صورة الهجاء القديمة إلى صورة جديدة. هي صورة النقائض كما سماها لهم القدماء.

تقع النقائض في ديوانين هما: نقائض جرير والأخطل، ونقائض جرير والفرزدق.

نقائض جرير والأخطل :

ينسب تأليف نقائض جرير والأخطل إلي أبي تمام الطائي الشاعر وتحتوي على إحدى عشرة قصيدة لجرير وتسع قصائد للأخطل.

وكان سبب تهاجي الشاعرين أنه لما بلغ الأخطل تهاجي جرير والفرزدق قال لابنه مالك: انحدر إلى العراق حتى تسمع منهما، وتأتيني بخبرهما، فلقيهما، فاستمع، ثم أتى أباه فقال: جرير يغرف بن بحر، والفرزدق ينحت من صخر، فقال الأخطل: فجرير أشعرهما، ثم قال :

إني قضيتُ قضاءً غيرَ ذي جنفٍ ... لما سمعت ولما جاءني الخبرُ[1]

أنَّ الفرزدقَ قد شالت نعامَتهُ ... وعضَّهُ حيّةٌ من قومهِ ذَكرُ[2]

فلما قدم الأخطل على بشر بن مروان أخي الخليفة في الكوفة بعث إليه قوم الفرزدق بهدايا وقالوا له: فَضِّل شاعرنا عليه وسُبَّه، فقال الأخطل:

اخسأ إليك كليب إن مُجاشعاً ... وأبا الفوارسِ نهشلاً أخوانِ

وإذا وضعت أباك في ميزانهم ... رجحوا وشال أبوك في الميزان

فرد عليه جرير؛ ومنذ ذلك الحين اشتعلت نار العداوة بين الشاعرين.

ويروي ابن سلام في موضع آخر "أن الفرزدق والأخطل وجريرا اجتمعوا عند

(١) جنف : ظلم.

(٢) شالت نعامته: رفعت ذيلها، كناية عن الهزيمة؛ شالت نعامتهم: مثل يضرب في تفرق الناس. حية ذكر: شهم.

بشر بن مروان، وكان يغري بين الشعراء، فقال للأخطل: احكم بين الفرزدق وجرير، فقال: أعفني أيها الأمير، فقال: احكم بينهما، فاستعفى بجهده، فأبى إلا أن يقول، فقال: هذا حكم مشؤوم الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر. فلم يرض بذلك جرير، وكان سبب الهجاء بينهما، فقال جرير:

يا ذا الغباوة إن بشرا قد قضى ... ألا تجوز حكومة النشوان

فدعوا الحكومة لستم من أهلها ... إن الحكومة في بني شيبان

ثم استطارا في الهجاء[1].

غير أن شوقي ضيف يرى أن هذه النقائض إنما استطارت بين الشاعرين بحكم موقف جرير في صف قيس في حين كان الأخطل لسان قومه تغلب، وبذلك كانت قيس وتغلب على طرفي نقيض سواء في السياسة أو في المصالح الاقتصادية[2].

ومهما يكن فقد اصطدم شاعر تغلب بشاعر قيس فدخلا في هذه المعارك التي أنتجت لنا هذه النقائض الطريفة.

ونقائض جرير والأخطل قصائد طويلة، استنفدت جهدا غير قليل من الشاعرين، إذ نجدهما يحاولان الإلمام بتاريخ قيس وتغلب وما لهما من أمجاد في الجاهلية أو مثالب. ومن هنا كانت هذه النقائض وثائق تاريخية لمن يريدون درسهما ومن اتصل بهما من القبائل.

وفضلاً عن ذلك نجدهما يلمان بالحياة الإسلامية الحديثة وما طرأ عليها من ظروف سياسية؛ فالأخطل حين يهجو قيسا يفكر في موقفها من الأمويين ويجره ذلك إلى مدح الخليفة.

ويقدم الشاعر لنقيضته ببكاء الأطلال ووصف رحلته في الصحراء، وقد

(١) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص ١١٠ .

(٢) شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص ٢٤٢ .

يضيف الأخطل نعتا للخمر، وبذلك تشتمل بعض النقائض على جُلّ فنون الشعر التي عرفت حينئذ.

ولم يحتكم الشاعران إلى ذلك فحسب، بل احتكما أيضاً إلى الإقذاع في الهجاء ومحاولة السخرية وإضحاك الجماهير. حتى يسقط كل منهما قبيلة صاحبه سقوطاً لا تقوم من بعده بما يلبسها من الخزي والعار. وذلك بنقض الصفات التي يُبجلها العرب من كرم ووفاء. ولكل منهما أبيات مشهورة، فمن ذلك قول الأخطل في إحدى نقائضه :

قوم إذا استنبحَ الأضيافَ كلبُهُمُ قالوا لأمهم بُولي على النار

فهو لا يصفهم باللؤم والدناءة وابتذال الناس فحسب، بل جعل نارهم أيضاً حقيرة ضئيلة تطفئها الكمية القليلة من الماء (البول).

وكان جرير هو الآخر يحاول أن يلبس الأخطل وقومه أقبح الهجاء وأشده لذعا وتهكما. فتعمد دائماً أن يهجو نساء تغلب، فإذا عدل عن ذلك فإلى دين تغلب ومسيحيتها، وكذلك إلى أخلاقها وخصالها من مثل بيته المشهور [1] :

والتغلبيُّ إذا تنحنحَ للقرى حك استه وتمثَّل الأمثالا

وهي صورة قبيحة، ولكنها مضحكة، تحمل كل ما أراده من سخرية بصاحبه وبقبيلته. ومن ذلك قوله :

أبعلَ التغلبيّةِ لا تطأها فلا دينا أصبْتَ ولا جمَالا

وقد انتهى جرير والأخطل من صنع نقائضهما معاً بوفاة ثانيهما في عصر الوليد بن عبدالملك حوالي سنة ٩٢هـ.

---

(١) الأغاني، ٣١٨/٥ .

نقائض جرير والفرزدق :

جمعها أبو عبيدة معمر بن المثنى (١١٠ - ٢٠٧هـ) عن رواة عصره من أمثال الأصمعي والمفضل الضبي وابن الأعرابي وغيرهم، ثم زاد في مادتها ثلاثة من العلماء هم: محمد بن حبيب، والسكري، واليزيدي.

سبب تهاجي جرير والفرزدق يعود إلى خصومة بين جرير وغسان السُّليطي، ودخل بينهما شاعر من مجاشع قوم الفرزدق يسمى البعَيث، فتفوق عليه جرير، ففزع بنو مُجاشع إلى الفرزدق، وكان قد قيد نفسه لحفظ القرآن، واعتزم أن يهجر الشعر، فأظهر شيئاً من التردد، فجاءه نسوة بني مجاشع واستنرنه للاشتراك في الخصومة والرد على جرير، وما زلن به حتى فك وَثاقه وزحف إلى المعركة، واستمر عالقا بها حتى آخر لحظة من حياته [1].

ظل الشاعران يتهاجيان نحو خمسة وأربعين عاماً في عشيرتيهما من جهة وفي قيس وتميم من جهة ثانية، فقد وقف جرير في صف قيس، إذ أن عشيرته اليربوعية بايعت ابن الزبير، وصادف أن قتل مجاشعي الزبير بن العوام حين لجأ بعد موقعة الجمل إلى مجاشع، كما تصادف أن لجأت النَّوار زوج الفرزدق حين غاضبته إلى ابن الزبير، فأعانها عليه، مما جعل الفرزدق يهجوه.

وانزلق الراعي في هذه المعركة متحيزاً للفرزدق بقوله :

يا صاحبيّ دنا الرحيلُ فسيرا ... غلبَ الفرزدقُ في الهجاءِ جريرا

فرد عليه جرير ببائيته الدامغة التي هدمت الراعي وقبيلته نميرا، حتى لقد صار الرجل من نمير إذا سمع قوله تعالى : ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾ : خجل وطأطأ رأسه، لقول جرير في تلك القصيدة :

إذا غضبت عليك بنو تميم ... حسبت الناسَ كلَّهم غِضابا
فغُضّ الطّرفَ إنكَ من نُميرٍ ... فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

(١) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص ٨٩ وما بعدها .

ولم يلبث الراعي أن انصرف من مجلس الفرزدق، واتجه إلى منازل قبيلته في نجد.

ونحن هنا نفاجأ بموقف شاذ، فجرير يهجو الراعي النميري القيسي، والفرزدق يدافع عن الراعي ويقف في صفه، ولعل ذلك يعود إلى ظهور بشر بن مروان في العراق وتقريبه بين الراعي من جهة والفرزدق من جهة أخرى.

ومن يرجع إلى شرح أبي عبيدة لنقائضهما يجده يستعين على شرحه لها بأيام العرب، لأن الشاعرين تحدثا عنها؛ فجرير يتحدث عن أيام يربوع وقيس، والفرزدق يتحدث عن أيام مجاشع وتميم، فضلاً عن أيام تغلب انتصارا للأخطل. وهما يتحدثان عن أيام الإسلام وخاصة ما كان بين تميم وقيس في خراسان، فقد نكلت تميم بقتيبة بن مسلم حين ثار على سليمان بن عبدالملك.

لقد أصبحت النقيضة عند الفرزدق وجرير عملا فنياً معقداً، اختلطت فيها العصبيات بالسياسة، بحيث أصبحت لا تحتوي فخراً وهجاء فحسب، بل تحتوي كذلك مديحا، كما تحتوي نسيباً وغزلا. والشاعر في كل هذه الموضوعات يستلهم الإسلام في معانيه، كما يستلهم قدرة العقل العربي الجديدة على الجدال ونقض الدليل بالدليل.

على أنه ينبغي أن نفهم أن الشاعرين كانا يقومان بهذه النقائض على أنها شيء يقصد به إلى التسلية أكثر مما يقصد به إلى السباب والتخاصم. وكان الناس يعرفون ذلك، ومن هنا تأتي استثارة ولاة العراق لهما بحضرتهم طلباً للتسلية واللهو. وإذا رجعنا إلى أخبار الشاعرين وجدناهما متصادقين متوادين، فإذا طُلب جرير لحرب الأزارقة توسط له الفرزدق عند المهلب ليتركه[١]، وإذا حبس الفرزدق توسط له جرير عند صاحب الشرطة في العراق[٢]، ثم عند هشام بن عبدالملك في الشام[٣].

---

(١) الأغاني، ١٩/٢٩ .

(٢) المصدر نفسه، ١٩/٤٢ .

(٣) العقد الفريد، ٣/١٤٥ .

وقد حزن جرير على صاحبه جزناً شديداً حين سبقه إلى الموت، ورثاه بأبيات، منها[1] :

فُجعنا بحمّال الدّياتِ ابنِ غالبٍ وحامي تميم عِرضها والُمراجِمِ[2]
فلا حَملتْ بعد ابن ليلى مَهيرة ولا شُدَّ انساعُ المطيّ الرّواسمِ[3]

كان المربد هو المكان الذي تختلف إليه الجماهير، وتتحلق حلقات للاستماع إلى الشعراء. وبخاصة جرير والفرزدق حيث يتحلق الناس حولهما، أما الفرزدق فيتحلق حوله قومه من تميم وبني دارم ومجاشع وأخلاط من قبائل أخرى، وأما جرير فكانت تتحلق حوله قبيلته من كُليب وبني يَربوع فضلاً عن قبائل قيس. فإذا أنشد الفرزدق قصيدة في هجاء قيس وقوم جرير والفخر بتميم وأمجادها في الجاهلية، والانتصار للأخطل وتغلب حملها الرواة إلى جرير، فيرد كل ما فيها من سهام إلى نحر الفرزدق وقومه دارم، ويتعرض للأخطل يقذفه بدينه وكل ما يرد على خاطره. والناس من حول جرير وصاحبه يهرجون، ويصفرون، ويضحكون.

ويرى شوقي ضيف أن نقائض جرير والفرزدق حديثة العهد بالإسلام وبالبصرة في العصر الأموي، إذ وجدت أول مرة لسببين:

■ عامل اجتماعي، هو الفراغ وإحياء العصبيات وتورط القبائل في أحزاب سياسية.

■ عامل عقلي، هو المحاورات والمناقشات في البصرة، مما أكسب الشاعرين القدرة على الحوار والجدل[4].

وتشهد الأخبار والنصوص أن الشاعر كان ينشد قصيدته من صحيفة مكتوبة، وبعد فراغه من إملائها وكتابة الرواة لها كانوا يأخذونها إلى خصمه، فيتأملها، ثم

(١) الديوان، ص ٥٣٥ .
(٢) المراجم: المناضل.
(٣) المهيرة: الحرة. انساع: جمع نسع وهو سير تشد به الرجال. الرواسم: النوق.
(٤) شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص ١٨٤ .

يحاول الرد عليها؛ ففي الشعر والشعراء أن أبا عمرو بن العلاء كان في حلقة جرير وهو يملي نقيضته في الأخطل :

ودِّعْ أمامة حانَ منكَ رحيلُ إنّ الوداعَ لمن تحبُّ قليلُ[1]

ويقص الرواة أن جريراً حين نظم نقيضته في الفرزدق والراعي النميري قال لراويته: "زد في دُهن سراجك الليلة، وأعدد ألواحا ودواة. فما زال جرير يصوغ البيت والحسين يكتب، حتى انتهى من النقيضة"[2].

وهذا يفسر لنا ضعف الشاعر الثاني الذي يطلب إليه الرد على زميله، فالرواة والناس من حوله يتعجلونه ويستحثونه أن يرد في أقرب فرصة، فيرد عليها دون ريث، فمثلاً في نقيضة الفرزدق التي استهلها بقوله :

إن الذي سمكَ السماءَ بنى لنا بيتًا دعائمه أعزٌّ وأطولُ[3]
بيتا بناه لنا المليكُ وما بنى حكمُ السماءِ فإنه لا يُنقل

نجد جريرا يرد عليها بصياغة مماثلة، فيقول :

إن الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا عِزا علاك فما له من مَنقلِ

لقد استعان الشاعران بكل ما يمكن من توليد للمعاني وتركيب فيها، أما من حيث التركيب، فقد أدخلا عليها معاني جديدة، وأما من حيث التوليد فقد كانا يعرضان المعنى الواحد في صور مختلفة.

أما ما يزعمه النقاد من أن جريرا يكرر أربعة معان في هجاء الفرزدق لا يكاد يعدوهما، وهي قتل مجاشع للزبير حواري الرسول ﷺ، وأن الفرزدق قين ابن

(١) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص ٢٨٦ .
(٢) النقائض، ص ٤٣٠ .
(٣) سَمَكَ : رفع

قين، وما يرميه في أخته جعثن، وما كان من نبو السيف في يده حين ضرب الرومي، فليس صحيحاً. وقد رد عليهم ابن الأثير[1] ، إذ أتى بهجاء كثير لجرير يثبت به أنه نوع في معاني هجائه، وأنه لم يقف عند هذه المعاني الأربعة.

واستعرض المعنى الثاني، وهو أن الفرزدق قين ابن قين، إذ كان لجده صعصعة قيون كثيرة في الجاهلية، فاستغل ذلك جرير في سبه وهجائه به، وعرضه في صور مختلفة، فتارة يقول له إن أباك شغل عن المكارم بصناعة القيون، بقوله :

ألهى أباك عن المكارم والعُلا ليُّ الكتائف وارتفاعُ المِرجَلِ[2]

وتارة ثانية يقول له إن المرجل والقدر يبكيان أباه :

يبكي صداه إذا تصدَّع مرجل أو إن تشلَّم بُرمة أعشار[3]

وتارة ثالثة يقول له: إن أباك أورثك آلة الحدادة، أما أبي فأورثني آلة الشجاعة، في مثل قوله :

فأورثك العَلاة وأورثونا رِباط الخيلِ أفنية القِبابِ[4]

وهكذا نهض الشاعران بهذا الفن، ونالا به منزلة رفيعة في أذهان الناس خاصتهم وعامتهم لهذا العصر، فقد كان الخلفاء والولاة يُجلّونها، وكذلك كان الناس من حولهما.

---

(١) ابن الأثير، المثل السائر، ص ٤٩٠ وما بعدها.
(٢) الكتائف: جمع كتيفة، وهي ضبة من حديد تشعب بها الآنية والقدور. المرجل: القدر.
(٣) البرمة الأعشار: القدر المحطم. الصدى هنا: بدن الميت.
(٤) العلاة: إناء يحلب فيه.

التقويم الذاتي :

السؤال الأول : ما المقصود بفن النقائض؟ اكتب بإيجاز عن نشأة هذا الفن .

السؤال الثاني : تقع النقائض في ديوانين، اذكرهما .

السؤال الثالث : ما سبب تهاجي جرير والأخطل؟

السؤال الرابع : ما سبب تهاجي جرير والفرزدق ؟

السؤال الخامس : علل ما يأتي :

أ - ضعف الشاعر الثاني الذي يُطلب إليه الرد على زميله.

ب - أصبحت النقيضة عند جرير والفرزدق عملاً فنياً معقداً.

ج - كان الفرزدق يدافع عن الراعي النميري القيسي ويقف في صفه.

د - كان أبو عبيدة يستعين على شرحه للنقائض بأيام العرب.

هـ - استعان جرير والفرزدق بتوليد المعاني وتركيبها.

الفصل الثالث

شعراء النقائض

أ - الأخطل (٢٠ - ٩٢هـ)

ولد في بادية الحيرة نحو سنة ٦٤٠م/ ٢٠هـ وحُرم أمه صغيراً، فأساءت إليه زوج أبيه، إذ لقَّبته دَوبلا[1]، والدوبل هو الحمار الصغير، وكانت ترسله مع الغنم وتؤثر أولادها بالطعام.

استيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة، واقترن بها سفه شديد، فكان يكثر من هجاء الناس. وهجا كعب بن جُعيل شاعر تغلب وأخمله، ولذلك لقب بالأخطل ومعناه السفيه، أما اسمه فغياث بن غوث، وكان يكنى بأبي مالك وهو أكبر أبنائه.

شاعر بني أمية :

١ - اتصاله بالأمويين: خرج معاوية من صفين مستأثراً بالخلافة، فخضعت الأنصار ولكن على مضض؛ وكان عبدالرحمن بن حسان قد شبَّب برملة بنت معاوية،

---

(١) وقد عيره جرير بذلك حين قال يهجوه :

بكى دوبل، لا يرقأ الله دمعه
الا إنما يبكي من الذل دوبل

ويظهر أن الأخطل استاء من هذا اللقب، وقال: والله ما سمتني أمي دوبلا، إلا نهاراً واحداً، فمن أين سقط إلى هذا الخبيث؟ ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص ١٦٦ .

فغضب أخوها يزيد وسأل كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار، فاعتذر ودلّه على الأخطل، فهجاهم برائيته اللاذعة التي يقول فيها :

ذهبتْ قريشٌ بالمكارم والعُلا ... واللؤم تحت عمائمِ الأنصار
فدعوا الحكومة لستمُ من أهلها ... وخذوا مساحِيكُم بني النّجّار[1]

فطلب الأنصار معاقبة الأخطل فنجا على يد يزيد؛ وردّ النعمان بن بشير عليه، ولكن الهجاء لم يستطر بينهما، إذ آثر الأخطل الانسحاب خوفا على نفسه وصار من ذلك الحين شاعر بني أمية.

٢ - **في عهد معاوية ويزيد (حتى سنة ٦٤هـ)**: توثّقت علاقات الشاعر مع بني أمية، فأكرموه: وأجمل يزيد معاملته، فمدحه الشاعر بعدة قصائد، ولما توفي رثاه.

٣ - **في عهد عبدالملك بن مروان (حتى سنة ٨٦هـ)**: قرّبه عبدالملك ولقّبه بشاعر بني أمية وشاعر أمير المؤمنين، فأخذ الأخطل يتغنى بمدحه ويهجو خصومه. وقويت دالة الأخطل على عبدالملك فتدخل في سياسة الخلافة وسخّرها لمصلحة قومه؛ حتى لنراه يهدد بني أمية بانصراف تغلب عنهم، إن لم يأخذوا لهم بثأرهم من الجحاف السلمي الذي أغار على تغلب في معركة "البشر" (*) التي قتل فيها ابن للأخطل، ووقع هو نفسه أسيراً، غير أنه ضلّل من أسروه، إذ قال لهم إنه عبد، فأطلقوه، وفي ذلك يقول :

لقد أوقع الجحّافُ بالبِشْر وَقعةً ... إلى الله منها المشتكى والمُعوَّلُ
فسائل بني مروانَ ما بال ذمّة ... وحبلٍ ضعيفٍ لا يزال يُوصَّلُ

واستطاع عبدالملك أن يصلح بين الفئتين، فعاد الأخطل إليه وأصبح شاعره الأثير على الرغم من نصرانيته، ويقول الرواة إنه كان يمثل بين يديه "وفي

(١) المسحاة : المجرفة.
(*) نسبة إلى جبل البشر.

عنقه سلسلة ذهب، فيها صليب ذهب، تنفض لحيته خمرا" [1]. وحاول عبدالملك أن يدعو الأخطل إلى الإسلام فقال له: لم لا تسلم، يا أخطل؟ فقال: إن أنت أحللت لي الخمر ووضعت عني صوم رمضان أسلمت. فقال عبدالملك: إن أنت أسلمت، ثم قصرت في شيء من الإسلام. ضربت الذي في عنقك. فقال الأخطل:

ولستُ بصائمٍ رمضانَ يوماً ... ولستُ بآكلٍ لحمَ الأضاحي
ولستُ بقائمٍ كالعيرِ يدعو ... قُبيلَ الصُّبحِ: حيَّ على الفلاح[2]
ولكنّي سأشربُها شَمُولا ... وأسجُد عند مُنبلَجِ الصّباحِ[3]

فجارى عبدالملك شاعره في مزاحه وقال: وما بلغ منك الشراب؟ قال: يا أمير المؤمنين إذا شربتها فأنت أهون علي من شسع[4] نعلي. فقال: قل فيه شعرا، وإلا ضربت عنقك، فقال:

إذا ما نديمي علّني ثم علّني ... ثلاثَ زُجاجاتٍ لهنَّ هَديرُ[5]
خرجتُ أجرُّ الذّيلَ زهوا كأنني ... عليكَ أميرَ المؤمنين أميرُ[6]

٣ - **في عهد الوليد** (٨٦ - ٩٦هـ): تضاءل عِزُّ الشاعر، وأعرض الوليد عنه، فقلّت قصائده، وظهر في شعره ألمه النفسي وتشكّيه. وكان الوليد قد قرّب منه شاعراً آخر هو عدي بن الرِّقاع وقد توفي الأخطل سنة ٩٢هـ.

---

(١) الأغاني، ٨/ ٢٩٩ .
(٢) العير : الحمار.
(٣) الشمول : الخمر.
(٤) شسع : سير النعل.
(٥) النديم : الذي يجالس على الشرب. علني: سقاني تباعا.
(٦) الأغاني، ٨/ ٢٩٠ .

أغراض شعره :

المدح، والهجاء، والفخر، والوصف، والخمريات، ولم يوفَّق في الرثاء. وغزله تقليدي يأتي في مطالع قصائده.

١ - المدح :

يُعدُّ عهد عبدالملك العهد الذهبي للأخطل، ونرى مدائحه تمتلىء بقومه وخدماتهم لبني أمية، كما تمتلىء بالدعوة السياسية للأمويين، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته "خفَّ القطين"، ومنها بيته المشهور :

شُمْسُ العداوة حتى يستقادَ لهم وأعظمُ الناس أحلاما إذا قدَروا[1]

وأسلوبه في مدحه هو الأسلوب القديم مصبوغاً بصبغة السياسة، يمتاز برصانة الألفاظ وجزالتها، ومدائحه في عبدالملك تعدُّ درره الشعرية، وقد جعله عبدالملك شاعر بني أمية، وشهد له بالتفوق، إذ يقول : "كفى بابن النصرانية إذا مدح" [2]، وكان أسلوبه أجزل وأرصن من جرير.

٢ - الهجاء :

هجا الأنصار؛ فنال من النعمان بن بشير، وهجا الزبيريين وبني كليب قوم جرير، وهجا الجحّاف وزفر بن الحارث لثورتهما على بني أمية، وكان هجاؤه يدور حول التّعيير بالبخل، ووصف الهزيمة، وتفضيل قوم على قوم كتفضيل بني دارم قوم الفرزدق على كليب قوم جرير.

كان هجاء الأخطل دفاعياً أكثر منه هجومياً، ومؤلما من غير فحش، يطعن بالقبيلة أكثر مما يطعن بالفرد، وقد لجأ هو وجرير إلى فن النقائض.

---

(١) شُمس : أشدّاء. يستقاد لهم: يخضع الناس لقيادتهم. الأحلام: جمع حُلم، وهو العقل، والمقصود الصبر والأناة.

(٢) ايليا حاوي، الأخطل : شاعر بني أمية، ص ٢٠٨ .

٣ - **الفخر :**

اصطبغ فخر الأخطل بالصّبغة السياسية، تارة يدخله في المدح لإظهار خدمات قومه لبني أمية، وتارة يدخله للدفاع عن كرم أصله وطيب عنصره. من ذلك قوله لعبدالملك :

وقد نُصِرتَ أميرَ المؤمنين بنا لما أتاك ببطن الغُوطةِ الخَبَر(١)

وكثيراً ما يمزج فخره بأهاجيه.

٤ - **الوصف :**

وصف البادية بوحشها وطيرها وفلواتها، وبعض مشاهد الفرات تمخر في عبابه السفن، وأسلوبه هو أسلوب النابغة بما فيه من تصوير حسّي ودقة. وكان الأخطل يجيد نعت الخمر ودنانها ونداماها؛ ويمتاز وصفه للخمر بالدقة والشمول. ولو أتى في قصائد مستقلة لكان الأخطل شاعر الخمرة قبل أبي نواس.

ولعل الأخطل كان أهم رائد لفن الخمريات في العصر الأموي وقد شاكل الأعشى في صوره وتراكيبه، وذكرها كثيراً في شعره من خلال قصائده المدحية، إذ يتشبه بالسكران الذي افتقد وعيه، من مثل قوله :

صريعُ مُدامٍ يرفع الشَّربُ رأسه ليحيا وقد ماتَتْ عظامٌ وَمفصلِ(٢)

إذا رفعوا عَظماً تحاملَ صدرُهُ وآخرُ مما نال منها، مُخبَّلُ

ثم ينتقل إلى وصف الخمرة فيقول :

تدبُّ دبيباً في العظام كأنه دَبيبُ نِمالٍ في نَقاً يتهيَّل(٣)

فقلتُ: اقتلوها عنكم بمزاجها فأطيِبْ بها مقتولةً حين تُقتل(٤)

---

(١) الغوطة : موضع بالشام كثير الماء والشجر، وهي غوطة دمشق.

(٢) الشرب : جمع الشارب، وهو الذي يشرب الخمرة.

(٣) النقا: ما ارتفع من الرمل، يتهيل: ينحدر.

(٤) قتل الخمرة: مزجها بالماء.

المتخيَّر من شعره :

خفَّ القطين[1]

خَفَّ القَطِينُ فراحُوا منك أو بكرُوا … وأزعجتهم نوىً في صَرْفها غِيرُ[2]
إلى إمامٍ تُغاديـنا فواضِلُهُ … أظفَرَهُ الله فليهنِىء له الظَّفَرُ
الخائضُ الغَمرَ والميمون طائرُهُ … خليفةُ الله يُستسقى به المطرُ[3]
وما الفُراتُ إذا جاشَتْ غواربُهُ … في حافتيه وفي أوساطه العُشَرُ[4]
وزعزعتهُ رِياح الصّيفِ واضطربتْ … فوقَ الجآجيء من آذيِّه غُدُرُ[5]
مُسحنفرٌ من جبالِ الرُّوم يستُرُهُ … منها أكافيفُ فيها دونَهُ زَوَرُ[6]
يوماً بأجودَ منه حينَ تسألُهُ … ولا بأجهرَ منه حينَ يُجتهَرُ[7]
مُقدَّمٌ مائتي ألفٍ لمنزلِهِ … ما إنْ رأى مثلَهم جِنٌّ ولا بَشَرُ
يَغشى القناطرَ يبنيها ويهدِمُها … مُسَوَّمٌ فوقهُ الراياتُ والقَتَرُ[8]
حتى يكونَ له بالطَّفِّ ملحمةٌ … وبالثَّويةِ لم يُنبض بها وتَرُ[9]
في نَبعةٍ من قُريشٍ يَعصِبُون بها … ما إن يُوازى بأعلى نبتها الشّجرُ[10]

---

(١) ديوان الأخطل، ص ٩٨ وما بعدها.
(٢) خف: ارتحل. القطين: أهل الدار. راحوا: ذهبوا أو رجعوا عشاء. بكروا: ارتحلوا صباحا أو مبكرين. الصرف: التقلب والمصيبة. غير الدهر: أحداثه.
(٣) الغمر: الماء الكثير أو الظلمة الشديدة والمقصود هنا المعارك.
(٤) الغوارب : الأمواج. والعشر : شجر.
(٥) زعزعته : حركته. الجآجيء: جمع جؤجؤ وهو الصدر. الآذي: الموج. غدر: جمع غدير.
(٦) المسحنفر: السريع: الأكافيف: الجوانب المرتفعة. الزور: الميل.
(٧) يجتهر : يستعظم.
(٨) المسوَّم: الذي فيه علامة تميزه. القتر: الغبار.
(٩) الطف والثوي: موضعان قرب الكوفة، لم ينبض بها وتر: لم يرم بها نبل، كناية عن التحام الجيشين.
(١٠) النبع. أجود الشجر صلابة، شبه بني أمية بشجرة النبع الصلبة. يعصبون بها: يلترمونها.

حُشدٌ على الحقِّ عيّافو الخَنا أُنُفٌ إذا أَلَمَّتْ بهم مكروهةٌ صبروا[1]
أعطاهُمُ الله جداً يُنصرون به لا جَدَّ إلا صغيرٌ بعدُ محتقَرُ[2]
شُمسُ العداوة حتى يُستقادَ لهُمْ وأعظمُ النّاس أحلاماً إذا قَدَروا[3]
بني أميّة قد ناضلتُ دونكُمُ أبناءَ قومٍ هُمُ آوَوا وهم نَصروا[4]
بني أميَّةَ إني ناصحٌ لكم فلا يبيتنَّ فيكم آمناً زُفَرُ[5]
إنَّ الضَّغينةَ تلقاها وإنْ قَدُمَتْ كالعَرِّ يَكمُنُ حيناً ثم ينتشرُ[6]
وقد نُصرتَ أميرَ المؤمنينَ بنا لمّا أتاكَ ببطنِ الغَوطَةِ الخَبرُ
وقيسَ عَيْلانَ حتَّى أقبلوا رقصاً فبايعوكَ جِهاراً بعدما كفروا[7]
فلا هَدى اللهُ قيساً من ضلالتهمْ ولا لَعاً لبني ذكوانَ إذْ عَثَروا[8]
ضَجُّوا من الحرب إذ عضَّتْ غواربهُم وقيسُ عيلانَ من أخلاقها الضَّجَرُ[9]
أما كُليبُ بنُ يَربوعٍ فليسَ لهمْ عندَ المكارم لا وِردٌ ولا صَدَرُ[10]
الآكلونَ خَبيثَ الزّاد وَحدَهُمُ والسَّائلون بِظهرِ الغَيبِ: ما الخَبَرُ؟[11]

---

(١) حشد : الاجتماع. العيّاف : شديد الكره. الخنا : الفحش والرذيلة. أنِف : أبى.

(٢) جداً: حظاً (القضاء والقدر). أي أن بني أمية ينفذون قضاء الله ومشيئته في القضاء على أعدائهم.

(٣) شمس: جمع شموس؛ الرجل الصعب عداوة. استقاد: خضع ولان.

(٤) ابناء قوم: الأنصار (الأوس والخزرج).

(٥) زفر : هو زفر بن الحارث الكلابي القيسي.

(٦) الضغينة: الحقد. العَرّ: الجرب. شبه ذا الأحقاد بالجرب.

(٧) قيس عيلان: مجموعة من الأحياء المضرية (هوازن وغطفان وسليم). رقصا : مسرعين. كفر: جحد.

(٨) لا لَعاً: أي لا أقال الله عثرتهم. بنو ذكوان : هو عمير بن الحباب.

(٩) ضجوا : التذمر والضجر. الغوارب: جمع غارب، أعلى الكتف. عضّ : آلم.

(١٠) كليب : قبيلة جرير وهي عدوة لقبيلته. التفاريط: التسابق إلى الماء. لا ورد ولا صدر: تافهة.

(١١)خبيث الزاد: الطعام المرذول (دلالة على البخل). ما الخبر؟ : استفهام استنكاري، كناية عن فرط إهمالهم وجهلهم بما يجري حولهم.

إيجاز القصيدة :

استهل الأخطل قصيدته بذكر الارتحال والتنائي. ثم انتقل إلى عبدالملك بن مروان، فجعل يمدحه، مبالغا بفضائله، مستطرداً إلى بني أمية، واصفا فضائلهم، وفي أبيات أخرى يعدد مآثر قبيلته ويهجو القيسيين.

تقسيم القصيدة وتحليلها :

أ - المطلع التقليدي : يقع هذا المطلع، أصلاً في حدود أبيات عديدة يصف فيها الطلل ويتشبه في ذهوله بالنشوان الذي صرعته الخمرة ولقد خصَّ هذا المطلع بذكر فراق الأحبة.

ب - مدح الخليفة : استهل مديحه لعبدالملك بن مروان بخلافته على المسلمين، وإمامته لهم، وهو يهدف هنا إلى غاية سياسية تدور حول شرعية الخلافة الأموية، وتقديم البرهان عليها بحجة لا تقرع، وبيان لا يجارى، ولغة هي من أنصع ما في العربية الجاهلية وأجزلها.

وقد انتقل يمدح جوده وكرمه، فاستعار صورة قديمة نجدها عند النابغة في مديحه للنعمان إذ يقول في داليته [1]:

وما الفراتُ إذا هبَّ الرياحُ له	تمري أواذيُّه العبرين بالزَّبَدِ[2]
يمدُّه كلُّ وادٍ مُترعٍ لجبٍ	فيه رُكامٌ من الينبوتِ والخَضَدِ[3]
يظلُّ من خوفه الملاَّحُ مُعتصما	بالخيزرانة بعد الأينِ والنَّجَدِ[4]
يوماً بأجودَ منه سيبَ نافلةٍ	ولا يحولُ عطاءُ اليوم دون غَدِ

ولكن الأخطل حوّر في الصورة القديمة للنابغة، وجدّد فيها، فهو قد نقل هذه

(١) ديوان النابغة، ص ٣٦ .

(٢) تمري: تحلب. الأواذي: الأمواج. العبرين : الشاطئين.

(٢) الينبوت والخضد: ضربان من النبات.

(٤) الخيزرانة: سكان السفينة، الأين: الإعياء. النجد : العرق.

الصورة لكرم النعمان وجوده، إذ شبّهه بالفرات حين تعلو مياهه، فتجرف كل نبات أو شجر في طريقها، لكنه أضاف إليها طرافة جديدة، وهي طرافة يستمدها أولا من تفصيل صورة فيضان الفرات. وتعقبه منذ سقوطه من جبال الروم في انحدار شديد، ويستمدها ثانيا من الموازنة نفسها، فالنابغة يكتفي بموازنة الجود بين النعمان والفرات، أما الأخطل فيمد هذه الموازنة إلى الجهارة والروعة، فليس عبدالملك كالفرات في الجود فقط، بل هو مثله في الروعة والجسامة والفخامة.

إن الأخطل، خلال مدحه السياسي، لم يكن مبتكرا، وإنما اتخذ المعاني التي كانت شائعة منذ الجاهلية، لكنه كان يحاول التجديد من خلال تلك الإضافة.

وبعد هذه المعاني الدينية والخلقية يشرع الأخطل بتصوير الخليفة صورة تخالف الصورة الأولى. في تلك الصورة كان إماما، يستسقى بتقواه المطر، ولكنه الآن سيلج به إلى أجواء الملحمة والأسطورة مصورا شجاعته في الحروب بقوله:

مقدم مائتي ألف لمنزله   ما أن رأى مثلها جن ولا بشر

هذا البيت ينبري بالقصيدة إلى فلذة ملحمية تتسامى، خاصة، عندما يصبح جند الخليفة عبدالملك أسمى من الإنس والجن. وهذا المعنى غلو وتصاعد من المعنى الذي ألم به النابغة بقوله واصفا النعمان :

وخيّسِ الجِنَّ إني قد أذنت لهمْ   يبنون تدمرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ[1]

وقد استمرت هذه الصورة في قوله :

يغشى القناطر يبنيها ويهدمها   مسوم فوقه الرايات والقتر

فالصورة التي مثل بها الخليفة، هادما، بانيا، عبر الرايات والغبار تمثل معنى البطولة الذي يريد الشاعر أن يرسمه للخليفة.

---

(١) خيّس : ذلّل. تدمر: بلد بالشام. الصفّاح: حجارة عراض رقاق. العمد: السواري من الرخام.

أما ذروة الملحمة فتظهر في قوله :

حتى يكون له بالطَّفِّ ملحمة ... وبالثوية لم يُنبض بها وتر

فالملحمة هي المعركة التي تجري بين جيشين وجها لوجه وجسدا لجسد، وهي معركة تدل على الاستبسال والشجاعة أكثر من معركة القوس والوتر.

ومجمل القول في وصفه لبطولة الخليفة أنه نما إليه الصفة الخارقة التي تدعه متفوقا لا يقهر.

ج - **مدح الأمويين** : أراد الأخطل أن يثبت أن بني أمية أجدر الناس بالخلافة، فشبههم بشجرة صلبة عالية. وجعلهم أفضل قريش، وجعل القرشيين أفضل الناس. ثم أراد أن يسوغ شرعية انتقال الخلافة إليهم، فأظهر أنها من الله وأن أمير المؤمنين هو خليفة الله ومن ثم فهي مقدسة. وأما صلابتهم وسطوتهم فشديدتان مجتمعتان إلى العفو عند المقدرة :

شُمس العداوة حتى يستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلاما إذا قَدَرُوا

د - **فخر وهجاء** : تحدَّث الأخطل عن انتصارات تغلب على قيس في حروبهما بالجزيرة، وزعم أنه لولا هذه الانتصارات ما دخلت قيس في طاعة بني أمية. ثم انتقل إلى جرير وعشيرته كُليب، فأقذع في هجائها إقذاعاً شديداً.

التقويم الذاتي :

السـؤال الأول : ارجع إلـى الأغانـي ٨/ ٢٩٣ و٢٩٥ و١١/ ٦٤ - ٦٧، واكتـب مناسبة هذه القصيدة .

____

____

____

____

____

____

السؤال الثاني : صوّر الشاعر ممدوحه بأنه جواد وكريم، اكتب تلك الصور.

____

____

____

____

السؤال الثالث : أحاط الأخطل عبدالملك بهالة من التقديس تغاير الدين الإسلامي وتلتقي مع الموروث الديني الجاهلي، ففي أي بيت ظهر ذلك؟

____

____

السؤال الرابع : في أي بيت مدح الأخطل الأمويين بأنهم يدافعون عن الحق والدين؟

____

السـؤال الخامس : ظهرت إساءة الأخطل للأنصار في هذه القصيدة، فبِمَ هجاهم؟

____

السؤال السادس : انتقل الأخطل في بيت من أبياته من الإطار الذاتي إلى الإطار القبلي، أشر إلى هذا البيت ؟

السؤال السابع : ما البيت الذي يفخر فيه الشاعر بقومه، ويهاجم فيه تقريب عبدالملك للقيسية ؟

السؤال الثامن : الجديد في مدح الأخطل: أنه يشرك نفسه مع الممدوح، ويمزج بين الموروث والقيم الإسلامية الجديدة، فأين ورد ذلك؟

السؤال التاسع : اشرح البيت الذي انتقد فيه الأخطل عبدالملك. :

السؤال العاشر : صوَّر الأخطل من هجاهم بأسلوب ساخر، انثر هذه الصور كما وردت في القصيدة.

ب - الفرزدق (٢٠ - ١١٤هـ)

أبو فراس همّام بن غالب بن صعصعة، لُقّب بالفرزدق لجهامة وجهه وضخامته. ولد بكاظمة[١] نحو ٦٤١م/ ٢٠هـ من أب ذي وجاهة وكرم ينتمي إلى مجاشع بن دارم من تميم. وكان أجداده من أشرف بيوت تميم، فقد عرف جده صعصعة بأنه محيي الموءودات، وفي ذلك يقول الفرزدق :

ومِنّا الذي منعَ الوائداتِ وأحيا الوئيد فلم تُوأدِ

أما أبوه غالب فسيّدُ بادية تميم[٢]، أتى بالفرزدق يوما إلى علي بن أبي طالب > وقال له: "إن ابني هذا من شعراء مضر فاسمع منه . . . فقال له : أقرئه القرآن"[٣] وكان الفرزدق يعظم قبر أبيه "فما جاء أحد واستجار به إلا نهض معه وساعده على بلوغ غرضه"[٤].

وأمُّ الفرزدق هي لينة بنت قرظة من قبيلة ضبة. وأخته جعثن، كانت امرأة عفيفة صالحة.

نشأته :

نشأ الفرزدق ببادية البصرة، "يرعى غنماً لأهله"[٥] وهو ما يزال غلاما، وقد لامته أمه ذات يوم على تقصيره، إذ أكل الذئب واحداً من تلك الأغنام فردَّ عليها بقوله [٦] :

تلوم على أن صبّحَ الذئبُ ضأنها فألوى بكبشٍ وهو في الرَّعي راتعُ[٧]

---

(١) تسمى حالياً "الجهرة" قرب مدينة الكويت.
(٢) الشعر والشعراء، ١/ ٣٨٢ .
(٣) الأغاني، ٢١/ ٢٨٣ .
(٤) معجم الأدباء، ٧/ ٢٩٧ .
(٥) طبقات فحول الشعراء، ٣/ ٣٢٣ .
(٦) ديوان الفرزدق، ٣٥٨ .
(٧) صبح الذئب الغنم: سطا عليها مع الصبح. ألوى بكبش: ذهب به وأتلفه.

ولكن الفرزدق وجد أن همته أعظم من الرعي، فقد كان عميق الإحساس بتفوُّقه وامتيازه، بدا ذلك جلياً حين وفد إلى معاوية وفد تميم، فيهم عم الفرزدق الحتات، فمات في وفادته، وكان معاوية قد أمر له بمال، فرده إلى بيت المال، ولم يكد يسمع الفرزدق بذلك حتى نظم قصيدته الجريئة في معاوية ومنها :

فما بالُ ميراثِ الحُتاتِ أكلته ... وميراثُ حربٍ جامدٌ لك ذائبُه[1]

فلو كان هذا الأمرُ في جاهليةٍ ... عَلِمتَ مَنِ المرءُ القليلُ حلائبه[2]

فلا يلبث أن يقول معاوية: "رُدُّوا إليه ميراث عمه الحتات" [3]

هربه إلى الحجاز :

هجا الفرزدق بني فقيم وبني نهشل والأشهب بن رميلة. فاستَعْدُوا زياد بن أبيه عليه. وكان الفرزدق قد أنهب ماله وألقى ثيابه في المربد، فطلبه زياد في سنة ٥٠هـ، وخافه الفرزدق، فهرب نحو البادية حيث أجاره بعض الشيوخ وأعانوه على الفرار، فولّى وجهه نحو المدينة وعليها سعيد بن العاص، فأمَّنه وأجاره، وقد مدحه الفرزدق بقوله :

ترى الغُرَّ الجحاجحَ من قريش ... إذا ما الأمرُ في الحَدثانِ غالا[4]

قياما ينظرون إلى سعيد ... كأنهم يَرون به هلالا

وسمعه الحطيئة وهو ينشد هذه القصيدة، فقال: هذا والله الشعر لا ما نعلَّل به منذ اليوم. أقام الفرزدق بالمدينة، وأخذ يلهو ويعبث فطرده مروان بن الحكم، فخرج إلى مكة، ولم يمكث فيها طويلاً، فقد مات زياد بن أبيه، سنة ٥٣هـ، ورجع إلى العراق.

---

(١) حرب: جد معاوية.

(٢) الحلائب: الجماعات وابناء العم في القبيلة.

(٣) الأغاني ٢١/ ٣٦٨ .

(٤) الغر: جمع أغر وأصله أبيض الغرة ويريد به الشريف. والجحاجح: جمع جحجاح، وهو السيد السَّمح الكريم. الحدثان: الليل والنهار، وحدثا الدهر: نوائبه ومصائبه. غال: أصاب بشرّ.

أزواجه وأولاده :

عُـرف الفرزدق بتعدد زوجاته، فقد تزوج ابنة عمه النوار خدعة، إذ خطبها رجل من بني دارم فجعلته وليها، وأشهد أنها جعلت أمرها إليه وأنه يتزوجها على مائة ناقة سوداء الحدق، فتزوجته راغمة، لكنها ظلت تكرهه وتخاصمه حتى أجابها إلى طلاقها، وندم على ذلك فقال :

نـدمـتُ نـدامـةَ الـكُـسـعـيّ لمـا غَـدَتْ مـنـي مُـطـلَّـقـةً نـوارُ[1]

ومن زوجاته: أم مكية، ورهيمة النمرية، وحدراء الشيبانية، وطية المجاشعية. ولم يمكث معظمهن معه بسبب خشونته.

رزق الفرزدق أربعة ذكور من النوار، وسماهم أسماء غريبة وهم: لَبطَة وسَبَطة، وخَبطَة، وركَضَة، وله من غيرها ولد اسمه زِمعة. وله خمس بنات لم نعرف منهن سوى مكِّية، وكانت سليطة اللسان [2].

صفاته :

كان الفرزدق قبيحا في صفاته الجسمية وفي صفاته الخلقية: فقد كان قصيرا ضخماً، مجدور الوجه، أصلع دميم الخلقة. وكان فاسقا ماجنا مجاهرا بالفسوق، وكان انتهازيا متقلبا. قال يوما لسليمان بن عبدالملك : "نكون مع الرجل ما كان الله معه فإذا تخلَّى عنه تخلينا عنه" [3]، فهو يمدح آل البيت أولا ثم نراه يمدح يزيد ابن عبدالملك الذي عرف باللهو والمجون.

إلا أن الفرزدق كان باراً بأمه، شديد الاعتزاز بأبيه، وفيّا لرفيق دربه الأخطل. وقد تاب في أواخر عمره وندم على ما اقترف من آثام، ومما يصوّر توبته قصيدته التي خاطب بها إبليس، ومنها قوله :

---

(١) الكساحي: رجل يُضرب به المثل في الندم

(٢) انظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ٢/٦٦٧ .

(٣) العقد الفريد، ٥/٥٧ .

أطعتُكَ يا إبليسُ سبعين حِجَّةً   فلما انتهى شيبي وتمَّ تَمامي
رجعتُ إلى ربي وأيقنت أنني   مُلاق لأيام المَنون حِمامي[1]

ميوله السياسية :

كان الفرزدق شاعر تميم، يخدم مصالحها، ويدافع عن حقوقها، وكان يهب قلبه لآل البيت، وقلما كان يجهر بحبه لهم؛ خوفا من سيوف بني أمية، الذين مدحهم تزلقا ونفاقا، وطمعا في جوائزهم، وكانوا هم كذلك يخشون لسانه، فراحوا يسكتونه بالمال.

ظل الفرزدق في منأى عن خلفاء بني أمية لفترة طويلة، واقتصر اتصاله بولاتهم في العراق، وأول من وفد عليه من خلفائهم سليمان بن عبدالملك، فأصبح من شعراء بني أمية.

وفاتــــه :

مات الفرزدق بالبصرة سنة ١١٤هـ، ودفن بها في مقابر بني تميم، وقد رثاه جرير إذ يقول :

فُجعنا بحمّال الدّيات ابن غالبٍ   وحامي تميم عرضها والمراجم
فلا حملت بعد ابن ليلى مهيرة   ولا شدّ أنساع المطيّ الرّواسمِ

فنون شعره :

١ - **الفخر**: الفرزدق من أفخر شعراء العرب، فقد اكتملت لديه الأسباب، وهيأته الظروف للتفوق في هذا الفن، فقد نشأ سيدا في تميم، وانتمى إلى بيت من أشرف بيوتها.

كان الفرزدق يمزج الفخر في أهاجيه ومدائحه، ويسير في فخره على نهج

(١) ديوان الفرزدق، ٥٤٠ .

الجاهليين، وينسج على منوالهم، فيعدد أيام قومه في الجاهلية، ويصف حياة السلب والنهب واغتصاب السبايا.

٢ - **الهجاء** : يمزج الفرزدق هجاءه بالفخر بنفسه وقبيلته، فيأتي خصمه دائما من عَلٍ؛ ولهذا قيل: "الفرزدق إذا هجا ارتفع". يرتفع على جرير خصوصا، وكان جرير من أحقر بيوت تميم، والفرزدق من أشرفها. وهو في هجائه لغير جرير أقل إقذاعاً وفحشاً.

٣ - **المدح** : مدح الفرزدق خلفاء بني أمية منذ وفد على سليمان بن عبدالملك. أما ولاة العراق فكان إذا خاف بطشهم مدحهم، فإذا اطمأن هجاهم، وخاصة إذا أظهروا عصبة على تميم، كقوله في عمر بن هبيرة مخاطباً يزيد بن عبدالملك:

أميرَ المؤمنين وأنتَ عَفٌّ كريمٌ لست بالطَّبع الحريصِ[١]
أَوَلَّيتَ العراقَ ورافِدَيْهِ فزاريا أحَذَّ يدِ القميصِ[٢]

وممن مدحهم بشر بن مروان، والحجاج، والحكَم بن أيوب، لكنه كان منافقا في مدحه. ومدح زين العابدين بقصيدة مطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاءُ وطأته والبيتُ يعرفه والحِلُّ والحَرَمُ

ويرى شوقي ضيف أن أبا الفرج الأصفهاني أنكر نسبة القصيدة إليه، وتبعه في ذلك بقوله: "والذي لاشك أنها تخالف نسجه كما تخالف نفسيته إذ كان لا يتعصب لشيء سوى قبيلته وآبائه"[٣] والصحيح أن الأصفهاني أشار إلى الاختلاف حول من قيلت فيه القصيدة، ونسب بعض أبياتها لشاعر آخر هو الحزين الكناني. إذ تتفق معظم الروايات في نسبة القصيدة إلى الفرزدق[٤].

---

(١) الطبع : اللئيم الدنيء.
(٢) أحذ: سريع، يصفه بالسرقة وأنه غير أمين على أموال الأمة.
(٣) شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص ٢٧٣ .
(٤) سامي أبو زيد، الفرزدق والنقاد، ص ١٥٨ .

ومدح الفرزدق صورة لنزعته الجاهلية، وبيئته الأموية، ونفسيته الخاصة. فالنزعة الجاهلية تظهر في أسلوب القصيدة، وخشونة الألفاظ، وفي بعض معانيه وأوصافه التقليدية. وأما البيئة الأموية فتظهر في ممدوحيه المختلفي النزعات. وأما نفسية الشاعر الخاصة فتظهر في تناقضها، فهو متقلب في عاطفته وإخلاصه، فضلاً عن أنه كان يسأل ممدوحيه أحياناً في إباء، وكان يسألهم أحيانا إلحافا.

٤ - **الوصف**: جاء الوصف قليلا في ديوانه، لكنه كان بارعا فيه إذ أبدع في تصوير الصحراء والحيوانات البرية. واستطاع في وصفه للذئب أن يتفوق على الشعراء وبخاصة الذين قلدوه من بعده كالبحتري والشريف الرضي، كما يمتاز بالتقرب من الحيوان المفترس والعطف عليه، كقوله في ذلك الوحش :

فلما دنا قلتُ ادنُ دونكَ إنني ... وإياكَ في زادي لمشتركانِ
فبتُّ أسوّي الزادَ بيني وبينه ... على ضوءِ نارٍ مرةً ودخانِ

وهناك فنون لم يبرع فيها الفرزدق، فالرثاء يحتل مكاناً متأخراً في شعره؛ وذلك لجفاء طبعه، وخشونة ألفاظه، وتغلب نزعة الفخر عليه.

وكذلك يحتل الغزل مكاناً متواضعاً في ديوانه؛ لأنه يفتقر إلى الرقة، وله قصيدة غزلية وصف فيها إحدى مغامراته الغرامية، نسجها على منوال امرىء القيس وعمر بن أبي ربيعة، لكنه لم يوفّق فيها.

فنه وقيمته التاريخية :

خاض الفرزدق كل أبواب الشعر وأغراضه ولكنه أبدع إبداعاً عظيماً في الفخر.

ولم يكن الفرزدق يقول الشعر بسهولة بل كان يتروى ويلقى عناء حتى لقد رووا عنه قوله: "أنا أشعر تميم عند تميم، وربما أتت علي ساعة ونزع ضرس أسهل علي من قول بيت"[1] وهذا يفسر قول النقاد : إن جريرا يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر.

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٢٥

وكان الفرزدق ينقح شعره ويجوّد ألفاظه حتى شبهوه في هذا بزهير بن أبي سلمى.

وقد حافظ شعر الفرزدق على الغريب الجاهلي حتى قال أبو عبيدة: "لولا شعر الفورزدق لذهب ثلث اللغة"[1]، ولكنه يتجاوز أحياناً قواعد النحو المشهورة، كما يتجاوز قوانين البيان، وكان عبدالله بن أبي اسحاق يتتبع أخطاءه، في مثل قوله

وعَضٌّ زمانٍ يا بنَ مروانَ لم يَدَعْ   من المال إلا مُسحَتاً أو مُجلَّفُ[2]

فقد عطف مرفوعاً على منصوب.

وكان يقع أحياناً في سوء التأليف، ورويت له أبيات يصعب فهمها بسبب ما فيها من تقديم وتأخير وتداخل كقوله في مدح خال الخليفة هشام:

وما مثلهُ في الناس إلا مُملَّكاً   أبو أمه حيٌّ أبوه يقاربُهْ

وترتيب ألفاظ البيت: وما مثله (الممدوح) في الناس حي يقاربه إلا مملكا (هشام بن عبدالملك) أبو أمه أبوه؛ أي لا يشبهه أحد من الناس سوى خاله هشام.

ولكن شعر الفرزدق، فضلاً عن قيمته الأدبية، ذو قيمة تاريخية، لحديثه عن أيام العرب ومناقبهم ومثالبهم، وحديثه عن أخبار الدولة وأحداث عصره حتى قالوا: "لولا شعره لذهب نصف أخبار الناس"[3].

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ١٩/٣٩٩.
(٢) ديوان الفرزدق، تحقيق علي فاعور، ص: ٤٨٩.
(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ١/٣٢١.

المتخيَّر من شعره :

(١) الفرزدق يفخر ويهجو :

هذه القصيدة للفرزدق يفتخر فيها ببني دارم بن مجاشع، ويهجو قوم جرير. وقد رد عليه جرير بنقيضة من نفس الوزن والقافية[١].

النص :

إن الذي سمكَ السماءَ بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعزُّ وأطولُ[٢]
بيتا بناه لنا المليكُ وما بنى ... حَكَمُ السماءِ فإنه لا يُنقَلُ[٣]
بيتا زُرارةُ مُحتَبٍ بفنائه ... ومجاشعٌ وأبو الفوارس نهشلُ[٤]
الأكثرون إذا يُعَدُّ حصاهُمُ ... والأكرمون إذا يُعدُّ الأولُ[٥]
لا يُحتبى بفناء بيتك مثلُهمْ ... أبدا إذا عُدَّ الفَعال الأفضل
حُللُ الملوكِ لباسُنا في أرضنا ... والسابغاتُ لدى الوغى نتسربل[٦]
أحلامُنا تزنُ الجبالَ رزانةً ... وتخالُنا جنّا إذا ما نجهل[٧]
إنّا لنَضربُ رأسَ كلّ قبيلةٍ ... وأبوك خلفَ أتانه يتقمَّلُ
ضربتْ عليكَ العنكبوتُ بنسجها ... وقضى عليك به الكتابُ المُنزلُ
وشُغلت عن حَسَبِ الكرامِ وما بنوا ... إن اللئيمَ عن المكارمِ يُشغلُ

(١) ديوان الفرزدق، تحقيق علي فاعور، ص ٤٨٩ .
(٢) سمك السماء: رفعها. دعائمه: أعمدته. بيتا: شرفا ونسبا.
(٣) المليك: الله.
(٤) احتبى: جلس راكزا ساقيه أمامه.
(٥) حصاهم: عددهم.
(٦) السابغات : الدروع.
(٧) احلامنا: عقولنا. نجهل: نسفه ونتقم.

المضمون :

أ - فخر الفرزدق بقبيلته :

- إن الله الذي رفع السماء هو الذي بنى مجد قومي؛ وهو مجد قوي الدعائم، عالي البناء. وهذا الشرف بناه الله، فلا أحد يزحزحه.

- إن بيت قبيلتي يجلس فيه أجدادي الكرام مجاشع ونهشل وزرارة الذين هم أكثر الناس عدداً وأعظمهم كرماً. أما قبيلتك يا جرير فليس فيها أبطال كهؤلاء إذا تذاكر الناس المعروف والفضائل.

إننا في السلم نلبس حلل الملوك، وفي الحرب نتسربل الدروع السابغة. ثم إننا في حالة حلمنا نكون كالجبال الراسية، أما حين نثور ونجهل فإننا نتحول جناً.

ب - هجاء جرير وقبيلته :

- إن أباك خَلْفَ حماره يلتقط القمل، وفي وقت نضرب فيه الأبطال ورؤوس القبائل.

- إن قبيلتكم ذات مجد أوهن من بيت العنكبوت.

- إنك مشغول عن بناء المجد، لأن اللئيم يكون دوما مشغولا عن بناء الفضائل.

الطبائع الفنية :

- **اللفظة المفردة :** جاءت بعيدة عن التقعر والوعورة، مع أن الفرزدق معروف بخشونة ألفاظه ووعورتها. وهي ألفاظ فخرية وهجائية وفقا للموضوع الذي يتصدى له. ويتأثر أحياناً بألفاظ القرآن ومعانيه، فالبيت الأول من قوله تعالى : ﴿أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها﴾[1] والبيت التاسع أراد به قول الله تعالى: ﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾[2].

(١) سورة النازعات، الآيتان ٢٧ و٢٨ .

(٢) سورة العنكبوت، من الآية ٤١ .

- العبارة: وقد تردد فيها على الصيغ التالية :

- أفعل التفضيل : أعز وأفضل، الأكثرون والأكرمون، الفعال الأفضل.

- تكرار بعض الألفاظ: وبخاصة لفظة "بيتا" ليؤكد قوة قبيلته ومناعتها.

- النعوت غير المباشرة المستخلصة من جمل اسمية أو فعلية، من ذلك: دعائمه أعز وأطول، أبوك خلف أتانه يتقمل . . .

وخلاصة القول فإن شعر الفرزدق يتّسم بالخصائص الآتية :

١ - لا يُشقُّ له غبار في الفخر؛ لأنه ينتمي إلى ذروة النسب في بني تميم، من مجاشع بن دارم.

٢ - برع في الهجاء الاجتماعي، ولكنه أقل حظاً في الهجاء الشخصي، ونلاحظ أنه لم يهجُ جريراً إلا بلؤم أهله.

٣ - ألفاظه عموماً خشنة ووعرة، وهي خشونة ناتجة من بداوته؛ ولذلك فضّله علماء اللغة على جرير، واتخذوا شعره مصدراً من مصادر اللغة.

التقويم الذاتي :

السؤال الأول : ما الصفات التي افتخر بها الفرزدق ؟

السؤال الثاني : ما الصفات التي هجا بها جريراً ؟

السؤال الثالث : ما مدى تأثر الفرزدق بألفاظ الدعوة الإسلامية؟ وبم تعلل ذلك؟

السؤال الرابع : استخرج من الأبيات تراكيب يظهر فيها أثر الإسلام .

السؤال الخامس : لماذا يفضل علماء اللغة شعر الفرزدق؟

السؤال السادس : قال النقاد : جرير يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر - فما معنى هذه العبارة؟

السؤال السابع : تمسَّك الفرزدق بالوحدات الثلاث لفن النقائض، وهي: وحدة الموضوع، ونقض معنى الخصم معنى معنى، ووحدة الوزن والقافية وحركة الروي. فهل ظهرت هذه الوحدات في هذه النقيضة؟ وضّح ذلك.

٢ – اقرأ هذه الأبيات التي ردَّ فيها الفرزدق على جرير ونقض بها قصيدته ثم أجب عن الأسئلة التي تليها [١] :

ومنَّا الذّي أحْيا الوئيدَ وغالبٌ ... وعَمْروٌ، ومنّا حاجِبٌ والأقارعُ [٢]
أولئكَ آبائي فَجئني بِمثلِهِمْ ... إذا جمعَتْنا يا جريرُ المجامعُ
بِهمْ أعتلي ما حَمَّلتني مُجاشِعٌ ... وأصرعُ أقراني الذين أصارعْ
فيا عجبي حتى كُلَيْبٌ تَسُبُّني ... كأنّ أباها نَهشَلٌ أو مُجاشِع
فإنّكَ إلا ما اعتَصَمتَ بنهشَلٍ ... لَمستضعَفٌ يا بْنَ المَراغة ضائع
ألا تَسألون النّاسَ عنّا وعنكُمُ ... إذا عَظُمَتْ عند الأمور الصّنائع؟!
أتعدِلُ أحساباً لِئاماً أدقَّةً ... بأحسابنا؟! إنّي إلى الله راجع
وكُنّا إذا الجبّارُ صَعَّرَ خدَّهُ ... ضربناه حتى تستقيمَ الأخادعُ [٣]
إذا قيلَ: أيُّ الناس شرٌّ قبيلةً؟ ... أشارتْ كُليبٌ بالأكفِّ الأصابعُ

السؤال الأول : كيف تفسِّر – من الأبيات – أن عَينيَّة الفرزدق هذه استغنت بنفسها عن غيرها، وجرت مجرى الأمثال ؟

____

____

____

____

(١) ديوان الفرزدق، ص ٣٦٠ .

(٢) أحيا الوئيد : جده صعصعة. غالب: أبو الفرزدق. عمرو: هو عمرو بن عدس. حاجب: هو ابن زرارة. الأقارع: هما الأقرع بن حابس وأخوه فراس.

(٣) صعَّر خده: أماله تكبراً وتجبراً. الأخادع. جمع حدع، الأخدعان في العنق، عرقان.

السؤال الثاني : هل جاء الفرزدق في نقيضته هذه بالوحدات الثلاث لفن النقائض؟ دلِّلْ على ذلك.

السؤال الثالث : هل مزج الفرزدق في نقيضته الفخر والهجاء معاً؟ أشر إلى بيتين في الفخر، وآخرين في الهجاء.

السؤال الرابع : اكتب البيت المُقلد (الحولي) من هذه القصيدة.

السؤال الخامس : هل يرى الفرزدق في أبياته هذه مَنْ هم أعزُّ من قومه؛ أين ورد ذلك؟

ج - جرير (٣٠ - ١١٤هـ)

نسبه وحياته (١) :

أبو حزرة جرير بن عطية بن حذيفة الملقب بالخَطَفى، من عشيرة كليب اليربوعية التميميَّة، وُلُد بقربة أثيفية إحدى قرى الوشم باليمامة نحو سنة ٣٠هـ في خلافة عثمان < . ويروى أن أمه رأت في منامها، وهي حامل به أنها ولدت حبلاً يلتف على أوساط الناس فيقطعها، فلما ولدته سمته جريراً.

وقد نشأ باليمامة بنجد - حيث كانت تقيم قبيلته - نشأة فقيرة يرعى الغنم. وكان أبوه فقيرا بخيلاً، وقومه بنو كليب من البطون الضعيفة في تميم.

تفتَّحت موهبته الشعرية مبكرة، وقد وجد في جده الخطفى خير من يلقنه الشعر. بدأ ينظم الشعر رجزاً، ثم أخذ يهجو خصومه من أمثال الفرزدق وغسان السليطي. ثم مدح يزيد بن معاوية بقصيدة نال عليها أول جائزة يحرزها، ومدح الحجاج وبشر بن مروان. ولقي لدى الحجاج حظوة كبرى، وطارت مدائحه فيه.

ساعده الحجاج في الوصول إلى عبدالملك بن مروان. ولما مثل بين يديه أنشده قصيدته التي يقول فيها :

ألستُم خيرَ من ركبَ المطايا　　　وأندى العالمينَ بطونَ راح

واتصل بالوليد ونال الحظوة لديه، ولكنه لم يتصل بسليمان إلا قليلا، وفي آخر عهد الوليد مات الحجاج ففقد جرير بموته ركنا كان يعتمد عليه في العراق.

وعندما بويع عمر بن عبدالعزيز بالخلافة مدحه جرير ونال جوائزه، مع أن عمر لم يكن يجزل المكافأة للشعراء، وكأنه قرَّبه لما عرف فيه من عفته وحسن دينه. ولما توفي عمر رثاه جرير، إذ يقول (٢) :

---

(١) انظر ترجمته في: الشعر والشعراء، ص ٣٠٤، والأغاني، ج٧، ص ٣٨، وجمهرة أنساب العرب، ص ٢٢٥، ووفيات الأعيان، ١/ ٢٨٦ .

(٢) ديوان جرير، طبعة الصاوي، ص ٣٠٤ .

تنعى النعاةُ أميرَ المؤمنين لنا   يا خيرَ من حجَّ بيتَ الله واعتمرا
حُمِّلتَ أمرا عظيما فاصطبرت له   وقُمت فيه بأمر الله يا عُمرا

ولما تولى الخلافة يزيد بن عبدالملك مدحه الشاعر كما مدح هشام بن عبدالملك.

وكانت وفاة جرير باليمامة سنة ١١٤هـ، بعد وفاة الفرزدق بستة أشهر، وقيل بأربعين يوماً.

أغراضه الشعرية :

١ - **المدح** : جرير في مدائحه لبني أمية وولاتهم وعمالهم متكسب يجاهر بطلب العطاء. قال في مدح عبدالملك:

أغثني، يا فداك أبي وأمي   بسيبٍ منك، إنك ذو ارتياح[1]
سأشكر إن رددت علي ريشي   وأنبتَّ القوادمَ من جناحي[2]

فهو يريق ماء الوجه في غير استحياء، ويقف كالمتسول، ومن ثمَّ يتضاءل ظله فلا يفخر ولا يهجو. ولكنه كان ينتزع إعجاب الممدوح، فقد أعجب عبدالملك بجرير، إعجاباً شديداً فأعطاه مائة من الإبل وثمانية من الرعاة ومحلبا من فضة.

٢ - **الهجاء** : كان جرير ذا مقدرة على التهكم والسخرية، فهو يجعل المهجو من المضحكات، ويصوره تصويراً كاريكاتوريا فهو على حد تعبير مارون عبود - أدرى الناس بفحص الدمن، وتحليلها واكتشاف مضامينها، ووصف ما بها[3].

يقوم أسلوبه على شدة الإيلام واللذع، فيتتبع حياة المهجو وحياة ذويه، وتعداد

---

(١) سيب: عطاء. ارتياح: كرم.
(٢) القوادم: الريش الكبير في الجناح.
(٣) انظر: حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، ص ٢٩٨.

نقائضه والكشف عن عوراته واحدة فواحدة، ذاكراً تفاصيلها، فقد انتهز في الفرزدق فُسوقه، وفي الأخطل نصرانيته.

ومن أشهر قصائده الهجائية بائيته المعروفة بالدامغة؛ لأنها دمغت خصمه وقضت عليه قضاء سريعا، وقد هجا بها راعي الإبل وقومه بني نمير ومطلعها:

أقلّي اللوم، عاذلَ والعتابا   وقُولي: إن أصبتُ: لقد أصابا[1]

يقول صاحب الأغاني نقلاً عن الأصمعي إنه كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعراً، ويقول في موضع آخر إنه كان يهاجمه ثمانون شاعرا غلبهم جميعا. ولم يثبت له سوى الفرزدق والأخطل. ومن أبياته الساخرة:

زعمَ الفرزدقُ أنْ سيقتلُ مِربعاً   أبشرْ بطولِ سلامةٍ يا مِربعُ[2]

٣ - الفخر: جعل من الفخر وسيلة لتذليل خصمه. وهو يفخر بنفسه وشاعريته وقومه وإسلاميته، لكنه لم يستطع أن يجعل فخره بآبائه موازياً لفخر الفرزدق، وذلك لأن قبيلته لم تكن ذات مآثر وأمجاد، فكان يفخر بقومه، وله في ذلك البيت الشهير:

إذا غضبت عليك بنو تميم   حسبت الناسَ كلَّهم غِضابا

ويفخر على جميع الشعراء بقوة شاعريته، وبتغلبه عليهم، فيقول:

أعد الله للشعراء مني   صواعق يخضعون لها الرقابا[3]

وإذا هجا الأخطل فخر بإسلامه ومضريته:

إن الذي حرم المكارم تغلبا   جعل الخلافة والنبوة فينا

---

(١) عاذل: أصلها عاذلة، حذفت التاء للترخيم. والعاذل والعاذلة: من يلوم المحب على حبه.

(٢) مربع: راوية لشعر جرير، اسمه وعوعة بن سعيد، وهو الذي هدده الفرزدق بالقتل.

(٣) صواعق: قصائد شديدة الوقع كالصاعقة التي إن أصابت شيئا حطمته وأودت به.

وكان يفخر على الفرزدق ببعض أيام كانت لبني يربوع قومه، كما أعين عليه بأيام خذل فيها بنو دارم قوم الفرزدق.

٤ - **الرثاء**: كان رثاء جرير عاطفياً رقيقاً يؤثر في القلب، إذ انطوت نفسه على حزن عميق، صفّى جوهرها، وزاد هذا الصفاء تأثره بالإسلام.

وتُعدُّ مرثيته في زوجه أم حزرة[١] من أروع مراثيه إذ يقول[٢] :

لـولا الحياءُ لـهاجني استعبارُ ولـزرتُ قبـرَكِ والحبيبُ يـزارُ
ولَـهتِ قـلبي إذ علـتني كَبـرَةٌ وذوو التمـائمِ مـن بنيكِ صغـارُ
ولقـد أراكِ كُسيتِ أجملَ منظرٍ ومـع الجمـالِ سكينـةٌ ووقـارُ
صـلّى الملائكـةُ الـذين تُخيِّروا والصـالحون عـليكِ والأبـرارُ

ولكنه لم يكن موفقاً حين هجا الفرزدق في نهاية هذه القصيدة، مما حمل الفرزدق على أن يرد عليه بنقيضة مقذعة هجا بها الزوجة المتوفاة.

ورثى الفرزدق وحاول أن يقول فيه كلمة حلوة بعدما قال فيه كلماته المرة سنين طويلة، ومما قال :

لِتبكِ عليه الإنسُ والجنُّ إذ ثوى فتى مُضَرٍ في كل غرب ومشرق
فتى عاش يبني المجد تسعين حِجَّةً وكان إلى الخيرات والمجد يرتقي

٥ - **الغزل**: لم يكن غزل جرير فناً مستقلاً في شعره، ولم يخرج فيه عن القديم، ولكنه مزج في غزله بين أسلوب الجاهليين وأسلوب العذريين.

---

(١) كانت علاقة جرير بزوجاته: أم حزرة وأمامة وأم حكيم، كانت علاقة ود ومحبة. وقد اتخذهن موضوعا لغزله الرقيق.

(٢) انظر: ديوان جرير (الصاوي)، ص ١٩٩ .

وأتاح له صفاء نفسه وانطواؤها على الحزن أن يبلغ من هذا الغزل كل ما يريد من تصوير الحب الخالص الطاهر، على شاكلة قوله[1] :

لقد كتمت الهوى حتى تهيَّمني ... لا أستطيع لهذا الحُبِّ كِتمانا

إن العيونَ التي في طرفها حَوَرٌ ... قتلننا ثم لم يُحيين قتلانا

يَصرعن ذا اللُّب حتى لا حَراك به ... وهُنَّ أضعفُ خلق الله أركانا

وهكذا كان غزل جرير غزل العاطفة الصادقة التي تتألم وتتنفس في تعبير دقيق لين، يزخر بالألفاظ الموسيقية العذبة. وهو غزل يخلو من البذاءة والقصص الغرامي الفاحش. وكان عمر بن عبدالعزيز يعجب بقوله :

طرقتك صائدةُ القلوب وليس ... ذا وقتَ الزيارةِ فارجعي بسلامِ

خصائص جرير الفنية :

تميَّز شعر جرير بصفات جعلت الجمهور يحب شعره ويفضله على منافسيه وأهمها :

- ألفاظ جرير سهلة نسبياً، فيها رقة، وعذوبة، وحلاوة موسيقى. وفيها غزارة وسلاسة جعلت النقاد يقولون : جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر.
- معاني جرير واضحة سهلة المآخذ.
- وضوح أثر الإسلام والقرآن في ألفاظه ومعانيه.
- هجاء جرير يبعث الضحك لما فيه من تصوير ساخر.
- صوره وأخيلته بدوية.

والحق أن جريراً يتمتع بنفس شعري خَصْب، يعجب النقاد، فقالوا إنه نظم أحسن بيت في الغزل، وفي المدح، وفي الهجاء، وفي الفخر. وهذه أحكام عامة بعيدة عن النقد الصحيح.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٩٥

المتخيَّر من شعره:

١ - القصيدة الدامغة [1] :

أقلّي اللومَ عاذلَ والعِتابا ... وقُولي إن أصبتُ لقد أصابا[2]
ووَجْدٍ قد طويتُ يكاد منه ... ضميرُ القلب يلتهبُ التهابا[3]
سألناها الشفاء فما شفتنا ... ومنّتنا المواعِد الخِلابا[4]
أبى ليَ ما مَضى لي في تميم ... وفي فرعَيْ خُزيمة أن أُعابا[5]
ستعلمُ من يصيرُ أبوه قَيْنا ... ومن عُرِفت قصائدُه اجتلابا[6]
فلا وأبيكَ ما لاقيتَ حيا ... كيربوعٍ إذا رَفعوا العُقابا[7]
وما وجدَ الملوكُ أعزَّ منا ... وأسرعَ من فوارسِنا استِلابا
ألا قبحَ الإلهُ بني عقال ... وزادَهُمُ بغدرهمِ ارتيابا[8]
لقد خُزي الفرزدقُ في مَعَدٍّ ... فأمسى جَهْدُ نُصرته اغتيابا[9]
فما هِبتُ الفرزدقَ قد علمتُمْ ... وما حقُّ ابن بَرْوعَ أن يُهابا[10]
أعدَّ الله للشعراء مني ... صواعقَ يُخضعون لها الرّقابا[11]

---

(١) ديوان جرير، الجزء الثاني، ص ٨١٣ - ٨٢٥ .
(٢) عاذل : أصلها عاذلة، وهي من تلوم المحب على حبه.
(٣) الوجد: المرض من شدة الشوق إلى الحبيب.
(٤) الخلاب: الكلام اللطيف الذي ينطوي على خداع.
(٥) فرعا خزيمة: هما بنو أسد وبنو كنانة.
(٦) القين: العبد الرقيق.
(٧) يربوع: جد من أجداد الفرزدق. العقاب: الراية التي تحملها القبيلة في حربها.
(٨) بنو عقال: قوم الفرزدق.
(٩) معد: مجموعة من القبائل العدنانية، ومنها قريش.
(١٠) ابن بروع: هو الراعي النميري، وبروع اسم أمه.
(١١) صواعق : قصائد شديدة الوقع كالصاعقة.

قرنتُ العبدَ عبدَ بني نُمير   مع القَينين إذ غُلبا وخابا[1]
أنا البازي المُدِلّ على نُمير   أُتحت من السماء لها انصبابا[2]
إذا علقت مخالبهُ بِقرنٍ   أصاب القلبَ أو هتكَ الحِجابا[3]
فلا صلّى الإلهُ على نُمير   ولا سُقيت قبورهمُ السّحابا[4]
ولو وُزنت حُلوم بني نميرٍ   على الميزان ما وَزَنَتْ ذُبابا
فصبراً يا تيوسَ بني نُمير   فإنّ الحربَ مُوقدةٌ شِهابا
فغُضّ الطّرفَ إنك من نُمير   فلا كعباً بَلغْتَ ولا كِلابا
إذا غَضبت عليك بنو تميم   حسبتَ الناسَ كلّهم غِضابا

جو النص :

كان الهجاء مشتدا بين جرير والفرزدق، وكان للفرزدق صديق من بني نمير اسمه عرادة النميري، استطاع أن يستميل نسيبه الشاعر عبيد بن حصين المعروف براعي الإبل، ويقنعه بتفضيل الفرزدق على جرير، فقال :

يا صاحبيَّ دنا الرواح فسيرا   غلب الفرزدق في الهجاء جريرا

وثار جرير على الراعي، وغاظه أن ينضم إلى الفرزدق، مع أنه يقف في المربد مدافعا عن قومه (وهم من قيس) مادحا لهم أمام مناظرات الفرزدق ونقائضه، فقال فيه وفي الفرزدق بائيته المشهورة وكان يسميها الدماغة والمنصورة، وسماها الناس الفاضحة.

---

(١) عبد بني نمير: الشاعر المعروف براعي الإبل وهو من بني نمير. أما القينان الآخران فهما الفرزدق والأخطل. وكان الثلاثة يهجون جريرا، وقيل بل هما البعيث والفرزدق.

(٢) البازي : من كواسر الطير يستخدم في صيد الطير والأرانب. المدل على نمير. صاحب دالة وسلطة عليهم.

(٣) القرن: الخصم في القتال.

(٤) ولا سقيت قبورهم السحابا: دعاء على بني نمير يراد منه ألا تحل بهم رحمة الله.

وكان لها وقع مؤلم على بني نمير، إذ خفضت من شأنهم بين القبائل، ووصمتهم بالعار حتى صار الواحد منهم ينتسب إلى غير قبيلته.

المضمون :

تنتمي هذه القصيدة إلى فنون أدبية ثلاثة، على الأقل، طغا عليها الهجاء، في بعض جوانبها. فهناك فن الغزل وفن الفخر وفن الهجاء، وإذا كان الأول قد ورد كمقدمة، فإن الفنين الآخرين جاءا متلازمين متداخلين.

تُعدُّ القصيدة من مطولات جرير، وهي بائية من بحر الوافر تقع في ١١٤ بيتاً.

استهلها الشاعر بمقدمة غزلية بعد تمهيد يخاطب فيه عاذلة موهومة، لا تزال تردعه عما هو مقيم عليه. ويباشر الغزل بوصف ما يكابده من نار العذاب، فصاحبته لا تواصله، بل إنها تواعده وتخلف الوعد. ثم يفخر بمآثره العديدة في بني قومه ويهجو الفرزدق بجده القين، واستلاب قصائده من الآخرين، ويعود إلى التفاخر بجده العالي القباب. فقومه يتصدون للملوك بخيلهم السريعة وفرسانهم الذين ألفوا سلب الأعداء، وكما فخر ببني قومه، فإنه يهجو قوم الفرزدق بالغدر والريبة ليعود إلى التنديد بخصمه الفرزدق في خزيه بين القبائل واغتيابه للناس، ويفخر بشجاعته، فهو ينقض على الشعراء بقصائده الصاعقة، وينحدر على بني نمير كالبازي فيجعلهم أشلاء. ويلعن النميريين أحياء وأمواتاً، ويستخف بعقولهم ويصفهم بالحماقة، ومن ثمة، بالعار. وينهي القصيدة ببيت مأثور في الفخر.

التقويم الذاتي :

السؤال الأول : أُطلق على هذه النقيضة الدامغة. فبمَ تعلل ذلك ؟

السؤال الثاني : ما الألقاب الأخرى التي أُطلقت عليها ؟

السؤال الثالث : ما مناسبة هذه النقيضة؟

السؤال الرابع : بمَ يهجو الفرزدق وقومه ؟

السؤال الخامس : بمَ يدعو على بني نمير؟ وبمَ وصفهم ؟

السؤال السادس : ما أهجى بيت في القصيدة؟

السؤال السابع : ما أفخر بيت فيها؟

السؤال الث[illegible] : استخرج من النص ما يأتي :

أ - صيغتي أمر.

ب - صيغة قسم.

ج - أسلوب تفضيل.

د - جناسا.

هـ - حرف استفتاح.

و - تشبيها وبين نوعه.

ز - استعارة وبين نوعها.

السؤال التاسع : بيّن دلالة كل من العبارات الآتية :

أ - يكاد منه ضمير القلب يلتهب التهابا.

____

ب - إذا رفعوا العقابا.

____

ج - أعدّ الله للشعراء مني صواعق.

____

د - ولا سقيت قبورهم السحابا.

____

هـ - ما وزنت ذبابا.

____

السؤال العاشر :

أ - كيف جاءت ألفاظ القصيدة ؟

____

ب - حدّد الألفاظ التي توسّل بها إلى كلٍّ من :

(١) الغزل : ______________________

(٢) الفخر : ______________________

(٣) الهجاء : ______________________

٢ - قال جرير مادحاً عبدالملك بن مروان [١] :

أتصحو أم فؤادك غيرُ صاحِ ... عشيَّةَ هَمَّ صحبُكَ بالرَّواحِ
تقول العاذلاتُ علاكَ شيبٌ ... أهذا الشيبُ يمنعني مِراحي
يُكلِّفني فؤادي من هواهُ ... ظعائنَ يجتزعْنَ على رُماحِ
عِرابا لم يَدِنَّ مع النصارى ... ولا يدرينَ ما سمكُ القُراحِ

* * *

تعزَّت أمُّ حزرة ثم قالتْ ... رأيتُ الواردين ذوي امتناحِ
تُعلِّلُ وهي ساغبةٌ بنيها ... بأنفاسٍ من الشَّبِم القراحِ
سأمتاح البحور فجنبِّيني ... أذاة اللوم وانتظري امتياحي
ثقي بالله ليس له شريكٌ ... ومِن عندِ الخليفةِ بالنجاحِ

* * *

أغثني يا فداك أبي وأمي ... بسيب منكَ إنك ذو ارتياحِ
سأشكر إن رددْتَ عليَّ ريشي ... وأنبتَّ القوادم من جناحي
ألستم خيرَ من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطونَ راحِ

اقرأ النص السابق، ثم أجب عن الأسئلة الآتية :

السؤال الأول : مَن المخاطب في البيت الأول ؟

السؤال الثاني : في البيت الأول تجريد، فما المقصود بالتجريد ؟ وضحه.

---

(١) انظر : ديوان جرير، الجزء الأول، ص ٨٧ - ٩٠ .
(٢) الساغبة : الجائعة. والنَّفَس من الماء : ما كان مُرويا كافيا. والشبم : البارد.

السؤال الثالث : بمَ بدأ جرير قصيدته ؟

السؤال الرابع : يُقال إن عبدالملك انتقد مطلع هذه القصيدة، بقوله لجرير : "بل فؤادك أنت . . . "، فبم تعلل ذلك ؟

السؤال الخامس : هل كان جرير موفقاً في البيتين التاسع والعاشر؟ وضّح ذلك.

السؤال السادس : ما البلدتان اللتان ذكرهما الشاعر؟ وأين تقعان؟

السؤال السابع : ما البيت الذي أثار إعجاب الخليفة؟

السؤال الثامن : بمَ وصف النساء في البيتين الثالث والرابع؟

السؤال التاسع : استخرج من النص :

أ - كناية عن موصوف.

ب - كناية عن صفة.

ج - استفهاماً يفيد النفي.

د - استفهاماً يفيد التقرير.

هـ - استفهاماً يفيد التحسّر والحيرة.

السؤال العاشر : ما الصورة التي صوّر بها زوجته أم حزرة؟

السؤال الحادي عشر : ارسم دائرة حول رمز الإجابة الصحيحة :

(١) عشية همَّ صحبك بالرَّواح، الرَّواح هو :

أ - الرحيل. ب - الذهاب.

ج - الرجوع. د - المغادرة.

(٢) تقول العاذلات علاك شيب، العاذلات هُنَّ :

أ - العاشقات. ب - الحاسدات.

ج - اللائمات. د - الفاتنات.

(٣) ظعائن يجتزعن على رماح، يجتزعن تعني :

أ - لا يمررن. ب - يجزعن.

ج - يحزنَّ. د - يتوجَّهن.

(٤) عرابا لم يدنَّ مع النصارى، مفرد عِراب هو :

أ - عربية. ب - عروب.

ج - عريب. د - عاربة.

(٥) وقعت هذه الأبيات من عبدالملك بن مروان موقعا :

أ - سيئاً. ب - حسناً.

ج - فاتراً. د - جميع ما ذُكر.

٣ - اقرأ هذه الأبيات التي ردّ فيها جرير على الفرزدق ونقض بها قصيدته[1]، ثم اجب عن الأسئلة التي تليها.

أعددْت للشعراء سُمّاً ناقعا فسقيتُ آخرهم بكأس الأول
لما وضعتُ على الفرزدق مِيسَمي وضغا البعيثُ جدعتُ أنف الأخطلِ
أخزى الذي سمكَ السماءَ مُجاشعا وبنى بناءك في الحضيض الأسفلِ
إني انصببتُ من السماءِ عليكمُ حتى اختطفتكَ يا فرزدقُ من عَلِ
أحلامنا تزنُ الجبالَ رزانةً ويفوقُ جاهلنا فَعال الجُهَّلِ
ولقد بنيتَ أخسَّ بيت يُبتنى فهدمتُ بيتكمُ بمِثلَيْ يَذْبُلِ
إنَّ الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا عزّاً علاكَ فما له من مَنْقلِ

السؤال الأول : علل ما يأتي :

أ - كان جرير يفتخر بتميم.

____

ب - يظهر ضعف جرير في الفخر.

____

ج - أُولع الناس بهجاء جرير.

____

السؤال الثاني : وازن بين قول الفرزدق :

أحلامنا تزن الجبال رزانةً وتخالنا جنّاً إذا ما نجهلُ

(١) انظر : نقائض جرير والفرزدق، ص ٤٣٠ .

وقول جرير :

أحـلامـنـا تـزن الجـبـال رزانـةً ويـفـوق جـاهـلـنـا فَـعـال الجُـهَّـلِ

السؤال الثالث : لماذا أولع العامّة بشعر جرير، وخاصّةُ العلماء بشعر الفرزدق ؟

السؤال الرابع : هل جاء جرير في نقيضته هذه بالوحدات الثلاث لفن النقائض؟ دلّل على ذلك.

السؤال الخامس : هل مزج جرير في نقيضته الفخر والهجاء معاً؟ وضح ذلك.

السؤال السادس : استخرج من النص :

أ - خبراً لناسخ وبيّن نوعه.

ب - اسم تفضيل.

ج - محسنا بديعا، وبيّن نوعه.

السؤال السابع : اذكر اسماء الشعراء الذين وردوا في النص.

الفصل الرابع

شعر الغزل

نشأة الغزل في العصر الأموي :

نعني بالغزل هنا ما استقل بذاته ولم يأت وسيلة للكلام على غيره من أغراض الشعر المعهودة في الجاهلية، وأصبحت بعد عهد الجاهلية تقليداً يجري عليه الشعراء في افتتاح القصائد المدحية وغيرها.

وهذا الغزل الجديد لا نجده إلا نادرا في الشام والعراق بل في الحجاز؛ إذ انتقلت الخلافة إلى بني أمية وأصبحت دمشق عاصمة الدولة الأموية، ثم تدفقت أموال الفتوح والرقيق الأجنبي على مكة والمدينة، وصُرِف أهلهما عن السياسة إلى اللهو والغناء، وفي كتاب الأغاني أخبار كثيرة تصوِّر كلف سكان المدينتين بذلك وأنه أصبح شغلهم الشاغل [(١)].

وانقسم الغزل الجديد إلى قسمين :

- **الغزل الصريح:** وفيه يتغنَّى الشاعر بالحب وصوره الحسية، وينصرف إلى الوصف القصصي الواقعي من غير ما خجل ولا حياء، وأشهر أصحابه عمر ابن أبي ربيعة (ت ٩٣هـ) والأحوص [(٢)] (ت ١٠٥هـ) والعرجي (ت ١٢٠هـ)[(٣)] .

---

(١) انظر : شوقي ضيف، الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، ص ٩٤، ٢٢٧ .

(٢) عبدالله بن محمد الأوسي، من أهل المدينة، مال إلى الهجاء والغزل الفاحش، وجده عاصم بن ثابت.

(٣) هو عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان، لقب هذا اللقب لضيعة بالطائف تسمى العرج.

وقد انتشر هذا الغزل في الحاضرة حيث المال والثروة والفراغ، ومن ثم اللهو، ساعدهم على ذلك كثرة الرقيق وانتشار الغناء.

■ **الغزل العذري :** وهو غزل عفيف، نسب إلى بني عذرة إحدى قبائل قضاعة التي كانت تنزل في وادي القرى شمالي الحجاز، وشاع في بوادي نجد والحجاز، حيث اجتمع الحرمان والفقر وكانت نتيجة ذلك نغمة زهد أو ميل إلى المثل العليا. وكان هذا الميل دينيا من جهة وغزلا عفيفا من جهة أخرى وأشهر أصحابه: جميل بن معمر صاحب بثينة، وتوبة بن الحُميِّر عاشق ليلى الأخيلية، وقيس بن الملوح صاحب ليلى، وقيس بن ذَريح صاحب لبنى.

ميزات الغزل الجديد :

١ – الاستقلال : أصبح الغزل قصيدة مستقلة قائمة بنفسها، وكان يُتَّخذ وسيلة إلى غرض الشاعر من قصيدته.

٢ – المعنوية : أصبح معنويا أكثر من النسب القديم، وهو إن لم يبرأ من المادة ووصف الخارج المحسوس فقد تميز بالتوقف عند الحب وما يترك في القلب من أثر، وما يبعث في النفس من عاطفة كالحزن، والأمل، والرجاء، (وهذا لا يعني أن الغزل كله كان عفيفا).

٣ – الموسيقى واللغة : أحدث الغناء تجديداً وتغييراً في موسيقى الشعر الجديد فأصبح أكثر صفاء من موسيقى الشعر القديم، وأصبحت لغته أكثر قرباً إلى الناس من لغة الشعر القديم. ومال الشعراء إلى الأوزان الخفيفة من مثل الوافر، والخفيف، والرمل، والهزج، ومالوا إلى مجزوءات الأوزان الطويلة من مثل الكامل، والبسيط، والرجز.

٤ – بعض ميزات خاصة بالغزل العذري :

- يمتاز بالبداوة التي تكسب لفظه رصانة في غير عنف، وتكسب معناه سذاجة في غير سخف ولا إسفاف.

- يمتاز بالصدق في وصف العاطفة وتمثيلها، وبحرارة الانفعال.

- لا نجد في هذا الشعر شخصيات متمايزة بين أصحابه، فاختلط أمرهم على الرواة، وكذلك شعرهم، فضلاً عن كثرة التواطؤ في هذا الشعر، على المعاني الواحدة، والألفاظ الواحدة، والأسلوب الواحد.

- يتغنى الشاعر العذري بمحبوبة واحدة، لا يتّسع قلبه لسواها.

- تكثر فيه الشكوى من الفراق، وتشيع فيه رومانسية حالمة حزينة شاكية.

- يتصف بالعفة والطُّهر؛ لا سلطان فيه لشهوات الجسد ونوازع الغريزة.

أ - عمر بن أبي ربيعة (٢٣ - ٩٣هـ)

حياته :

١ - مولده ونشأته :

هو عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة وكان يكنى بأبي الخطاب، من بني مخزوم، ومخزوم من أمنع بيوت قريش وأعظمها جاها وثروة في الجاهلية والإسلام.

ولد ليلة استشهاد عمر بن الخطاب < ، سنة ٢٣هـ، وقيل في ذلك: أي حق رُفع وأي باطل وضع. وكان أبوه ذا تجارة واسعة، استعمله الرسول ﷺ عاملاً على ولاية الجند في اليمن، ولم يزل واليا عليها، حتى توفي في أثناء حصار عثمان < سنة ٣٥هـ، إذ سقط عن راحلته قرب مكة.

وكانت أمه سبية يمنية اسمها مجد، قامت على تربيته، سواء في حياة أبيه أو بعد مماته، مما كان له أثر عميق في نفسيته، إذ نشأ مدللاً، وكان جميلاً فأولعت به، وبالغت في الاعتناء به، وقيل: إن أمه كانت نصرانية. ولقد تزوج عمر من بضع نساء، وكانت كلثم بنت سعد المخزومية إحدى هاته النساء، ولها من عمر ولدان أحدهما اسمه جوان والثاني لا نعرف عنه شيئاً، أما جوان فقد نشأ نشأة صالحة وعرف بحسن السيرة، ومن البنات كان لعمر بنت يقال لها (أمة الواحد) وفيها يقول وقد خرج يطلبها، فضل الطريق :

لم تدرِ وليغفر لها ربُّها ... ما جشّمتنا أَمَةُ الواحدِ

ويرى شوقي ضيف أن عمر شاعر مكي، وليس من أهل المدينة كما ذكر جبرائيل جبور في كتابه "عمر بن أبي ربيعة : حياته وشعره"[1].

٢ - الشباب اللاهي :

نشأ عمر - كما مر بنا أنفاً - على الترف وحوله الجواري والأرقاء، يوفرون له

---

(١) انظر : شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص ٣٥٠ .

أسباب اللهو. وكان المغنون والمغنيات من أهل مكة مثل ابن مسجح وابن سريج والغريض، يلزمونه ويغنون أشعاره. وسرعان ما يطير غزله إلى المدينة فإذا مغنوها ومغنياتها من مثل معبد وجميلة يغنونه في شعره.

وأحبُّ الأيام لديه موسم الحج حيث كان يتزين بأحسن الثياب، ويتعطر، ثم يتصدى لكل فتاة جميلة بمكة، وخاصة الثريا بنت علي الأموية، فنسمعه يقول :

يقصدُ الناس للطواف احتسابا وذُنوبي مجموعة في الطّوافِ

وينزل المدينة فيتصدى للقرشيات الجميلات بها من مثل سكينة بنت الحسين وزينب الجمحية، ومن ثم يصف ترفهن وما كن فيه من نعيم، كقوله :

يرفُلنَ في مُطرَفَاتِ السُّوس آونةً وفي العتيق من الدِّيباج والقَصَبِ[1]

ترى عليهن حَلْيَ الدُّرِّ متّسقا مع الزبرجد والياقوت كالشُّهبِ

قال الهيثم بن عدي : قدمت امرأة مكة وكانت من أجمل النساء، فبينما عمر ابن أبي ربيعة يطوف، إذ نظر إليها فوقعت في قلبه، فدنا منها فكلمها، فلم تلتفت إليه. فلما كان في الليلة الثانية جعل يطلبها حتى أصابها، فقالت له: إليك عني يا هذا، فإنك في حرم الله وفي أيام عظيمة الحرمة، فألح عليها يكلمها حتى خافت أن يشهرها.

فلما كان في الليلة الأخرى قالت لأخيها: اخرج معي يا أخي فأرني المناسك، فإني لست أعرفها، فاقبلت وهو معها، فلما رآها عمر أراد أن يعرض لها، فنظر إلى أخيها معها فعدل عنها، فتمثلت المرأة بقول النابغة :

تعدو الذئاب على من لا كلابَ له وتّتقي صولة المُستاسدِ الحامي[1]

(١) السوس: مدينة في المغرب.

توبته ووفاته :

انقطع عمر في أواخر حياته عن اللهو والطيش، ونسك، ولكن نفسه ظلت مرحة جذابة محببة إلى الناس، وله أبيات يذكر فيها إعراض النساء عنه منها :

رأين الغواني الشيبَ لاح بعارضي | فأعرضْنَ عني بالخُدودِ النّواضرِ
وكُنّ إذا أبصرنني أو سمعنني | سَعَيْنَ فرقَّعن الكُوى بالمحاجرِ

ولعل موته من أخفى ما في تاريخه، والروايات متعددة ومضطربة في ذلك. فقيل نفاه عمر بن عبدالعزيز إلى دهلك إحدى جزر البحر الأحمر، فغزا بالبحر فأحرقوا سفينته فاحترق. ولاشك أن هذا من انتحال الرواة. وأغلب الظن أنه مات من مرض في اليمن، وكان موته سنة ٧١١م/ ٩٣هـ.

عمر بن أبي ربيعة شاعر المرأة :

١ - **محلها في شعره:** للمرأة، ولا سيما الشريفة التي من طبقته، محل واسع في ديوان ابن أبي ربيعة، فقد قصر نفسه على الغزل دون غيره من فنون الشعر. وفي هذا الصدد روى صاحب الأغاني أن سليمان بن عبدالملك قال له: "ما يمنعك من مدحنا؟ فقال: إني لا أمدح الرجال، إنما أمدح النساء" [(٢)].
وفي المقابل كانت المرأة ترغب في هذا المدح فتتعرض له وكانت تغضب إذا لم يشبب بها. ويرى شوقي ضيف أن هذا الإقبال يرجع إلى عوامل منها وجود الجواري الأجنبيات في قصرها، ومنها خروج الشباب من وطنهم للغزو والجهاد[(٣)].

٢ - **موضوعات وصفه :** تناول وصف المرأة من الناحيتين الخارجية والنفسية. فعمد في الناحية الأولى إلى الأوصاف والتشبيهات التقليدية، وعمد في الناحية

---

(١) انظر: الأغاني، ١/ ٦١ وما بعدها.
(٢) انظر: المصدر نفسه، ٩/ ٢٣٩ وما بعدها.
(٣) انظر: شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص ٢٢٥ .

الثانية إلى نفسية المرأة، فمثل أخلاقها، وأساليبها في الحديث، وحركاتها في مختلف مواقفها، ولاسيما في مجالس اللهو. على أن المرأة في هذا العصر ظلت تحتفظ بحجاب من الوقار، لا تضيق فيه بما يقال فيها من غزل، وبذلك نفهم إقبالها على هذا الغزل.

فنــه :

لعمر بن أبي ربيعة ديوان ضخم يشتمل على بضعة آلاف بيت من الشعر كلها في الغزل، إلا أبياتا متفرقة في الفخر والوصف. أراد عمر بن أبي ربيعة أن يكون شعره رسالة إلى صاحباته فيها وصف، وقصص، وحوار، ومعاتبة، أو نشيداً من أناشيد الحب يغني به ابن سريج والغريض مغنيا الشاعر. وتميز فنه بما يلي :

١ - **تصوير حب المرأة له:** تحدث عمر عن نفسه وعشق المرأة له، فالنساء يُفتَنَّ به، ويتصدين له، وينتهزن كل فرصة للقائه، ويشرن له باليد حينا، وبالعين حينا، وهو في كل ذلك لا يُعنى ولا يلتفت دلالا وتيها، وإعجاباً بنفسه وبجماله. وقد عرف معاصروه ذلك، ففي أخباره أنه أنشد ابن أبي عتيق قوله :

بينما يَنْعتنني أبصرنَني دُون قيدِ الميلِ يعدو بي الأغر[1]
قالت الكبرى: أتعرفن الفتى؟ قالت الوسطى: نعم هذا عمر!
قالت الصغرى: وقد تيَّمتُها: قد عرفناه، وهل يخفى القمر؟!

فقال له ابن أبي عتيق: أنت لم تنسب بها وإنما نسبت بنفسك، كان ينبغي أن تقول: قلت لها: فقالت لي، فوضعت خدي، فوطئت عليه[2].

ونراه أحياناً يلهج بصبابته وحبه وما يذوق من وجد وألم، على نحو ما نرى في قوله :

---

(١) ينعتنني: يصفنني بما في من حسن. قيد الميل: مقداره. الأغر: من الخيل ما كان له غرة أي بياض في جبهته.

(٢) الأغاني، ١/١١٨ .

يَشهد اللهُ على حبِّي لكم ودموعي شاهد لي والحَزَنْ
قلت: يا سيدتي عذّبتني قالت: اللهم عذّبني إذنْ

وكقوله :

ليت هندا أنجزتنا ما تَعِدْ وَشَفتْ أنفسنا مما تَجِدْ
واستبدّتْ مرّةً واحدةً إنما العاجزُ من لا يستبِد
حدّثونا أنها لي نَفَثتْ عُقَداً يا حبذا تلك العُقَدْ
كلما قلت متى ميعادنا ضحكت هند وقالت بعد غد

وهي أبيات من دالية مشهورة تُعدُّ من أروع شعره، قالها في هند بنت الحارث المرية.

٢ - **تبادل الرسائل بينه وبين محبوباته:** وهو يعد أول من اتخذ هذا الأسلوب، وقد تبعه فيه العباسيون، من ذلك ما كتبه إلى الثريا :

كتبتُ إليكِ من بلدي كتابَ مُولَّهٍ كَمِدِ[1]
يُؤرقه لهيبُ الشّو قِ بين السَّحْرِ والكبِدِ[2]
فيمسكُ قلبَهُ بيدٍ ويمسحُ عينه بيدِ

٣ - **الحوار القصصي** : وهذا الحوار معروف في الأدب الجاهلي، إلا أن ابن أبي ربيعة قصد إلى ذلك قصداً وجعله قوام فنه الشعري. ونراه يعمد أحياناً إلى تصوير اقتحامه لليّل والأهوال والأحراس على بعض صواحبه على نحو ما نعرف في قصيدته الرائية في نُعم (الثريا).

---

(١) الموله : الذي اشتد عليه الحزن فذهب. الكمد: الشديد الحزن.
(٢) يؤرقه : يسهره. السحر: الرئة.

٤ - **الموسيقى الشعرية والسهولة :** الموسيقى في شعر عمر كثيرة الأنغام، تتصاعد من حسن اختيار البحور والقوافي، يقدمه للمغنين ليسهل غناؤه وتعذب نغمته؛ وكان بالقرب منه ابن سريج والغريض يساعدانه بما يترنمان به من شعره.

ومن هنا نجده يستخدم الأوزان الخفيفة من جانب، ويقصر الأوزان الطويلة من جانب آخر. فلا عجب أن يذوب شعره سهولة وليناً، ويجري على بحور متنوعة تكاد في أحيان كثيرة تشبه النثر، كقوله :

جعلتُ طريقي على بابكم ... وما كان بابُكم لي طريقا
صَرَمْتُ الأقاربَ من أجلكم ... وصافيتُ من لم يكنْ لي صديقا

وقد يخطىء قواعد اللغة أحيانا لضرورة الوزن كقوله :

من ذا يلُمني إن بكيتُ صَبابةً ... أو نُحتُ صبّاً بالفؤادِ المُنضَجِ

فقد جزم "يلمْني" لغير عامل الجزم.

أثره وإنتشار شعره :

١ - كان عمر مجدداً في كونه قصر الشعر على الغزل ونظم فيه القصائد المستقلة، ووسع نطاق القصص والحوار بحيث فاق امرأ القيس.

٢ - أجاد في تصوير عواطف المرأة وإن كان ذلك التصوير لا يسبر الأغوار العميقة، وأجاد في وصف أحوال النساء في بيوتهن.

٣ - أجاد في تليين الأوزان لتوافق الغناء الجديد.

٤ - تصوير طبقة من الناس المترفين، وإسراف المرأة في العبث، وميلها إلى الأدب، واستلطافها أن يقال فيها الشعر.

وقصارى القول فإنَّ العرب ما أقرت لقريش بالشعر إلا مع عمر؛ لأنه كان،

على ما أجمع عليه الأدباء "أغزل الشعراء، وأدخلهم شعرا فى النفس وأسحرهم للنساء"[1]، فكان شعره خطرا شديداً على العفاف، حتى قال فيه أحد الأنصار: "ما عُصِيَ الله بشيء كما عُصِيَ بشعر ابن أبي ربيعة" [2].

وعندما سمع الفرزدق شيئاً من نسيب عمر قال: "هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار، ووقع هذا عليه"[3].

ومن هذا المنطلق ذهب طه حسين إلى أن عمر بن أبي ربيعة هو "زعيم الغزلين في الأدب العربي كله على اختلاف ظروفه وتباين أطواره منذ كان الشعر العربي إلى الآن"[4].

(١) انظر: حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، ص ٢٦٣ .

(٢) انظر: المصدر نفسه .

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٥/٣٩٧ .

(٤) طه حسين، حديث الأربعاء، ٢/ ١٢٧ .

نموذج من غزل ابن أبي ربيعة

أمِن آل نُعم[1]

أمن آل نُـعـم أنـت غـادٍ فـمبُـكـر   غـداة غـد أم رائـحٌ فـمُـهَـجِّــر[2]

لحاجة نفس لـم تـقـل في جوابهـا   فـتـبـلـغ عـذرا والمـقـالـة تـعـذر[3]

تـهيـم إلـى نـعـم فلا الـشـمـل جـامـع   ولا الحبل موصول ولا القـلـب مقصر[4]

ولا قـرب نـعـم إن دنـت لـك نـافـع   ولا نـأيـهـا يـسـلـي ولا أنـت تـصـبـر

إذا زرت نـعـمـا لـم يـزل ذو قـرابـة   لـهـا، كـلـمـا لاقـيـتـهـا، يـتـنـمَّـر[5]

*   *   *

وليلة ذي دوران جشَّمتني السُّرى   وقـد يجشَـم الـهَـولَ المحبُّ المغـرر[6]

فـبتُّ رقـيـبـا لـلـرفـاق عـلـى شـفـا   أحـاذر منهم من يطوف، وأنظر[7]

فـلـما فـقـدت الصوت منهم وأُطفئت   مـصـابـيـحُ شبَّـت بالـعـشـاء وأنـور[8]

وغابَ قُـمـيـرٌ كـنـت أرجـو غـيـوبَـه   وَروَّح رُعـــيـــانٌ، ونَـــوَّم سُـــمَّـــرُ

وخُفِّضَ عني الصوتُ أقبلت مشيةَ   الحُباب وشخصي خشيةَ الحي أزورُ[9]

---

(١) قال جرير وقد سمع هذه القصيدة: "ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر"، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٥/ ٣٨٥ . وانظر هذه القصيدة وشرحها الكامل للمبرد ص ٣٨١ وما بعدها.

(٢) الغادي: السائر صباحا. الرائح: السائر مساء. المهجر: السائر ظهرا.

(٣) تعذر: تبلغ العذر.

(٤) الشمل: ما تفرق من الأمر وما اجتمع منه وهنا يقصد المعنى الأول. مقصر: ممتنع.

(٥) يتنمر: يغضب ويثور متشبهاً بالنمر.

(٦) ذو دوران: موضع. جشم: كلف. السرى: السير في الليل. المغرر: الذي يغرر بنفسه، أي يعرضها للهلاك.

(٧) الشفا: حرف الشيء وحده، ولعله يعني: شفا المرتفع، وبتُّ على شفا: أي على حذر.

(٨) شبّت: اتقدت. الأنور: النيران.

(٩) الحُباب: الحية. أزور: مائل

فحيّيتُ إذ فاجأتها فتولّهتْ ... وكادَت بمكنونِ التّحية تَهْجَرُ[1]

*   *   *

وقالت، وعضّت بالبنان: فضحتني! ... وأنت امرؤ ميسورُ أمركَ أعسرُ

فوالله ما أدري أتعجيلُ حاجةٍ ... سَرَت بك، أم قد نامَ من كُنتَ تحذَرُ

فقلت لها: بل قادني الشوقُ والهوى ... إليك، وما نفسٌ من الناسِ تَشعُرُ

فقالت، وقد لانت وأفرخَ رَوعُها ... كَلاكَ بحفظٍ ربُّكَ المتكبِّرُ[2]

فأنتَ، أبا الخطاب، غيرُ مدافَعٍ ... عليَّ أميرٌ، ما مكثتَ مُؤمَّرُ[3]

فيا لكَ من ليلٍ تقاصَر طُولُه ... وما كان ليلي، قبل ذلك، يقصُرُ

ويا لك من ملهىً هناك، ومجلسٍ ... لنا، لم يُكدِّره علينا مُكدِّرُ

*   *   *

يمجُّ ذكيَّ المسكِ منها مُقبَّلٌ ... نقيُّ الثنايا، ذو غروب، مُؤَشَّرُ[4]

تراه، إذا ما افترَّ عنهُ كأنه ... حصى بَرَدٍ أو أقُحوان مُنَوِّرُ[5]

وترنو بعينيها إلي، كما رنا ... إلى ظبية، وسط الخميلة جُؤذرُ[6]

*   *   *

فلما تقضّى الليل إلا أقله ... وكادت توالي نجمه تتغور

أشارت بأن الحي قد حان منهم ... هبوبٌ، ولكن موعد لك عَزْوَرُ[7]

فما راعني إلا مُناد: ترحَّلوا! ... وقد لاح معروف من الصبح أشقر[8]

(١) تولهت: حزنت حزناً شديداً وخافت.

(٢) أفرخ روعها: ذهب رعبها. وأفرخ رُوعها: هدأ قلبها. كلاك: أي كلاك: حرسك.

(٣) غير مدافع: غير مزاحم. مؤمر: لك الأمر.

(٤) يمجّ: يرمي. المقبل: الفم. الغروب: جمع الغرب، وهو كثرة الريق. المؤشر: الذي حززت أطرافه أسنانه.

(٥) المنور: الذي فيه زهر.

(٦) الخميلة: الشجر الكثيف الملتف. الجؤذر: ولد البقرة الوحشية.

(٧) عزور: اسم موضع.

(٨) معروف من الصبح: تباشير الصباح.

فلما رأتْ من قد تنبه منهم وأيقاظهم، قالت: أشر كيف تأمر؟
فقلت: أُباديهم، فإما أفوتُهم وإما ينالُ السيفُ ثأراً فيثأر[1]
فقالت: أتحقيقا لما قال كاشح علينا، وتصديقا لما كان يؤثر؟[2]
فإن كان ما لابُدَّ منه، فغيرُه من الأمر أدنى للخفاء وأسترُ
أقصُّ على أختيَّ بدءَ حديثنا وما لي من أن تعلما مُتأخَّرُ
لعلّهما أن تطلبا لك مَخرجاً وأن تَرحُبا سَرْبا بما كنتُ أحصر[3]
فقامت كئيباً، ليس في وجهها دمٌ من الحزن تذري عَبرةً تتحدَّر[4]
فقالت لأختيها: أعينا على فتى أتى زائراً، والأمرُ للأمرِ يُقدَر[5]
فأقبلتا، فارتاعتا، ثم قالتا: أقلِّي عليكِ اللَّومَ، فالخَطبُ أيسر[6]
فقالت لها الصغرى: سأعطيه مِطرفي ودرعي، وهذا البُردَ، إن كان يَحْذَر[7]
يقومُ فيمشي بيننا مُتنكراً فلا سرُّنا يفشو، ولا هو يظهرُ
فكان مِجنِّي دون من كنتُ أتَّقي ثلاثُ شخوص: كاعبان ومُعصِر[8]
فلما أجزنا ساحةَ الحيِّ قلن لي: أما تتقي الأعداءَ والليلُ مُقمر
وقلن: أهذا دأبك الدهرَ سادرا؟ أما تستحي؟ أو ترعوي؟ أو تُفكِّر؟[9]
إذا جئتَ فامنح طرفَ عينيك غيرَنا لكي يحسَبوا أنّ الهوى حيثُ تنظرُ

(١) أباديهم: أبارزهم. أفوتهم: أسبقهم.
(٢) الكاشح: العدو الذي يبطن العداوة. يؤثر: يعرف.
(٣) سربا: صدرا. أحصر: أضيق.
(٤) ليس في وجهها دم: كناية عن خوفها. تذري: تذرف.
(٥) يقدر: يدبر.
(٦) أقلي عليك اللوم: خففي عنك.
(٧) المطرف: رداء من خز. البرد: ثوب مخطط. الدرع: قميص أو ثوب تلبسه المرأة في بيتها.
(٨) المجن: الترس. الكاعب: الفتاة التي نهد صدرها. المعصر: المرأة المدركة.
(٩) دابك: عادتك. السّادر: غير المبالي. ترعوي: ترجع وتكفّ عن الغي والجهل والضلالة.

أ - المضمون[1] :

استهل الشاعر قصيدته بمقدمة غنائية في ذكر أمره مع "نُعم"، بين إقبال وإدبار، وقرب ونأي، يحول بينهما الأعداء والأقارب، ثم يقص ما جرى له ليلة ذي دوران، عندما دخل عليها بعد أن غاب القمر وأخمدت الأنوار مُحيّاها، فارتعدت، ثم أسلمت قيادها له وأقبلت عليه وبعد أن يصفها في أبيات، يعرض لأمر النجاة من مخدعها، وبعد لأي وحرج يخرج لابسا رداء نسائيا بين شقيقاتها.

أولاً - مقدمة غنائية وجدانية (١ - ٥) :

المطلع وجداني، فيه لهفة الحنين والنداء البعيد، إذ بدأ الشاعر بالتساؤل متغنياً، وترد "نعم" في أعماق ذلك الغناء، فقد ذكرها أربع مرات، كما توسل بكثير من الضمائر تعود إليها، معبرا عن شوقه وعذابه، مخالفاً ما شاع عنه.

ثانياً - النزعة القصصية (٦ - ١١) :

يروي الشاعر قصته مع (نعم) حيث تغدو قصيدته مزيجاً من المسرحية والرواية في شعر مشوب بالشجن. ويستهلها بقوله "وليلة" ثم نراه متربصا تربص الحذر، أو منسلا انسلال الأفعى، دون أن يعنى بتحليل نفسيته ونفسية حبيبته تحليلاً إنسانياً جذرياً، وإنما يغشى سطح الأشياء ومظهرها الخارجي كاسيا مأساته بجو من الطرافة تستخفنا أكثر مما تضعنا في قلب الفجيعة، وكأنه يضعنا في أجواء ألف ليلة وليلة.

ثالثاً - مشاهد مسرحية وحوار (١٢ - ١٨) :

نشهد حوارا مسرحياً أبدعت "نعم" في تمثيل مشاهده خلال تولُّهها وعضها على بنانها الذي يمثل الواقعية في قصائد عمر. لكن هذا المشهد سرعان ما ينتهي، ويبقى الشاعر وحده بعد أن توارت "نعم" عن المسرح، فلا تعود القصيدة مسرحية، بل غنائية تتحدث بوجَدْ النفس، فنراه ينفذ إلى حبيبته دون أن يكدرهما مكدر، مما جعل الليل يمر سريعاً (١٧، ١٨).

---

(١) انظر: إيليا حاوي، في النقد والأدب، ص ٢٧٧ وما بعدها

رابعاً - الحبيبة التقليدية (١٩ - ٢١) :

لـم تعـد "نعـم" سـوى امرأة جاهلية، من مثيلات ليلى، وهند، وفاطمة، وزينب، وخولة: ثغرها يشبه ثغرهنَّ، تماماً. فهو يتضوَّع بالمسك، مفلج تفتر عنه كالأقحوان المزهر. أما إذا التفتت. فهي ترنو بعينين شبيهتين بعيني الجؤذر الذي يلتفت إلى قطيع البقر الوحشي. فهذه الأبيات الثلاثة هي امتداد للجاهلي القديم في الأموي الجديد، وكأنها بعث لأشياء كادت أن تموت.

خامساً - عودة إلى الموضوع: العقدة والحل (٢٢ - ٣٩)

وإذ أوفت القصة إلى ذروتها، مع انبلاج الفجر ووقوف الحبيبين وجهاً لوجه، دون أن يدرك أحدهما كيف يتصرف قبل افتضاح أمرهما، وإذا بالحل يتفتَّق سريعاً، إذ أشار عمر إلى المواجهة بالسيف، أما هي فلم توافقه، خشية الناس، بل لجأت لأختيها، فكانت الحيلة التي أخرجته من ساحة الحي متنكراً في زي امرأة.

ويلفتنا في هذا الختام قوله :

وقلن: أهذا دأبك الدهر سادرا ألاتستحي أو ترعوي أو تفكر؟

إن هذا البيت يوجز نفسية عمر، كما شاعت في الناس وكما كان يراها ويتمناها هو بالذات، فهو يلتفت إلى الحياة المترصِّنة بهزء وعبث واستخفاف.

التقويم الذاتي :

السؤال الأول : ما الاسم الحقيقي للفتاة التي يتغزل بها عمر؟

السؤال الثاني : لماذا أخفى الشاعر هذا الاسم؟

السؤال الثالث : كانت تجربة عمر في قصيدته وليدة تجربة في الشعر الجاهلي. وضّح ذلك.

السؤال الرابع : علّل ما يأتي ؟

أ - تبدو شخصية عمر خلال شعره أجلى من شخصية امرىء القيس.

ب - يصدق في عمر ما صدق في البحتري، فيما بعد، قول النقاد: " "إنه أراد أن يشعر فغنًّى" .

السؤال الخامس : استخرج من النص :

أ - تشبيهين، وبيّن نوع كل منهما.

ب - كناية، وبيّن نوعها.

ب - جميل بن معمر (- ٧٠١م/ ٨٢هـ)

حياتـه :

جميل بن عبدالله بن معمر، ولد بتيماء سنة ٣٠هـ في وادي القرى بالحجاز، ونشأ في منازل عذرة وهي قبيلة كانت تقيم في وادي القرى بمنطقة المدينة، وأخذ يختلف إلى المدينة، وربما إلى مكة، فقد كان يلقى ابن أبي ربيعة كثيراً وكانا يتناشدان الأشعار.

وشبَّ على حب ابنة عم له اسمها بُثينة، فعُرف بـ "جميل بثينة"؛ وقد هام بها هياماً شديداً كما هامت به. فقال فيها شعراً كثيراً لم يرض عنه أهلها بل كان باعثا على تنكرُّهم له إذ ردُّوه خائباً عندما أقبل يخطبها وزوجوها بغيره، وعندما هجاهم بعد ذلك ولبث يتردد على بثينة - استعدَوا عليه مروان بن الحكم وهو على المدينة في عهد معاوية، فتوعَّده الوالي وأهدر دمه. فاضطرَّ إلى أن يضرب في الأرض، فذهب إلي اليمن ثم إلى الشام، فمصر حيث مات نحو سنة ٧٠١م/ ٨٢هـ، في ولاية عبدالعزيز بن مروان.

شعـره :

اشتهر جميل بالنسيب الذي قاله في بثينة، وهو شعر يمتاز بصدق اللهجة وحرارة العاطفة. وقد ظلت بثينة تحفظ له حبه، إلى أن وافاه الأجل، فبكته، وقد سمح زوجها للنساء أن يُعزّينها ويبكين معها، ويقول الرواة أنها ظلت تبكيه إلى أن لحقت به.

وقد أحيا جميل في شعره المشاهد والمواقف المؤثرة، وردد كلمات صاحبته :

وما أنس مِ الأشياءِ لا أنسَ قولها وقد قُرِّبَتْ نِضوي: أمصرَ تُريدُ؟[1]

أما أسلوبه فخطابي إخباري يكثر فيه التفجُّع، والتلهف والشكوى، إذ نراه

(١) م: لغة في "من". نضوي: ناقتي التي هزلها السفر.

يستخدم النداء، والتعجب، والاستفهام. وأما لغته فسهلة تنساب انسيابا وتصلح للغناء لما فيها من موسيقى حية.

عُني الناس والرواة بأشعاره، كما عني بها مغنو المدينة ومكة. وكان كثير عزة راوية له. وشعره لذلك أوثق شعر العذريين.

وكان جميل راوية لهدبة بن خشرم تلميذ الحطيئة، وكان الحطيئة تلميذ زهير. ومن هنا عدَّه الدارسون من سلسلة شعرية كانت تصقل شعرها.

ومن هذا المنطلق يمكننا الرد على الدكتور طه حسين الذي شكَّك في شخصيات شعراء الغزل العذري وفي محبوباتهم وفي أشعارهم، مدللا على ذلك بما دار حولهم من قصص وأخبار، ومستشهداً بما قاله الجاحظ: "ما ترك الناس شعراً مجهول القائل ذُكرت فيه ليلى أو لُبنى إلا نسبوه إلى المجنون أو إلى قيس بن ذريح" وبانياً عليه شكّه فيقول : "وتستطيع أن تقول ما ترك الناس شعراً مجهول القائل فيه ذكر بُثينة أو عَزّة إلا نسبوه إلى جميل أو كُثيِّر" [1]. فهؤلاء الشعراء ليسوا أشباحاً كما توهَّم الدكتور طه حسين بل لهم جذور في الواقع.

---

(١) انظر: حديث الأربعاء، ١/ ٢١٤

المتخيَّر من غزله :

(١) في انتظار بثينة[1]

الا ليتَ ريعَانَ الشبابِ جديدُ ... ودهرا تولى يا بُثينَ يعودُ

ويا ليتَ شِعري هل أبيتنَّ ليلةً ... بوادي القُرى إني إذن لسعيدُ

وهل ألقينْ فردا بُثينةَ مرّةً ... تجودُ لنا من وُدّها ونَجُودُ

علِقتْ الهوى منها وليداً فلم يَزَلْ ... إلى اليوم يَنمي حُبُّها ويزيدُ

وأفنيتُ عمرِي في انتظار نَوالها ... وأبليتُ فيها الدَّهرَ وهْوَ جَديدُ

إذا قُلتُ ما بي يا بُثينةُ قاتلي ... من الحُبِّ قالتْ ثابتٌ ويَزيدُ

وإن قلتُ رُدّي بعضَ عقلي أعشْ به ... مع الناس قالت ذاكَ منكَ بعيدُ

يموتُ الهوى مني إذا ما لقيتُها ... ويحيا إذا فارقتُها فيعودُ

جو النص :

تزوجت بثنة من رجل من قبيلتها اسمه نُبيه بن الأسود، وكانت العرب تكره تزويج الفتاة ممن يتغزل بها، لكن الشاعر ظل يتغزل ببثينة، فهدده أمير وادي القرى، فخاف ورحل عن هذا الوادي، وظل يتشوق إليه، ويتمنى لو يبيت فيه ليلة واحدة. فقد كانت ذكراها لا تبرح مخيلته، بل تعيش في قلبه. ومن هنا أخذ يُرتل هذه الأبيات.

---

(١) ديوان جميل، تحقيق حسين نصار، ص ٧٥ و٧٦ .

تحليل النص :

- **المعنى :** يتمّنى الشاعر لو يعود له الشباب والأيام الماضية التي كان يلقى فيها بثينة، ويتساءل في حيرة: هل أعود إلى وادي القرى حيث تسكن بثينة، وأبيت فيه ولو ليلة واحدة، إذن لنلت السعادة كلها.

وهل سيتاح لي أن ألقى بثينة ولو مرة فتبادلني مودة بمودة؟ لقد تعلقت هوى بثينة منذ ولدت وظل حبها يكبر ويزداد إلى اليوم، وضيَّعتُ عمري في انتظار وصلها، وأفنيت أيامي في غير جدوى، وإذا قلت لها يوماً إن حبك قد قتلني قالت عسى أن يدوم ويزداد. وإنْ طلبتُ منها أن تردَّ عقلي الذي أخذته قالت هذه أمنية بعيدة.

وأخيراً يقول إن نار الحب إذا التقينا تموت وتنطفىء، ولكنها لا تلبث أن تشتعل حالما نفترق. وقد جاءت معانيه منتزعة من بيئته البدوية العذرية؛ فقد تناول من خلال حوادث حياة البدويات وما يتحلّين به من ذكاء وعفاف.

- **العاطفة :** تبدو عاطفة الشاعر صادقة ملتهبة. ولهذا فهو يؤثّر في النفس حتى لقد عد شعره أجمل شعر عذري عفيف، كما نلمس فيها آلام الحب، والفراق، والشوق، والهجر.

- **الألفاظ :** جاءت ألفاظ جميل في غاية العذوبة والرقة والسهولة حتى لا تكاد تجد فيها لفظاً يحتاج إلى معجم لغوي. وهي بهذا تناسب موضوع الغزل والحب العفيف الطاهر.

- **الصوروالأخيلة :** خيال جميل ممتع مع أنه قليل، فقد امتلأت مخيلته من محبوبته، إذ كان طيفها يناجيه ويسبّب له اللوعة، فهو كمن يطارد خيط دخان، ولعلنا نلمس جمال هذا الخيال في البيت الأخير الذي يُعدُّ من أجمل أبيات الغزل.

التقويم الذاتي :

السؤال الأول : لماذا سُمِّي الغزل العفيف عذرياً ؟

السؤال الثاني : ما الأمنيات التي يتمنَّاها جميل ؟

السؤال الثالث : ما المعاني التي يطرقها جميل في غزله؟

السؤال الرابع : ما معنى قوله : يموت الهوى ويحيا؟ وهل هذا الكلام حقيقة أم مجاز؟ ولماذا ؟

السؤال الخامس : علِّل ما يأتي :

أ - كانت ألفاظ جميل في غاية العذوبة مع أنه بدوي.

ب - يؤثِّر شعر جميل في النفس.

السؤال السادس : وازن بين أبيات جميل في "بثينة" ، وأبيات عمر بن أبي ربيعة في "هند" .

---

٢ - قال في الوجد ببثينة [١] :

مـا وَجـدَتْ وَجْـدي بـهـا أمٌّ واحـدٍ ولا وَجدَ النَّهديُّ وَجْدي على هندِ[٢]
ولا وَجدَ الـعُـذريُّ عُـروةُ إذ قضَى كوَجْدي ولا مَنْ كان قبلي ولا بعدي[٣]
على أنَّ مَنْ قد مات صادفَ راحةً وما لفـؤادي مِنْ رواحٍ ولا رُشدِ[٤]
يكـادُ فضيـضُ الماء يَخدِشُ جلدَها إذا اغتسلَتْ بالماء من رقَّة الجِلْدِ[٥]
وإنـي لمـشتـاقٌ إلى ريح جَـيبْـهـا كما اشتاقَ إدريسٌ إلى جَنَّة الخُلدِ[٦]

اقرأ النص السابق ثم أجب عن الأسئلة الآتية :

السؤال الأول : عُد إلى ديوان جميل صفحة ٧٥ - ٧٦ تحقيق الدكتور حسين نصار، واكتب مناسبة هذه الأبيات.

السؤال الثاني : هل يعتقد جميل - في هذه الأبيات - أن الحب قضاء من الله لا راد له ؟ وضّح إجابتك.

السؤال الثالث : هل من شعراء مثل جميل في وجدهم؟ اذكرهم.

---

(١) ديوان جميل، تحقيق الدكتور حسين نصار، ص ٧٥ و٧٦ .
(٢) أم واحد: أي أم أي واحد من الخلق. النهدي: شاعر جاهلي أحب هنداً وتزوجها فلم تنجب فطلقها بناء على طلب أبيه، فندم ومات كمداً لفراقها.
(٣) عروة بن حزام العذري الذي أحب ابنة عمه، وخطبها ولكنها تزوجت من رجل غيره، فجن جنونه، ومات في بحثه عنها في وادي القرى، وكانت قد رحلت إلى الشام مع زوجها.
(٤) رواح: أي الراحة.
(٥) الفضيض: ما ينتشر من الماء عند الاغتسال.
(٦) الجيب: القميص

السؤال الرابع : هل إدريس نبي؟ عد إلى سورة مريم، واكتب الآية التي ورد فيها اسم إدريس ؟

____

____

____

السؤال الخامس : علل ما يأتي :

أ - كان المتصوِّفة يعشقون الغزل العذري.

ب - يرى الدكتور طه حسين أن الكثرة من شعراء الغزل العذري رموز لا حقائق.

السؤال السادس : اختر من (ب) ما يناسب (أ).

أ	ب
جميل بن معمر	عفراء
قيس بن ذَريح	سُليمى
قيس بن الملوّح	بُثينة
كُثيِّر	ليلى
عُروة بن حزام	عَـزَّة
تَـوبة بن الحُميّـر	ريّا
رُؤبة بن العجاج	ليلى الأخيلية
الصِّمَّة بن عبدالله القُشيري	لُبنى

الفصل الخامس

الشعر السياسي

توطئة :

برز الشعر السياسي في العصر الأموي، وهو لون من الشعر فيه تعصُّب مذهبي يختلط فيه المدح، والفخر، والحماسة، والهجاء، والإقناع. وكان الباعث عليه تعدد الأحزاب السياسية، واتخاذ كل حزب منها شعراء يدعون له، وينشرون مبدأه ودعايته.

وقد كثُرت هذه الأحزاب بعد أن تولى الخلافة يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤هـ)، إذ حدثت في عهده مأساة كربلاء سنة ٦١هـ، وما كان فيها من استشهاد الحسين بن علي < ، ومأساة وقعة الحرة سنة ٦٣هـ التي استباح فيها جيش يزيد حرمة المدينة المنورة بقيادة مسلم بن عقبة المُرّي. وسنقف عند هذه الأحزاب وأبرز شعرائها.

(١) الزبيريون :

الزبيريون، نسبة إلى عبدالله بن الزبير بن العوام < ، وكان قد دعا إلى نفسه بالخلافة في أيام يزيد. والتفّ الناس حوله بسبب ما شاع بين الناس من أخبار يزيد وميله إلى اللهو. وقد استقل ابن الزبير بالحجاز، وظل كذلك إلى أن تولى الخلافة عبدالملك بن مروان (٦٥هـ - ٨٦هـ)، فأرسل إليه جيشاً بقيادة الحجاج بن يوسف، فتمكن من فتح مكة وقتل عبدالله بن الزبير في جمادى الثانية من سنة ٧٣هـ. ويُعد هذا الحزب من أقل الأحزاب استقطاباً للشعراء؛ ذلك أن عبدالله بن الزبير كان يضنّ على الشعراء.

ولعلّ أبرز شاعر تصدّى للدفاع عن هذا الحزب هو عُبيد الله بن قيس الرُّقَيَّات (ت ٦٩٤م/٧٥هـ)

وهو شاعر من قريش، لُقِّب بالرقيات لأنه شبب بثلاث نساء سمِّين جميعا رقية. وكان ممن انحاز إلى ابن الزبير، وخرج مع مصعب بن الزبير على عبدالملك، ومدحه، وطعن في بني أمية، ثم انحاز إلى عبدالملك بعد انتهاء الزبيريين.

ولعل مما يصوِّر عقيدته السياسية قصيدته الهمزية التي بدأها بقوله :

أقفرتْ بعدَ عبد شمس كَداء ... فكُديٌّ فالركن فالبطحاء[1]

ونراه يأسى لتفرق قريش وطمع القبائل فيها فيقول :

حبَّذا العيشُ حين قومي جميع ... لم تُفرقْ أمورَها الأهواءُ

قبلَ أن تطمعَ القبائلُ في مُلـ ... ـكِ قُريشٍ وتشمتَ الأعداءِ

ثم يردُّ على الخوارج وأشباههم ممن كانوا يرون أن تنزع الخلافة من قريش وترد إلى المسلمين جميعا، فيقول :

أيُّها المشتهي فناءَ قريش ... بيدِ الله عُمرُها والفناءُ[2]

إن تودّعْ من البلادِ قريشٌ ... لا يكن بعدَهم لحيٍّ بقاءُ

ويمدح مصعب بن الزبير، فيقول :

إنما مصعبٌ شِهابٌ من اللـ ... ـه تجلَّتْ عن وجهِه الظلماءُ

مُلْكُه ملكُ عِزَّةٍ ليس فيه ... جبروتٌ ولا به كبرياءُ

ومن ثم يهاجم بني أمية، فيقول :

كيف نَومي على الفراش ولما ... تشمل الشامَ غارةٌ شعواءُ

تُذهلُ الشيخَ عن بنيه وتُبدي ... عن بُراها العقيلةُ العذراءُ[3]

(١) كداء وكدي: جبلان بمكة.
(٢) عمرها: يقصد بقاءها.
(٣) البرى: الخلاخيل. والبيت كناية عن الفزع الشديد.

(٢) الخوارج :

كان الخوارج فئة مستقلة يَرَوْن أن الخلافة ليست قصرا على بني علي أو بني أمية، وكانوا فرقا مختلفة، منهم الشراة والإباضية والأزارقة والصفرية، وبين هذه الفرق فروق في العقيدة وفي النظرة إلى الأحزاب الأخرى. وأبرز ما يميزهم إخلاصهم في عقيدتهم، غير أنهم مضوا يُشرعون سيوفهم ويسلُّونها على المسلمين حتى مزّقوا الجماعة الإسلامية. ومن أبرز شعرائهم :

(أ) قطري بن الفُجاءة (ت ٧٨هـ) وله قصيدة مشهورة مطلعها .

أقول لها وقد طارت شَعاعا من الأبطال ويحك لن تراعي[١]

(ب) عمران بن حطان (ت ٨٤هـ): وهو من غُلاة الخوارج حتى لنراه يشيد بالشقي عبدالرحمن بن ملجم قاتل الإمام علي بن أبي طالب، إذ يقول :

يا ضربة من تقي ما أرادَ بها إلا ليبلغَ من ذي العرشِ رضوانا

إني لأذكره حيناً فأحسَبُه أوفى البريةِ عندَ الله ميزانا

وقد اعتنق مذهب الصفرية، ولم يخرج إذ كان مثلهم يدعو إلى القعود، حتى عُدَّ رئيس قعدتهم؛ لأن عمره طال وعجز عن الحرب وحضورها على حد قول أبي الفرج، ولربما قعد به حبه لزوجته جمرة، فقد كان يشغف بها شغفاً شديداً [٢].

على أنه كان يحثُّ غيره على الخروج، حتى طلبه الحجاج، ولم يلبث شبيب الصفري وزوجته غزالة أن هجما على الكوفة في بعض أصحابهما، فهلع الحجاج وتحصّن في قصره، فكتب إليه عمران :

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامة ربداء تنفر من صفير الصافر[٣]

هلا برزت إلى غزالة في الضحى بل كان قلبك في جناحي طائر[٤]

(١) أقول لها: أقول لنفسي. طارت شعاعا: تطايرت خوفا. لن تراعي: لن تخافي.
(٢) انظر : شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص ٣٠٨ .
(٣) ربداء: تميل إلى الغبرة.
(٤) في جناحي طائر: كناية عن الخوف.

وكان عمران يزدري شعر المديح، فقد سمع الفرزدق مرة ينشد بعض مدائحه، فقال له :

أيـهـا المادحُ الـعـبـادَ لـيُـعـطَى	إن لله مـا بـأيـدي الـعـبـادِ
فـاسأل الله ما طـلـبـتَ إلـيـهـم	وارجُ فـضـلَ المـقـسِّـمِ الـعـوّادِ
لا تقـلْ في الـلئيـم ما لـيس فـيه	وتُـسـمِّي الـبخيـلَ باسـمِ الجوادِ

مما يدل على أن شعراء الخوارج لم يتكسبوا بشعرهم، وإنما كانوا يدافعون عن مذهبهم، وكانت تسيطر على أدبهم روح الحماسة والرغبة في الشهادة.

(ج) **الطِّرمَّاح بن حكيم** (ت ١٠٠هـ) : وهو شاعر طائي نشأ في الشام، وانتقل إلى الكوفة مع من وردها من جيوش الشام. واتصل بأحد الشراة الأزارقة فدعاه إلى مذهبه حتى اعتقده أشد اعتقاد. ويرى الجاحظ أنه من الصفرية، إذ كان مسالما بعيداً عن الكراهية، حتى لنراه صديقا للكُميت على الرغم مما بينهما من تفاوت في المذهب.

مال إلى الغريب، ولم يحسن استخدامه، ويمتاز شعره السياسي بالقوة والحنين إلى الاستشهاد. وقد صوّر حياة الشراة في الحرب والسلم، ومن طريف وصفه للخوارج قوله :

يُـرجـعـونَ الحـنـين آونـة	وإن عـلا سـاعـة بـهـم شـهـقـوا
خـوفـا تـبـيـتُ الـقـلـوبُ واجـفـةً	تـكـادُ عـنـهـا الـصـدورُ تـنـفـلـقُ

(٣) الشيعة :

يرى الشيعة أن الخلافة يجب أن تكون في الأئمة من ذرية علي بن أبي طالب < ، وقد قاموا بعدة ثورات على بني أمية، ولكن الأمويين كانوا يتغلبون عليهم مما جعل الضحايا من آل البيت كثيرين، وزاد النقمة على الحكم الأموي.

وإذا كانت قلوب الشيعة تمتلىء بالحقد والغيظ على بني أمية فقد كانت تمتلىء بالحب لآل البيت حباً يملك على نفوسهم عواطفها ومشاعرها.

ومن هنا فقد اتسَّم شعرهم بالحزن العميق، والأسى الماثل، ويدور قسم منه على بكاء شُهداء آل البيت وبخاصة الحسين بن علي < .

ومن أبرز شعراء الشيعة في العصر الأموي :

(أ) كُثيرٌ عزَّة (ت ١٠٥هـ) :

وهو كثير بن عبدالرحمن بن أبي جمعة، شاعر حجازي من خزاعة كان ينزل المدينة كثيراً، وكان قميئاً شديد القصر مُحمقا، وفي الأغاني أخبار كثيرة عن حمقه وعبث الناس به لهذا الحمق.

وقد اشتهر بغزله في عزة بنت جميل الضمرية حتى عرف بكثير عزة.

اعتنق الكيسانية بكل ما فيها من غلوٍّ وتطرف، كفكرة التناسخ، وانتقال قبس النبوة في علي وأبنائه، وكفكرة أن ابن الحنفية هو المهدي المنتظر.

ونراه يمتلىء حقداً على ابن الزبير لموقفه المتشدد من ابن الحنفية، ولا يلبث أن يلحق بعبدالملك في دمشق في معية ابن الحنفية، ويصبح من مداحه.

وربما كان عمر بن عبدالعزيز أهم من أخلص له في مدحه لبني أمية لموقفه من آل البيت إذ بالغ في إكرامهم ومنع عماله منعاً باتاً من سبهم على المنابر.

إلا أنه ظل مخلصاً لآل البيت حتى آخر لحظه في حياته، إذ نراه ينشد :

برئتُ إلى الإله من ابن أروى ... ومن دين الخوارجِ أجمعينا[1]

ومن عمر برئتُ ومن عتيقٍ ... غداةَ دُعي أمير المؤمنينا[2]

---

(١) ابن أروى: عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) عتيق: ابو بكر الصديق رضي الله عنه.

وعلى هذا النحو كان يغلو في تشيعه غلوا قبيحاً حتى أنفاسه الأخيرة.

(ب) الكميت بن زيد الأسدي (ت ١٢٦هـ) :

ولد في الكوفة سنة ٦٠هـ وشب على ثقافة البدو والحضر، فاجتمع له علم غزير بلغات العرب، وأشعارها، وأنسابها، وأيامها، ومثالبها. وقال الشعر وهو حدث، إلا أنه لم يتكسب به بل اكتفى بتعليم الصبيان بمسجد الكوفة.

وقد نشأ الكميت شيعيا يمدح آل البيت ويشيد بحقهم في الخلافة، ففي أخباره أنه امتدح علي بن الحسين الملقب بزين العابدين، ثم استخلصه زيد بن علي بن الحسين إمام فرقة الزيدية فإذا هو يدافع عنه، فغضب عليه والي العراق خالد بن عبدالله القسري وسجنه. إلا أن الكميت فرَّ من السجن متخفياً بزي امرأته، وفر إلى دمشق واستشفع لدى الخليفة هشام بن عبدالملك فعفا عنه، ولكنه عاد إلى العراق واستأنف مدائحه لزيد وتأييده لمذهب الزيدية، فغضب منه والي الكوفة يوسف الثقفي وأوعز إلى الحرس أن يقتلوه فقتلوه خبطا بالسيوف وهو في السادسة والستين من عمره حوالي سنة ١٢٦هـ.

للكميت شعر كثير في المدح والهجاء وغيرهما، وقد ضاع أكثره، وأشهر ما بقي له "الهاشميات" التي قالها في الاحتجاج لبني هاشم على خصومهم، وهي ثماني قصائد.

(٤) بنو أمية:

كان بنو أمية الحزب الحاكم، وهو أقوى هذه الأحزاب وأقدرها على اجتذاب الشعراء واصطناعهم بالأموال والهبات.

وأول صورة تلقانا للشعر السياسي المناصر لبني أمية ما أخذ ينظمه الشعراء إبان معركة صفين التي دارت بين جيش معاوية وجيش الإمام علي سنة ٣٦هـ، وكل منهم يدافع عن نظريته في الحكم وعن إمامه الذي ارتضاه مستلهما خصومة الشام والعراق في الجاهلية وما كان من تنافس على سلطان القبائل العربية بين الغساسنة والمناذرة، على شاكلة قول كعب بن جعيل التغلبي :

أرى الشام تكره ملك العراق | وأهلُ العراقِ لهم كارهونا
وقالوا علي إمامٌ لنا | فقلنا رضينا ابن هند رضينا

ورد عليه بعض شعراء العراق، فقال ينقض ما زعمه، مشيراً إلى ما بين الطرفين من عداوات قديمة :

أتاكم علي بأهل العراق | وأهل الحجاز فما تصنعونا
فإن يكره القوم ملك العراق | فقدمنا رضينا الذي تكرهونا

وكان عبدالرحمن بن حسان قد شبَّب برملة بنت معاوية، فيستعين عليه يزيد بالأخطل الذي أصبح شاعراً أموياً يناضل عن السياسة الأموية على نحو ما مر بنا.

وإذ جعل معاوية الخلافة وراثية في بيته، أخذ البيعة لابنه يزيد، ودفع بعض الشعراء لنصرة هذه الخطوة، وكان أسرع من لباه منهم مسكين الدارمي، إذ يقول :

إذا المنبرُ الغربي خلّى مكانه | فإن أميرَ المؤمنينَ يزيدُ
على الطائرِ الميمونِ والجد صاعدٌ | لكل أناسٍ طائرٌ وجدود(١)

ويلقانا مجموعة من شعراء بني أمية أمثال أبي العباس الأعمى، وأبي عطاء السندي، وعبدالله بن الزبير، وعدي بن الرقاع. وبجانب هؤلاء الشعراء كثيرون من شعراء المديح يأتي في طليعتهم جرير والفرزدق.

ولما اضطربت الدولة الأموية في عهد الوليد بن يزيد استنجد نصر بن سيار واليهم على خراسان بيزيد بن عمر بن هبيرة واليهم على العراق قائلاً :

أرى خللَ الرمادِ وميضَ جَمْرٍ | فيوشكُ أن يكونَ له اضطرامُ
فقلتُ من التَّعجُّبِ ليتَ شعري | أأيقاظٌ أميَّة أمْ نيَامُ؟!
فإنْ كانوا لحينهمُ نياماً | فقُلْ قوموا فقد طالَ المَنامُ

(١) الجد: الحظ.

ولـم تلبث أن سقطت هذه الدولة سنة ١٣٢هـ بين عويل كثير من الشعراء وبكائهم، كقول أبي عطاء السندي:

يا ليتَ جَوْرَ بني مروانَ عادّ لنا　　وأنَّ عَدْلَ بني العبّاسِ في النارِ

المتخيَّر من شعر السياسة:

أ - في الحماسة لقطري بن الفُجاءة[1]

ترجمة الشاعر:

هو قطري بن الفجاءة من قبيلة مازن من تميم زعيم الخوارج الأزارقة، وشاعرهم وخطيبهم. وهو من أهل قطر. وله كنيتان: أبو نعامة، وهي فرسه في الحرب، وأبو محمد في السلم.

وُلد بالبادية سنة ٣٠هـ، ومات بطبرستان سنة ٨٧هـ في فتنة حصلت في جماعته، إذ طارده سفيان بن الأبرد قائد جيش الحجاج بجيشه، ثم جاء برأسه إلى الحجاج ثم إلى عبدالملك.

كان شاعراً، وفارساً، وخطيباً، ثابت الجنان. ضرب به المثل في الشجاعة حتى قيل: "ما استحيا شجاع أن يفرَّ من عبدالله بن خازم وقطري بن الفجاءة"[2]، ولشجاعته بايعه الأزارقة إماماً لهم، فأطلقوا عليه أمير المؤمنين والخليفة، وقيل عنه أيضاً: "كان طامة كبرى، وصاعقة من صواعق الدنيا في القوة والشجاعة"[3].

شعره حماسي ثائر ديني سياسي، قصر ميدانه على الخوارج ومعاركهم، والهجوم على عيوب المجتمع والدولة. وكان رثاؤه منصباً على رفاقه يدور في إطار الحماسة والتضحية.

---

(١) أنظر أمالي المرتضى، ١/٦٣٧ .

(٢) وفيات الأعيان: ١/٤٣١ .

(٣) الأعلام: ٥/٢٠٠ .

أما غزله فكان نسيج وحده، فذكر زوجه أم حكيم في بطولاته وحروبه ليحول النفوس إلى ذكر فروسيته وشجاعته.

تدور حماسة قطري في محورين؛ ذاتي يتحدث فيه عن جرأته وشجاعته وإقدامه بقلب لا يخاف الموت، وموضوعي ينافح فيه عن عقيدته والتضحية بالنفس والمال من أجلها.

النص :

أقول لها وقد طارت شَعاعا ... من الأبطال ويحكِ لن تُراعي[1]

فإنك لو سألتِ بقاء يومٍ ... على الأجل الذي لك لم تُطاعي

فصبرا في مجال الموت صبرا ... فما نيلُ الخلودِ بمستطاع

ولا ثوبُ البقاء بثوب عزٍّ ... فيُطوى عن أخي الذُّل اليراعِ[2]

سبيلُ الموتِ غايةُ كل حيٍّ ... فداعيه لأهلِ الأرض داعِ

ومن لا يُعتبطْ يسأمْ ويهرمْ ... وتُسلمْه المنونُ إلى انقطاع[3]

وما للمرءِ خيرٌ في حياةٍ ... إذا ما عُدَّ من سَقَط المتاع[4]

اقرأ النص السابق ثم أجب عن الأسئلة الآتية :

١ - لمن يُوجّه الشاعر قوله؟ وما هذا القول ؟

____

____

(١) طارت شعاعا: تطايرت خوفا. لن تراعي: لن تخافي.

(٢) أخي الذل: الذليل. اليراع: الجبان.

(٣) يعتبط: يموت شابا.

(٤) سقط المتاع: المتاع.

٢ - ما الحُجَج التي أقنع الشاعرِ بها نفسه لتترك الخوف من الموت؟

____

____

٣ - في البيت الثالث تكرار بليغ. وضّحه وبيّن غرضه.

____

____

٤ - البيت الخامس يذكرك بآية كريمة، فما هي ؟

____

٥ - في البيت السادس يذكرك ببيت لزهير بن أبي سلمى، حاول أن تتذكره.

____

٦ - اذكر أهم خصائص شعر الخوارج.

____

____

____

____

٧ - من أبرز شعراء الخوارج ؟

____

ب - هاشمية الكميت [1] :

جو النص :

هذه القصيدة من الشعر السياسي، يختلط فيها مدح آل البيت بهجاء بني أمية، وما الشعر السياسي إلا مدح وهجاء وحماسة وهي واحدة من عدة قصائد نظمها في آل البيت سمّاها الهاشميات نسبة إلى بني هاشم.

وقد أشاد النقاد بهذه القصيدة وعدُّوها أجود الهاشميات. ويقال إنه عرضها على الفرزدق قبل أن يذيعها، فاعجب الفرزدق بها إعجاباً شديداً وقال للكميت: يا بُنيَّ أذع شعرك ثم أذع، فلأنت أشعر من مضى ومن بقي.

النص :

طربتُ وما شوقا إلى البيض أطربُ	ولا لعبا مني وذو الشيب يلعب؟[2]
ولـم تُلـهـني دارٌ ولا رسمُ منـزل	ولـم يتـطرّبـني بـنانٌ مُـخضَّـب[3]
ولكنْ إلى أهل الفضائل والتُّقى	وخير بني حواء والخيرُ يُطَلبُ
إلى النفر البيض الذين بحبِّهم	إلـى الله فيما نالني أتقرَّبُ
بني هاشم رهطِ النبيِّ فإنني	بهم ولهم أرضى مرارا وأغضبُ
خفضت لهم مني جناحَيْ مودةٍ	إلى كنف عِطفاه أهل ومرحب[4]
بـأي كـتـابٍ أم بـأيـة سـنـة	ترى حبهم عارا علي وتحسب؟
فما ليَ إلا آلَ أحمدَ شيعةٌ	وما ليَ إلا مذهبَ الحق مذهبُ

---

(١) طُبعت مدائح الكميت في بني هاشم مراراً باسم الهاشميات.

(٢) البيض: النساء. طرب: فرح وحزن وهي من الأضداد.

(٣) رسم: اطلال. يتطربني: يهيج أشواقي. بنان مخضب: أصابع مصبوغة بالحناء وقد استعملها الشاعر كاسم جمع، ولهذا جعل الصفة بعدها بصيغة المفرد.

(٤) كنف: حضن أو صدر. عطفاه: جانباه.

يعيبونني من غيهم وضلالهم على حبكم بل يسخرون وأعجب
فطائفة قد كفّرتني بحبكم وطائفةٌ قالوا: مسيءٌ ومذنب
ألم ترني من حبِّ آلِ محمد أروح وأغدو خائفاً أترقَّب؟
وقالوا ورثناها أبانا وأمنا وما ورثتهم ذاك أم ولا أب
يرون لهم حقا على الناس واجبا سفاها وحقُّ الهاشميين أوجب[1]
ولكن مواريثُ ابن آمنةَ الذي به دان شرقيٌّ لنا ومُغرِّب[2]
به اجتمعت أنسابنا بعد فُرقة فنحن بني الإسلام نُدعى ونُنسب
يقولون لم يورث ولولا تراثه لقد شركت فيه بكيلٌ وأرحبُ[3]
فإن هي لم تصلح لحي سواهمُ فإن ذوي القربى أحقُّ وأقربُ[4]
فيا موقدا ناراً لغيرك ضوؤها ويا حاطباً في حبل غيرك تحطب[5]

تحليل النص :

أ - المعنى :

تدور القصيدة حول ثلاثة محاور، هي :

١ - مقدمة تحدَّث فيها الشاعر عن شوقه لآل بيت رسول الله ﷺ، إذ يقول: لقد هاجني الشوق والطرب لا إلى النساء، ولا إلى اللعب واللهو، فما يكون للشيخ أن يلعب، ولا كان شوقي لأطلال الأحباب لكن شوقي لآل البيت أهل الفضائل والتقى، وأفضل الناس.

٢ - مدح آل البيت ووصف مشاعره نحوهم، فيقول: إنني أطرب إلى أولئك

(١) سفاها: جهلا.
(٢) دان: خضع.
(٣) بكيل وأرحب: قبيلتان من قحطان.
(٤) هي: الضمير للخلافة.
(٥) الخطاب في هذا البيت لأنصار بني امية وهو يعني أنهم يتعبون ليجني بنو أمية ثمرة أتعابهم.

القوم المباركين الذين أتقرب إلى الله بحبهم، وأتحمَّل الأذى من أجلهم وأرضى وأغضب تبعا لمرضاتهم وغضبهم. لقد تذللت وخضعت حبًا وترحيباً لهم. وسيظل هذا مذهبي مهما يُحيط بي من خوف وبهم.

ثم يتساءل مستنكراً: كيف تعيبونني في محبة هؤلاء الأبرار؟ وهل في كتاب الله أو سنة رسوله ما يعيب محبتهم؟ ويقول: إن بني أمية يلومونه في حب آل البيت، بل يسخرون به، وهو يعجب من تصرفاتهم.

٣ - نقاش منطقي حول الحق في الخلافة، يدور حول أحقية آل البيت في الخلافة، ويكشف تناقض الأمويين في هذا الأمر؛ فهم يرون أن لهم حقاً في الخلافة لأنهم من قريش قبيلة محمد ﷺ، فإذا جاء آل البيت يطالبون بها قال بنو أمية إن الأنبياء لا يورثون. وقد جاءت هذه المعاني مترابطة محكمة تدور حول موضوع واحد هو حب آل البيت وإثبات حقهم في الخلافة.

ب - العاطفة :

تمتاز الهاشميات بصدق العاطفة، وتقوم على حب آل البيت وبغض بني أمية، وقد احتلت مركزاً رفيعاً في الأدب العربي، وترجمت إلى الألمانية.

ونراه يمزج بين عاطفته وعقيدته؛ فهو يرى أن حب آل البيت ركن من أركان عقيدته وقُربة إلى الله سبحانه وتعالى.

ج - اللغـة :

في ألفاظ الكميت تأثُّر واضح بالقرآن الكريم والحديث الشريف نجده في الأبيات ٣، ٤، ٦، ٧، ١٢، ١٣ . ويرى القدماء أن شعره أشبه بالنثر لاعتماده أسلوب الجدل في بيان حقِّ الهاشميين الشرعي في الخلافة.

وقد تردد في عبارته على الصيغ الآتية :

١ - الاستفهام، ومنه: "وذو الشيب يلعب؟ وهو استفهام مُقدّر[1] يفيد الإنكار والنفي" "بأي كتاب أم بأية سنة ترى حبهم عارا؟" ويفيد الإنكار والتوبيخ. "ألم ترني من حب آل محمد أروح وأغدو خائفا" ويفيد التقرير.

٢ - النفي: لم تلهني دار، لم يتطربني بنان مخضب، يقولون لم يورث، ما شوقا إلي البيض أطرب.

٣ - النداء: فيا موقدا نارا، ويا حاطبا في حبل غيرك.

٤ - الطباق: أرضى وأغضب، مسيء ومذنب، أروح وأغدو، شرقي ومغرب.

٥ - أسلوب الشرط: فإن هي لم تصلح لحي سواهم فإن ذوي القربى أحق، ولولا تراثه لقد شركت فيه بكيل وأرحب.

٦ - الحصر والاستثناء: فما لي إلا آل أحمد شيعة، وما لي إلا مذهب الحق.

٧ - الجناس التام: البيض في البيت الأول النساء وفي البيت الرابع آل البيت المباركون.

د - الصور والأخيلة :

نرى الشاعر يتوسل بالكناية محولا أفكاره إلى صور مثل: "خفضت لهم مني جناحي مودة" للتدليل على الذل والخضوع، و"يا موقدا نارا لغيرك ضوؤها" ويا حاطبا في حبل غيرك تحطب" للتدليل على من يتعب لغيره.

وعلى أية حال، فإن أسلوب الشاعر يميل إلى التقرير، نلمس فيه الجدل والاحتجاج. ويرتكز على الألفاظ العاطفية التي لا تجهُّم فيها ولا عسر. وقد تجسَّمت الانفعالات بالأفكار السياسية.

---

(١) قال بعض الشُّراح: ليس فيها استفهام.

ومعنى البيت: لم أطرب شوقاً إلى الحسناوات ولم أقصد إلى اللهو والعبث، وقد يلهو ذو الشيب ويطرب، وإن كان قبيحا منه، ولكن طربي إلى آل البيت، أهل الفضائل والتقى.

التقويم الذاتي :

السؤال الأول : علل ما يأتي :

أ - تُعدُّ مقدمة القصيدة مقدّمة جديدة.

ب - كانت هذه القصيدة موضع إعجاب الفرزدق.

ج - شعر الكُميت في آل البيت عليه طابع الحزن.

د - تُدعى بعض مدائح الكُميت "الهاشميات".

هـ - أعلن الكُميت أن الغزل لا يستهويه.

و - خُلو الأبيات التي يجادل فيها الأمويين من الصور البلاغية.

السؤال الثاني : في البيت السادس صورة فنية، وضّحها وبيِّن دلالتها.

السؤال الثالث : اشرح بلغتك النقاش حول الخلافة على ضوء الأبيات (١٠ - ١٥).

السؤال الرابع : وضّح أثر القرآن والإسلام في شعر الكُميت .

السؤال الخامس : بِمَ توحي الكلمات الآتية :

أ - "البيض" في البيتين الأول والرابع.

ب - "بنان مخضب" في البيت الثاني.

الفصل السادس

ألوان أخرى من الشعر

أ - الحنين إلى الأهل والوطن

مالك بن الريب التميمي يرثي نفسه [1]

تمهيد :

هناك جانب من الشعر في العصر الأموي يدور حول الحروب والفتوحات الإسلامية، ويصور البيئات الجديدة التي شاهدها العرب، وظهر في أثناء ذلك موضوع جديد هو الحنين إلى الوطن، جرى على ألسنة شعراء فارقوا الأهل والوطن، وخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله. وكانت هذه النزعة من الحنين تتضاعف في نفس الشاعر حين يصيبه مرض أو يتراءى له الموت ماثلاً أمام عينيه.

نبذة عن الشاعر والقصيدة :

مالك بن الريب شاعر مقلٌّ عرف بقصيدته التي رثى بها نفسه فضلا عن مقطوعات شعرية في الوصف والحماسة وردت في كتاب الأغاني. نشأ في بادية بني تميم بالبصرة، وكان شابا شجاعا فاتكا لا ينام الليل إلا متوشحا سيفه ولكنه استغل قوته في قطع الطريق هو وثلاثة من أصدقائه. وفي يوم مرَّ عليه سعيد بن عثمان بن عفان وهو متوجه لإخماد تمرد في خراسان فأغراه بالجهاد في سبيل الله

---

(١) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، ٧٥٩/٢ - ٧٦٧ .

بدلا من قطع الطريق، فاستجاب مالك لنصح سعيد وذهب معه وأبلى بلاء حسنا، وفي أثناء عودته إلى وادي الغضا في نجد وهو مسكن أهله، مرض مرضاً شديداً، وقيل: لدغته أفعى فنظم هذه القصيدة يرثي بها نفسه، ويذكر مرضه وغربته.

وقد كانت وفاة مالك بُعيد نظمه لهذه القصيدة في خلافة معاوية سنة ٥٦هـ.

ألا ليتَ شِعري هل أبيتَنَّ ليلةً ... بوادي الغَضى أُزجي القِلاص النَّواجيا[١]
فليتَ الغَضى لم يقطعِ الركبُ عَرْضَهُ ... وليت الغضا ماشى الرِّكابَ لَيَاليا[٢]
لقد كان في أهل الغَضى لو دنا الغضا ... مزارٌ ولكنّ الغَضى ليس دانيا
ألم ترني بِعتُ الضّلالةَ بالهُدى ... وأصبحتُ في جيشِ ابن عفّانَ غازيا
فللهِ درّي يومَ أتركُ طائعا ... بَنيَّ بأعلى الرَّقمتينِ وماليا[٣]
لعمري لئنْ غالتْ خُراسانُ هامَتي ... لقد كنتُ عن بابَيْ خُراسانَ نائيا[٤]
فيا صاحِبيْ رَحلي دَنا الموتُ فاحفُرا ... برابيةٍ إنّي مُقيمٌ لياليا[٥]
أقيما عليَّ اليومَ أو بعضَ ليلةٍ ... ولا تُعجلاني قد تبيَّن شانيا
وخُطّا بأطرافِ الأسنّةِ مَضجعِي ... ورُدّا على عينيَّ فضلَ رِدائيا[٦]
ولا تحسُداني باركَ اللهُ فيكُما ... من الأرض ذات العَرْضِ أنْ تُوسِعا ليا
خُذاني فجُرّاني بثوبي إليكُما ... فقد كنتُ قبلَ اليومِ صعباً قياديا
وقد كُنت عطّافا إذا الخيلُ أدبرتْ ... سريعاً لدى الهيجا إلى من دعانيا[٧]

---

(١) الغضى: شجر شديد الاشتعال. وادي الغضا: واد بنجد. القلاص: جمع قلوص وهي الناقة. النواجي: جمع ناجية وهي السريعة.
(٢) الركاب: المطايا.
(٣) تعجب من نفسه كيف تغرّب عن ولده.
(٤) يريد أهلكت راسي.
(٥) يا صاحبي رحلي: يا صاحبي في سفري.
(٦) فضل ردائيا: الزائد من ثوبي.
(٧) عطافا: انعطف نحو الأعداء مهاجما.

غداة غد يا لهف نفسي على غد | إذا أدلجوا عني وأصبحت ثاويا[1]
وأصبح مالي من طريفٍ وتالدٍ | لغيري، وكان المال بالأمس ماليا
فيا ليت شعري هل تغيَّرت الرحى | رحى الحروب، أم أضحت بفلجٍ كما هِيا
تذكَّرت من يبكي عليَّ فلم أجد | سوى السيفِ والرمحِ الردينيِّ باكيا
وبالرمل مني نسوةٌ لو شهدنني | بكين وفدَّيْنَ الطبيبَ المداويا
فمنهن أمي وابنتاي وخالتي | وباكيةٌ أخرى تهيج البواكيا[2]
وما كان عهد الرمل عندي وأهله | ذميما ولا ودعت بالرمل قاليا

النص :

نقد وتعليق :

كان مالك بن الريب يتمي إلى الصعاليك الفاتكين الذين مثَّلوا ظاهرة متميزة في تاريخنا، من أمثال السليك بن السلكة وعروة بن الورد، إذ كانوا مجموعة من الفرسان المتمردين على المجتمع، لكن شاعرنا كفَّ عن هذا الخط وأصبح غازيا في سبيل الله، ومكث في خراسان حتى مات هناك.

وإذا تأملنا هذه القصيدة الرائعة اتَّضحت لنا فيها الخصائص الآتية :

١ - العاطفة متَّقدة في القصيدة، إذ يبدو الشاعر إنسانا رقيق القلب في أوج الصدق والحرارة، وهي عاطفة حزينة فيها بكاء وعويل حين يرثي نفسه، وتفجّع وحنين حين يتذكر وطنه وأهله ويجد نفسه بعيداً. هذا الفارس الذي خاض الملاحم الضارية، لم يمت بضربة سيف أو طعنة رمح، بل من لدغة أفعى كانت نائمة في نعله؛ يقول الرواة إن شاعرنا نظم هذه القصيدة وهو يحتضر[3]، غير أن المدائني يقول إنه رثى نفسه قبل موته بسنة[4].

---

(١) الإدلاج: السير من أول الليل. الثاوي: المقيم.

(٢) باكية أخرى: يعني زوجته.

(٣) انظر: جمهرة أشعار العرب، ٢/ ٧٦٧ .

(٤) المرزباني، معجم الشعراء، ٣٦٤ .

٢ - المعاني فيها ابتكار وروعة كحديثه عن سيفه ورمحه وحصانه، وهي تبكي بطولته وفروسيته، وفي توصياته لرفاقه تأثير موجع حقا، ومن معانيه الطريفة قوله: "خطا بأطراف الأسنة مضجعي". ومن أجمل معانيه مقارنته بين حاله وهو ميت يسهل على أصحابه أن يجرّوه، وحاله وهو في كامل صحته حين كان من الصعب على الفرسان أن يجروه، كما أن في ذكره لزوجته ووالدته وقريباته، وتصوير شعورهن حين يبلغهن النبأ إبداعا ممتازا.

٣ - الصور والأخيلة الواردة في معظم القصيدة بدوية، ولكن بعضها يوضّح جو الفتوح الإسلامية، ومن الإشارات البدوية (أزجي القلاص النواجيا، لم أجد سوى السيف والرمح الرديني باكيا، يا صاحبي رحلي).

٤ - في القصيدة تكرار بليغ الوقع والتأثير، فقد كرّر كلمتي الغضى والرمل عدة مرات لشدة حبه لهذين الموضعين. حتى لقد كرر كلمة الغضى ثلاث مرات في بيت واحد هو البيت الثالث. يقول غازي القصيبي: "وأشهد الله أني لم أعثر في قراءاتي كلها على تكرار جميل يسقيك الأسى جرعة بعد جرعة كتكرار الغضى في هذه الأبيات" [١].

وعلى الجملة، فإن جمال هذه القصيدة وروعتها لا للغتها ولا لصورها، ولكن لأنها "تصور بروعة وأمانة ودقة موقفا حقيقيا لإنسان حقيقي يوشك أن يدخل أبواب أعنف التجارب البشرية: الموت، تصور هذا الموقف بكل ما فيه من متناقضات وجزع واضطراب دون حرص على رضاء جمهور من المستمعين أو كتيبة من النقاد" [٢].

٥ - يرى بعض الرواة أن الشاعر لم ينظم سوى ثلاثة عشر بيتاً، وأن الباقي أضافه شعراء آخرون عبر فترات عديدة[٣].

---

(١) غازي القصيبي، قصائد أعجبتني، ص ٩٣ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٥ .

(٣) انظر: الأغاني، ٢٢/٣٢٤ (دار الثقافة).

٦ - يؤدّي الزمن في القصيدة دورا مهماً، يمتزج فيها الماضي والحاضر والمستقبل؛ الماضي: ويتمثل في وادي الغضى والرمل حيث بدأ حياته وعاش أحلامه، والحاضر: ويتمثل في غربته وبعده عن الأهل والوطن، إذ يبدو وحيداً يائساً. وأما المستقبل: فمشهد النساء الباكيات بعد موته. ولقد ذكر الشاعر أسماءهن سوى واحدة لعلها زوجته مكتفياً بالإشارة إلى أن حزنها هو أعظم حزن.

٧ - تؤدي الموسيقى دوراً عظيماً في التعبير عن حالة الشاعر النفسية؛ فالموسيقى الخارجية تبدو في الوزن والقافية، فالقصيدة من بحر الطويل، وهو بحر يتسع لفن الرثاء، وهي قصيدة يائية اتصلت برويها ألف الإطلاق. وأما الموسيقى الداخلية فتبدو في العاطفة المتقدة وفي تكرار بعض الألفاظ. وهكذا استطاع الشاعر أن ينقل إلينا مشاعر الأسى والحزن من خلال الإيقاع المنتظم الذي يرتكز على تتابع ألفات المد في النص.

طهمان بن عمرو الكلابي يحنُّ إلى المحبوبة والديار

سَقَى دارَ ليلَى بالرَّقَاشَينِ مُسْبِلٌ ... مُهيبٌ بأعناقِ الغمَامِ دَفُوقُ[1]

أغَرٌّ سِماكيٌّ كأنَّ رَبابَهُ ... بَخاتيٌّ صُفَّت فَوقَهُنَّ وَسوقُ[2]

كَأنَّ سنَاهُ حينَ تقدَعُهُ الصَّبَا ... وَتلقَحُ أخرَاهُ الجَنوبُ حَريقُ[3]

وَبَاتَ بحوضَى والسِّبَال كأنَّما ... يُنَشَّرُ رَيطٌ بينَهُنَّ صَفيقُ[4]

وَمَا بيَ عن ليلَى سُلُوٌّ وَمَالَها ... تَلاَقٍ كلانَا النَّأيَ سَوفَ يَذوقُ

سقَاكِ وَإنْ أصبحتِ وَاهيةَ القُوى ... شقَائقُ عَرْضٍ مَا لَهُنَّ فُتوقُ[5]

وَلَو أنَّ ليلى الحارثيّة سلّمَت ... عَلَيَّ مُسجّى في الثيابِ أسُوقُ

حَنُوطي وأكفَاني لديَّ مُعَدَّةٌ ... وَلِلنفسِ مِنْ قُربِ الوَفاةِ شَهيقُ

إذاً لَحسبتُ المَوتَ يتركُني لَها ... وَيفرُجُ عَني غَمَّهُ فأفيقُ

وَنُبِّئتُ ليلى بالعراق مَريضَةً ... فماذا الذي تُغني وأَنتَ صَديقُ

سَقَى اللهُ مَرضَى بالعراقِ فإنني ... على كُلِّ شَاكٍ بالعراقِ شَفيقُ

وَإنّي بأن لا يَنزِل الناسُ مَنزِلاً ... تَحمَّيتُ مِن قلبي بِهِ لَحقيقُ[6]

وَإني لليلَى بَعدَ شَيْبِ مَفَارِقي ... وَبعدَ تَحنّي أعظُمي لصديقُ

وَإني مِن أنْ يَلغى بكِ القَومُ بينهم ... أحاديث أجنيها عَليكِ شَفيقُ[7]

---

(١) الرقاشان: جبلان. مهيب: أي كأنه مستلحق لأوائل الغمام يدعوها لتلحق به، ويقال أهاب الراعي بالإبل إذا صوّت لتلاحق.

(٢) أغر: أبيض. سماكي: من مطر الوسمي. الرباب: شيء يتدلى دون السحاب يكون أسود وأبيض.

(٣) تقدعه: تكفه.

(٤) حوضى: ماء لعبدالله بن كلاب.

(٥) شقائق عرض: أي شقائق عريضة يعني شقائق برق الوسمي. ما لهن فتوق: أي قد أمطرا كل شيء.

(٦) تحميت: نزلت حمى فؤادي.

(٧) لغى به: إذا أولع به وأكثر ذكره.

لعلَّكَ بَعدَ القيدِ وَالسِّجنِ أن تَرَى تَمُرُّ على ليلى وأنتَ طَليقُ
طَليقٌ الذي نَجَا منَ الكَربِ بعدمَا تلاحَمَ مِن دَربٍ عليكَ مَضيقُ
وَقَدْ جَعَلَتْ أخلاقُ قومكَ أنّها منَ الزّهدِ أحياناً عليكَ تَضيقُ
ألا طَرقَتْ لَيلَى على نأي دارهَا وَليلى على شَحطِ المزارِ طَرُوقُ
أسيراً يَعَضُّ القَيدُ ساقيه فيهما من الحَلَقِ السُّمرِ اللطَافِ وَثيقُ
وَكَم دَونَ ليلى مِنْ تنائف بَيضُهَا صَحيحٌ بمدحي أمِّه وَفليقُ[1]
وَمِن ناشِطٍ ذَبٌّ الرِّيادِ كَأنَّهُ إذا رَاحَ مِن بَردِ الكِنَاسِ فَنيقُ
يثيرُ الرُّخامي بالعَشيِّ كأنَّما عَلَى وجهه مما يُثيرُ دَقيقُ[2]
وَغَبراءَ مُغطيٍّ بها الآلُ لا يُرى لَهَا من تنائي المنهلين طريقُ[3]
قَطَعتُ وَحرباءُ الضَّحى مُتَشمِّسٌ وَلِلبُرقِ يَرمَحنَ المتانَ نَقيقُ[4]
على ظهرِ مذعانٍ كَأنَّ جِرانَها يمانٍ نَضَا جَفنَينِ فَهو دَلُوقُ[5]
هَلِ الهَجرِ إلا أن أصُدَّ فَلا أرى بأرضِك إلا أن يَضُمَّ طريقُ
تَقُولُ ابنةُ الطَّائي مَاليَ لا أرى بِكَفَّيكَ مِن مَالٍ يَكادُ يَليقُ[6]
رأَت صرمَةً حُدباً يحُفُّ عَديدَهَا غواشٍ تَفشَّي ربَّها وَحُقوقُ[7]
يُزيِّنُ ما أعطيتُ مني سَماحَةً وَوَجهٌ إلى مَن يعتريه طليقُ
تَروكٌ لِطَيراتِ الَفيهِ تَكرُّماً وذو نزلٍ عِندَ الحِفاظِ غلُوقُ[8]

---

(١) فليق: متفلق.
(٢) الرخامي: نبت يسوغ عرقه فيدخل في الأرض كثيراً.
(٣) مغطى بها الآل: أي غطاه الغبار والقتام فلا يرى الآل.
(٤) البُرق: الجنادب. ونقيق: صرير.
(٥) مذعان: منقادة للسير. نضا: سلخ وخرج منها.
(٦) يقال: ما يليق بكفيه دهم: أي ما يلصق وما يبقى.
(٧) يحف عديدها: أي يحملها.
(٨) يغلق عن الحق: يلزمه ولا يفارقه.

وَإن بِـنَـا عَـنْ جـارِنَـا أجـنـبَـيَّـةً حَـيـاءً ولِـلـمُـهـدي إلـيـه طَـريـقُ[1]
يَرَى جَارُنَا الجَنَبَ الوَحيشَ وما يُرى لجـارَتِـنـا مِـنّـا أخُ وَصَـديـقُ[2]

ترجمة الشاعر طهمان بن عمرو الكلابي [3] :

هو طهمان بن عمرو بن سلمة بن سكن بن قريظ بن عبد بن أبي بكر بن كلاب، وعمرو والده من الصحابة، وكان سيد قومه عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام، ووفد على النبي عليه السلام مع قوم، فأسلم وحسن إسلامه. وكان طهمان من لصوص العرب وفتّاكهم الأشرار، عاش في العصر الأموي، وكان معاصراً للخليفة عبدالملك بن مروان، وله قصص مع آل مروان.

ولا نعرف في أخباره أو شعره وصفاً له غير أن يده قد قطعت على يد زعيم خارجي من بني حنيفة وهو (نجدة الحروري)، وذلك عندما أخذ نجدة طهمان بن عمرو فجعله دليلاً، فسار معه حتى إذا كان في بعض الليل أخذ طهمان دابة من الدواب وهرب بها، وحين افتقده نجدة أرسل في أثره رجلاً من بني جعفر بن كلاب مع آخر للبحث عنه فلحقاه وأتيا به نجدة الذي قطع يده، كذلك عرف من صفاته أنه أعور.

---

(١) أجنبية: تجنباً.
(٢) أي لا نزوره لريبة.
(٣) راجع هذا في:
- ديوان طهمان بن عمروالكلابي، تحقيق: محمد المعيد، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٨، ٥ - ١٣ .
- منتهى الطلب في أشعار العرب، جمع محمد بن المبارك بن ميمون، تحقيق وشرح: محمد الطريفي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٩، ٣/ ٢٧٦ .
- التذكرة السعدية في الأشعار العربية: محمد بن عبدالرحمن العبيدي، تحقيق: عبدالله الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١، ١٩٦٠ .
- معجم الشعراء المخضرمين، والأمويين، عزيزة بابتي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ص ٢٢٦ .
- موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي، عبد عون الروضان، دار أسامة، الأردن، ط١، ٢٠٠١، ص ١٧٧ .

وتدور أخباره القلية حول مغامراته لصاً وقاطع طريق في اليمامة، لذلك عُرِف بطهمان اللص، وتوفي سنة ٨٠هـ، ٧٠٠م.

تحليل النص :

يتمحور نص طهمان بن عمرو الكلابي حول ست شرائح أساسية هي :

الشريحة الأولى : الدعاء بالسقيا لأطلال المحبوبة (الأبيات ١-٤).

الشريحة الثانية : الغزل المعنوي بالمحبوبة (الأبيات ٥-١٧).

الشريحة الثالثة : الطيف والسجن (البيتان ١٨-١٩).

الشريحة الرابعة : الناقة والصحراء (الأبيات ٢٠-٢٦).

الشريحة الخامسة : صوت العذل وتبرير الشاعر (الأبيات ٢٧-٢٩).

الشريحة السادسة : صفات الشاعر البطولية (الأبيات ٣٠-٣٢).

يفتتح الشاعر قصيدته بالدعاء لديار المحبوبة بالسقيا، والدعاء بالسقيا يتطلب عوامل تساعد على إتمام هذه الصورة، وقد أبدع الشاعر في ذلك حين تحدث عن الغمام والبرق والمطر وهذه عوامل مساعدة لعملية السقيا التي أرادها الشاعر في بداية القصيدة.

وفي هذا المطلع صورة فنية رائعة إذ أنَّ الشاعر قصد من هذا أن تبقى ديار محبوبته غضة حيّة جميلة لا تزول، ومن هنا يمكن القول: إنّ الدعاء بالسقيا في هذه الأبيات يمثل رغبة الشاعر في نزول المطر على هذه الديار المندثرة ليتحقق لها الخصب، وبذلك يتحقق لها السلام والأمن والطمأنينة، فالدعاء بالسقيا لأطلال المحبوبة دعاء بالحياة والخير للقبيلة/ المكان على اعتبار أن ليلى هنا تمثل القبيلة - كما سيأتي - لاسيما إذا ما تبيّن أن رحيل المحبوبة يمثل رحيل الخصب والحياة، لأنّ المرأة هي رمز للخصب كما هو معروف.

ورحيل المحبوبة عن هذا المكان يتطلّب من الشاعر أن يدعو لهذه الأطلال بالسقيا لذلك فهو يكرر هذه الكلمة في غير موضع من هذه القصيدة، وتكرار هذه الكلمة في شريحتين من شرائح الحياة والنماء، أي أن هذه الفكرة تمثل عاملاً أساسياً في إنشاء هذه القصيدة، ومثل هذا التكرار لبعض الكلمات في القصيدة يساعد على تلاحم أجزائها وترابطها ووحدتها، ومن ذلك قوله في الشريحة الأولى : (سقى دار ليلى ....) وقوله في الشريحة الثانية : (سقاكِ وإن أصبحت واهية القوى ....) وقوله : (سقى الله مرضى بالعراق ....).

وهذا المطلع كان ممهداً لولادة الشريحة الثانية من القصيدة، إذ أن ذكر الأطلال يوجب على الشاعر ذكر المحبوبة والغزل بها، وهذا تقليد فني تعارف عليه الشعراء في مختلف العصور[1]، ويُلاحظ أن الشاعر يبتعد عن ذكر الأوصاف الجسدية للمرأة فلا يشير إلى ذلك أبداً، وإنما تبقى صورة المرأة عفيفة طاهرة، فقد أولع الشاعر بحبه فهو يصور الألم الذي أصابه نتيجة هذا الحب، لذلك فهو يتمنى لو يخرج من سجنه ليرى محبوبته، فيقول :

وما بيَ عَن لَيلَى سُلُوٌّ وَمَا لَها ... تَلاَقٍ كلاَنَا النَّأيَ سَوفَ يَذوقُ
سَقَى اللهُ مَرضَى بالعِراقِ فإنني ... على كُلِّ شَاكٍ بالعراقِ شَفيقُ
لعلَّكَ بَعدَ القيدِ وَالسِّجنِ أن تَرَى ... تَمُرُّ على ليلى وأنتَ طَليقُ

ولا تتضح هوية ليلى في هذه الأبيات، أهي زوج الشاعر أم حبيبته؟ لأنّ الشاعر يحنّ إليها ويشتاق لها وهو في السجن، فيمكن أن تكون زوجته البعيدة عنه، أو أن تكون حبيبته التي أحبها حباً شديداً، ويمكن أن تكون ليلى هنا هي المرأة بشكل عام سواء أكانت زوجته أم حبيبة أو غيرها.

---

(١) وإن كنا نظن أن الشاعر لم يأت بهذا المطلع مراعاة للجانب الفني التقليدي كما سيأتي.

ويمكن أن نذهبَ مذهباً آخر في تفسير المقصود بـ . . . ليلى، فمن المعروف أن هؤلاء الشعراء كانوا منبوذين من قبائلهم لأسباب عديدة، لذلك عاشوا في القفار كما سبق الحديث عن ذلك غير مرة، ومن هنا فإنّ الشاعر بوصفه إنساناً وبشراً يحمل قلباً مرهفاً - إن جاز التعبير - فإنه لابدّ أن يحنّ إلى قبيلته ومجتمعه الذي كان في يوم من الأيام واحداً من أبنائه وحُماته.

وانطلاقاً من هذا الفهم يمكن أن تكون (ليلى) عشيرة الشاعر وقبيلته التي لا يزال يذكرها ويتمنى العودة إليها، والشعراء غالباً ما يذكرون المرأة على أساس أنها المسكن والمأوى الذي يحتمون به، ولهذا ارتبط الوطن والمرأة بمعنى واحد، فالوطن البعيد للشاعر هو المحبوبة البعيدة والعكس صحيح.

وما أجمل وما أحلى أن يرمز الشاعر لمحبوبته بالوطن، فهذا دليل على تقديره وحبه لها، ومما يؤكد هذا الاعتقاد السابق أن الاقتران بين المحبوبة والديار يظهر في أول بيت من هذه القصيدة بل في أول كلماتها حين قال : (سقى دار ليلى . . .) لكن هذا التحليل لا يلغي التحليل الأول.

وتتضمن هذه الشريحة افتخاراً بالذات "الأنا" وهذه الفكرة سيركز الشاعر عليها في معظم الشرائح القادمة إذا ما استثنينا منها شريحة الطيف والسجن، ويُلاحظ في الأبيات (١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤) أن الإيقاع النفسي للأبيات قد اختلف عما كانت عليه في الأبيات السابقة، فتكرار كلمة (إني) يدل على الافتخار بالذات والعمل على إعلاء صوت الأنا، ولتأكيد ذاته وتضخيمها فإنه يستخدم بعض الكلمات المتضادة لتدعيم ذلك، فاستخدامه لكلمتي (مريضة، مرضى) في قوله: (ونبئت ليلى بالعراق مريضة . . .) وقوله : (سقى الله مرضى بالعراق . . .) له مدلوله الخاص، فمعروف أن المريض يكون ضعيفاً لا قوة له، وهذا ما يريد الشاعر قوله فهو يريد إثبات ذاته وقوته مقابل ضعف الآخرين لذلك يقول: (فإني على كل شاك بالعراق شفيق).

وتأتي الشريحة التالية من هذه القصيدة لتكون ردة فعل مناسبة للشريحة السابقة، فالشاعر في ما مضى يتغزل بمحبوبته وهذا يمثّل لحظة اتصال بين الحلم والواقع، وإذا كان الشاعر لا يتحدث عن واقع فإن هذا يستدعي وجود بديل؛ لذلك تأتي شريحة الطيف الذي يزور الشاعر في سجنه، ورغبة الشاعر في رؤية طيف المحبوبة يدل على تعلّق الشاعر بالحياة لاسيما أن هذا السجن يعبّر عن الموت والهلاك بصورة عامة، لذلك فإن العلاقة تبدو وثيقة بين الطيف والسجن.

والسجين لا يستطيع لقاء المحبوبة فلا سبيل أمامه إلا أن يتصور خيالها أو طيفها والحديث معه كتعويض عن اللقاء الحقيقي الذي حُرِمَ منه، والشاعر في هذه الشريحة (البيت ١٨) يكرر اسم ليلى مرتين، بل إنّه يكرر اسمها مرات عديدة في الشرائح السابقة واللاحقة، وهذا التكرار يدل على تلذذ الشاعر بذكرها، ويدل كذلك على تمسكه بها وحبه الشديد لها.

والشاعر في حديثه عن الطيف يبثّ شكواه من واقع السجن المرير، ويبين ما يعانيه من العذاب والألم، وقد أبدع في تصوير حالته النفسية وهو في السجن حيث صور القيد بصورة فنية جميلة ورائعة تعبّر عن مأساته الحقيقية، فقد صوره بحيوان مفترس يقوم بعضّه مسبباً له الآلام والعذاب قائلاً :

ألا طَرقَتْ لَيلَى على نأي دارِهَا وَليلى على شَحطِ المزارِ طَرُوقُ
أَسيراً يَعَضُّ القَيدُ ساقيهِ فيهما من الحَلَقِ السُّمرِ اللطَافِ وَثيقُ

والسجن في دلالته النفسية يمثّل السكون، وهذا السكون مرادف للسكون النهائي (الموت) الذي يشعر الشاعر أنه قد اقترب منه، لذلك هو يحاول أن يتخلّص من هذا السكون المهيمن عليه، وهذا مولد حقيقي للشريحة الرابعة من القصيدة إذ يلجأ الشاعر إلى الناقة التي تحمل دلالات رمزية من حيث إنها تأخذ بعض صفات الشاعر نفسه، فهي تمتاز بالقوة والصلابة والشجاعة وهذه صفات أراد الشاعر أن يثبتها لنفسه.

فإذا كان الشاعر قد تألم من بعده عن المحبوبة ومن سجنه مما جعله يعيش في ضيق نفسي كبير، فإن هذا هو الذي دفعه إلى أن ينتقل إلى مشهد أكثر حيوية ونشاطاً من الواقع السابق (السجن)، وهذه ظاهرة غريبة لابدّ من تجليتها لأن الشاعر قال هذه القصيدة وهو في السجن، فكيف يتحدث في هذه الشريحة عن الناقة وسيره في الصحراء وهذا مشهد فيه إشارة إلى الحرية والقوة؟

ولا ترى عجباً في ذلك إذا ما تبيَّن أن الشاعر قد استخدم الناقة والصحراء كرمز للحرية لأنَّ نفسه تحنّ إلى ذلك الأمل، وتحنّ إلى العيش في الصحراء الواسعة على ما فيها من مخاطر تجعل الحياة فيها صعبة وشاقة، وعلى الرغم من ذلك فإن مثل هذه الحياة محببة إلى نفسه لما فيها من مظاهر الحرية لذلك نراه يتذكرها وهو داخل السجن.

ثم هناك منطلق آخر لاستخدام الناقة والصحراء، وهذا المنطلق يدعم الفكرة العامة التي طُرِحت سابقاً وهي أن النص في دلالته العامة يشير إلى رفع "الذات أو الأنا" ولذلك فإن الشاعر أراد من ذكر الناقة والصحراء أن يعبّر عن شجاعته وقوته فهو يتذكر الناقة التي كان يركبها ويخترق بها الفلوات والبوادي، وكانت شاهداً على رحلته وشجاعته قبل أن يُسجن وتُوضع القيود في ساقيه، والشاعر في سجنه ضعيف ليس له إلا هذا الشعر (الفن الذي يتقنه) للدخول إلى عالم البطولة والشجاعة وتحقيق الذات، وهذه ردة فعل مباشرة لما يحس به من ضعف وذل.

والشريحة الخامسة تركّز على تدعيم فكرة البطولة/بطولة الأنا إذ يعرض لصورة من صور الكرم عند هؤلاء الشعراء وذلك من خلال جدله وحواره مع العاذلة التي تلومه على إنفاق المال الذي لا يلصق في يديه وهذا كناية عن إسراف في إنفاق للمال فيقول :

تَقولُ ابنةُ الطَّائي مَاليَ لا أرى　　　بكفيّكَ مِنْ مَالٍ يَكادُ يَليقُ

فالعاذلة هنا تحاول تعرية أنا الشاعر وإزالة قشور البطولة التي يفتخر بها،

ويمكن أن تكون العاذلة هنا هي المرأة التي غالباً ما يكون عذلها إشفاقاً على الشاعر أو أنا الشاعر البطولية لنصحه بعدم الاندفاع والإسراف في إنفاق المال الذي يؤدي به إلى شفير الموت، وقد تكون العاذلة هنا هي صوت القبيلة وضميرها التي ينطلق لإعادة الشاعر إلى حظيرة الواقع وإلى مكانه الحقيقي، وهذا التحليل يؤكد ما أشرت إليه سابقاً في تفسير للمقصود بـ . . . ليلى إذ تمت الإشارة إلى أن المقصود بها (القبيلة أو العشيرة)، ويمكن أن تكون العاذلة هنا هي صوت الشاعر الباطني.

والشاعر لا يستمع لهذا العذل بل يستمر في إنفاق المال ويرفض هذا العذل أعنف الرفض، وهذا يدل على محاولة الشاعر للعلّو بصوته الذي يستند إلى قوة إرادة بطولية، أو لنقل إن رفض العذل هنا هو محاولة لنفي انشقاق الأنا؛ فالعاذلة هنا هي صوت الشاعر الداخلي، والسبب في هذا الانشقاق الذي تعاني منه الأنا هو الإسراف في فعل هذا الشيء غير المرغوب فيه، فيكون رفض العذل هنا بمنزلة عامل مساعد لإعادة الأنا البطولية إلى الطريق المعتدل.

ويقدم بعد ذلك التسويغ الذي دفعه إلى رفض العذل فيبيّن أن الإنسان عليه أن يُنفق ماله وأن يكون ذلك عن سماحة وطيب نفس لأن الوجود الحقيقي للإنسان لا يتم إلاّ بمساعدة الآخرين، فالشاعر يقدم ذاته ضحية في سبيل النحن (الفئة المعدمة في المجتمع) وبهذا تتوحد الأنا (أنا الشاعر) مع النحن أو الفقراء والمحتاجين، لأن تحقيق البطولة لا يتم إلا من خلال النحن وهذا مبدأ من المبادىء التي كان يؤمن بها هؤلاءَ الشعراء، وهذا ما يمكن تسميته (روح التضامن مع الفقراء والمساكين والمحتاجين).

والشاعر في هذه الشريحة يصور نفسه طبيباً نفسياً بارعاً ماهراً يحاول أن يعالج بأبسط السبل وأيسرها، وهذا الشاعر يحاول أن يساعد في تخفيف الفزع والخوف عن الضيف فيتحدث إليه حديثاً طيباً حسناً، ويقابله بوجه بشوش فيقول :

يُزينُ ما أعطيتُ مني سَماحَةٌ   وَوَجهٌ إلى مَن يعتريهِ طليقُ

وتشير الشريحة الأخيرة إلى محاولة الشاعر الارتقاء بقوته وشجاعته. وتمثّل هذه الشريحة محاولة لاسترجاع زمن المجد والقوة مقابل زمن القهر والقمع والظلم الموجود داخل السجن، لذلك يشير إلى بعض صفاته البطولية فهو إنسان يعرض عن السفهاء تكرماً وترفعاً عن الأذى، ويستخدم صيغة المبالغة (تروك) للدلالة عليها لتكون أقوى تأثيراً في النفس، وفضلاً عن ذلك فهو يحافظ على جاره من كل ريبة فيقول :

تَروكٌ لِطَيراتِ الَّفيهِ تَكَرُّماً وذو نزلٍ عِندَ الحِفاظِ غَلُوقُ

وَإن بِنَا عَنْ جارِنَا أَجنَبِيَّةٌ حَياءً ولِلمُهدي إليهِ طَريقُ

ب - شعر الطبيعة :

مضى شعراء العصر الأموي - على نهج أسلافهم - يستلهمون الصحراء مزاوجين على شاكلتهم بين حب الطبيعة وحب المرأة، إذ يفتتح الشاعر غالبا مطولاته بوصف الأطلال، ثم يتحدث عن رحلته في الصحراء، وما قطع من مفاوز على ناقته التي يسهب في وصفها، كما يسهب في وصف فرسه إن كان فارسا، وقد يصف في أثناء ذلك ما تقع عليه عينه من طير وحيوان في الأرض ونجوم وكواكب في السماء.

ووصف الفرزدق في بعض رحلاته إلى دمشق ما كان ينزل عليه وعلى صحبه في طريقه شتاء من نثير الثلج، إذ يقول[1] :

مُستقبلين شمال الشام تضربهم بحاصِبٍ كنديفِ القُطنِ منثورِ[2]

على عمائمنا يُلقى وأرحُلِنا على زواحفَ نُزجيها محاسيرِ[3]

(١) ديوان الفرزدق، ص ٢٦٢ .

(٢) شمال الشام: ريح شمالية. الحاصب: ما تحمله الريح من دقاق التراب أو الثلج. النديف: نثير الثلج والبرد.

(٣) نزجيها: نسوقها وندفعها، محاسير: كليلة.

وقد وصف جرير في بعض مدائحه نهيرات شقها هشام بن عبدالملك في نهر الفرات، وما نبت على ضفافها من زروع ومن أشجار، ومن كل الثمرات إذ يقول[1] :

بها الزيتون في غَلَلٍ ومالت عناقيدُ الكروم فهنّ سُودُ[2]
فتمَّت في النهيىء جنانُ دنيا فقال الحاسدون هي الخلودُ[3]
يَعضُّون الأناملَ أن رأوها بساتينا يؤازرُها الحَصيدُ[4]
ومن أزواجِ فاكهةٍ ونخلٍ يكون لحملِه طَلْعٌ نَضيدُ[5]

وأحيا ذو الرمة (٧٧ - ١١٧هـ) شعر الطبيعة من أقدم العصور إلى وقته، وضمن شعره صور الطبيعة كما مثلها الأدب العربي قبله. على أنه لم يحيه على علاته، وإنما اختار أجمل ما فيه، فأدّاه أداء بارعا، بانفعال ملموس، وشغف ظاهر. وأبرز المعاني الإنسانية في الطبيعة الحية البدوية.

ولعل هذه أهم خاصة تميز وصف الحيوان إذ يحمله عواطف الإنسان ومشاعره، ومن ذلك قوله :

ذكرتك، إذ مرَّتْ بنا أمّ شادن أمامَ المطايا، تشرئبُّ وتسنَحُ[6]
من المُؤلفاتِ الرَّملَ، أدماءُ حُرّةٌ شُعاعُ الضحى في مَتنها يتوضَّحُ[7]
هي الشّبه أعطافاً وجيداً ومُقلةَ وميَّةُ أبهى بعدُ منها، وأملَحُ

(١) ديوان جرير، ص ١٥٠ .
(٢) الغلل: الماء الجاري تحت الشجر على وجه الأرض. الكروم: الأعناب.
(٣) الهنيىء: اسم نهير.
(٤) الحصيد: الزروع التي تحصد ثمارها كالقمح.
(٥) الطلع: ثمر النخيل في إبانه. نضيد: منتظم.
(٦) الشادن: ولد الظبية. تشرئب: ترفع رأسها. تسنح: تعرض.
(٧) المؤلفات الرمل: المقيمة والمستأنسة به، صفة الظبية.

فالشاعر يتذكر مية من خلال ظبية تعبر أمام المطية، تخطر وتمد عنقها، يتألق شعاع الضحى في متنها، لكن محبوبته تظل أبهى وأملح.

ومن صوره الطريفة صورة الحرباء ووصفه لما اشتهر به من استقبال الشمس لاجئاً بظهره إلى بعض العيدان ماداً يديه كأنه مصلوب، يقول :

إذا جـعـل الحـرباءُ يـغـبـرُّ لـونـهُ ويخضرُّ من لَفْحِ الهَجيرِ غَباغِبُه[1]
وَيـشـبـحُ بـالـكَّـفـين شَـبحاً كـأنـه أخو فجْرَةٍ عالَى به الجِذْعَ صالبُه[2]

واتجه الراعي [3] (٧٠٩م/٩٠هـ) في شعره إلى وصف الإبل وتصوير حياتها في المراعي، حتى قال عنه القدماء "كأنه يعتسف الفلاة بغير دليل، أي أنه لا يحتذي شعر شاعر ولا يعارضه[4]، على نحو ما نجده في ملحمته اللامية التي مدح بها عبدالملك بن مروان، وشكا من السعاة، وهم الذين يأخذون الزكاة من قبل السلطان، إذ يقول :

حُـوزِيـةً طُـوِيَـتْ عـلـى زفَـراتِـهـا طَـيَّ الـقـنـاطـرِ قـد بَـزلْـنَ بُـزولا[5]
بُـنـيـت مـرافـقُـهـنّ فـوقَ مَـزِلَّـةٍ لا يـسـتـطـيـعُ بـهـا الـقُـرادُ مقـيـلا[6]
فـي مَـهـمةٍ، قـلـقَـتْ بـه هـامـاتُـهـا قَـلَـقَ الـفُـؤوسِ إذا أَرَدْنَ نُـصـولا[7]
أَبـلـغْ أمـيـرَ الـمـؤمـنـين رسـالـةً تـشـكـو إلـيـكَ مَـظـالـمـا وعَـويـلا

---

(١) الغباغب: الجلد أسفل الحنك.

(٢) يشبح: يمد يديه.

(٣) هو عبيد بن حصين النميري. كان راعي إبل من أهل بادية البصرة. جعله ابن سلام في الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين، وقرنه بجرير والفرزدق والأخطل.

(٤) انظر: حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، ص ٣١٣ .

(٥) حوزية: منحازة عن الإبل لا تخالطها. طويت على زفراتها: الجمل إذا زفر وتنفس انتفخ، أي كأنما خلقت منتفخة.

(٦) لا يثبت القراد على الإبل لنعومة مرافقها.

(٧) اضطربت رؤوس الإبل كما تضطرب الفؤوس في نصابها.

إنَّ السُّعاةَ عَصَوْكَ يومَ أمرتَهُمْ وأتوا دواهي لو عَلمتَ وغُولا[1]

أنتَ الخليفةُ، عدلهُ ونوالُه وإذا أردْتَ لظالمٍ تنكيلا

فارفعْ مظالمَ عيَّلتْ أبناءَنا عنا، وأنقذ شِلْوَنا المأكولا[2]

وهكذا نجد الراعي يصور رحلة الإبل مجتمعة، مع حاديها، ويصف دقائق هذه الرحلة، ليمهد بذلك إلى غرضه الرئيس، وكثيراً ما كان الراعي يضيف إلى ذلك كثيرا من عادات البدو في إكرام الضيف ونحر الإبل والشجاعة وما إلى ذلك. ومن هنا عرفت قصائده بالراعويات، وقد شاركه في هذا الفن ذو الرمة.

ج - الخمريات :

حرَّم الإسلام الخمرة وشدد في عقاب شاربها، على نحو ما فعله عمر بن الخطاب < بأبي محجن الثقفي، وقصة صلاة الوليد بن عقبة والي الكوفة لعهد عثمان < بالناس وهو سكران مشهورة. غير أن مثل هذا الاختراق كان محدودا في عهد الخلفاء الراشدين [3].

ونحن لا نمضي في عصر بني أمية حتى نجد أناسا يجاهرون بشربها ويعاقرونها سرا وعلانية، إذ كثر العمران وفاضت الأموال، فأسرفوا في اقتناء الخدم والجواري والقيان متفرغين إلى العبث واللهو.

ولعل الأخطل كان أهم رائد لشعر الخمرة في العصر الأموي، لكثرة ما أدمنها في حياته، ولشدة تردده بذكرها في شعره، وقصة مزاحه مع عبدالملك بن مروان وهو سكران معروفة [4]. وأهم شعره فيها ورد من خلال قصائده المدحية، إذ يتشبه بالسكران الذي افتقد وعيه، من مثل قوله :

---

(١) الغول: المهلكة.

(٢) عيلت: أفقرت. الشلو: العضو الممزق.

(٣) انظر: شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص ٣٧٧ .

(٤) الشرب : جمع الشارب، وهو الذي يشرب الخمرة.

صريع مدام يرفع الشرب رأسه ليحيا، وقد ماتت عظام ومفصل[١]

إذا رفعوا عظما، تحامل صدره وآخر، مما نال منها، مخبل

ثم ينتقل إلى وصف الخمرة، فيقول :

تدبُّ دبيبا في العظام كأنه دبيبُ نمل في نقا يتهيل[٢]

فقلت: اقتلوها عنكم بمزاجها فأطيب بها مقتولة حين تقتل[٣]

حاول الأخطل أن يجدد في شعر الخمرة ولم يتيسر له ذلك، فجعل يمازج المعاني ويعقدها ليوهم بالتجديد. وظلت الخمرة في شعره تقليدية، ترد ضمن قصيدة المدح أو الهجاء وتعنى بالصورة المادية وتجاري روح الأسلوب القديم.

وإذا كان الأخطل هو رائد هذا الفن في عصر بني أمية فإن الوليد بن يزيد[٤] (ت ١٢٦هـ) هو أستاذ فن الخمريات في هذا العصر، "إذ لم تعد أشعار الخمر عنده توضع في ثنايا قصيدة أو في مقدمتها، بل أصبحت تنظم في مقطوعات، لها وحدتها الموضوعية والمعنوية، تنبض بالحياة" [٥]، وقد يقبل على الخمرة أحياناً إقبال وصف وشجو، متغنيا بالخمرة غناء أبي نواس بعده، من ذلك قوله :

اصدعْ نجيَّ الهمِّ بالطَّربِ وانعمْ على الدّهرِ بابنةِ العنبِ[٦]

واستقبلِ العيشَ في نضارته لا تَقْفُ منه آثارَ مُعتَقِبِ[٧]

من قهوةٍ زانها تقادُمها فَهْي عجوزٌ تعلو على الحِقَبِ[٨]

---

(١) انظر الاغاني،

(٢) النقا: ما ارتفع من الرمل. يتهيل: ينحدر.

(٣) قتل الخمرة: مزجها بالماء.

(٤) ولي الخلافة بعد هشام بن عبدالملك سنة ١٢٥هـ، ثم قتله ابن عمه يزيد بن الوليد لمجونه، تؤازره اليمانية ثأرا لخالد القسري وما كان من تعذيبه له وقتله.

(٥) شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص ٣٨٢ .

(٦) يدعو نديه أن يزيل ما يعتريه من هموم بالغناء، وأن ينعم أبدا، بمعاقرة الخمرة المعتصرة من العنب.

(٧) يدعوه إلى ينعم بطيب العيش الغض والا يجري مع الذين يجهلون معنى الحياة.

(٨) يصور الخمرة المعتقة بعجوز تجاوزت الأيام والسنين.

أشهى إلى الشَّربِ يومَ جلْوَتِها ... من الفتاة الكريمةِ النَّسَبِ[1]
كأنها في زُجاجها قَبسٌ ... تزهو ضياءً في عينِ مُرتقِبِ[2]

وهناك شاعر آخر يعد متمما للوليد بن يزيد، هو أبو الهندي[3]، إذ رفع معه الشعر العربي إلى تمثل الخمرية بكل شياتها المعنوية والموسيقية، إلا أنه ذهب مذهب الشعوبية فيها.

ومع انقطاعه النهائي عن الخمرة بعد أن تقدمت به السن وتاقت نفسه إلى الراحة، فقد تمنى أن يضمها إلى صدره في قبره، فلا تزايله حيا ولا ميتا، يقول :

اجعلوا - إن مت يوما - كفني ... ورق الكرم وقبري معصرة
وادفنوني وادفنوا الراح معي ... واجعلوا الأقداح حول المقبرة

وعلى هذا النحو مضى أبو الهندي في طريق الخسران إلى الأنفاس الأخيرة من حياته، يصدح بخمرياته، ويتخذ الخمر وحي إلهامه.

كانت الخمرية في هذا العصر أدنى إلى التقليد وإن حاولت التحرر من الوصف الخارجي المغرق في الحسية والعبارة المتجهمة.

ولا نكاد نقع منه على خمرية تضاهي خمريات الأعشى في الجاهلية وقصائد أبي نواس في العصر العباسي.

د - الأراجيز :

الرجز من البحور القديمة في الشعر، إذ كان يستخدم في الجاهلية، فكان وزنا شعبياً يدور على ألسنة الناس؛ وقلما نظم فيه الفحول.

---

(١) إنها تثير رغبة الشاربين بها وتبدو كالفتاة الكريمة الأصل يوم تجلى إلى زوجها.

(٢) يمثل ألقها في كأسها بالضوء المتوهج في حدقة الناظر.

(٣) هو غالب بن عبدالقدوس التميمي، عاش في خراسان ثم سجستان، عرف بالفسق ومعاقرة الشراب، مات في خلافة المنصور.

والأرجوزة هي الشعر المنظوم على بحر الرجز، ووزنه التام "مستفعلن" ست مرات، وقد استخدم بكثرة في العصر الجاهلي، وكَثُر فيه المشطور[1] والمنهوك[2]، كما أنه لم يطل إذ كان لا يتجاوز البيتين والثلاثة إلا نادرا، وقد عمد إليه العرب في الحداء والاستسقاء على الآبار وحين يجولون في ميادين الحروب، وقيل إنهم حاكوا به وقع أقدام إبلهم في سيرها وسراها، وهيَّأة ذلك لأن يكون من أكثر الأوزان وأوفرها لحنا ونغما لاقترانه بالحركة الدائبة.

وأول من أطاله وجعله كالقصيد هو الأغلب العجلي (ت ٢١هـ). وأبرز الرجاز جميعا العجاج وابنه رؤبة اللذان انتهت إليهما صناعة الرجز، وشركهما في ذلك أبو النجم العجلي، ويقول ابن سلام: "إنه أبلغ في النعت من العجاج"[3]. وله أرجوزة مشهورة يستهلها بقوله :

الحمد لله الوهوب المجزل ... أعطى فلم يبخل ولم يبخل

وفي أخباره أنه قدم على زياد بن أبيه فرهبه رهبة شديدة، وخرج من عنده، وهو يقول [4] :

أقبلتُ من عند زياد كالخَرِفْ ... تخطُّ رجلايَ بخط مُختلفْ

تُكَتِّبان في الطريق لام ألفْ

وقد أدى هؤلاء الرجاز جميع الأغراض الشعرية إلا أنهم كانوا يقصدون بفنهم التعبير عن غرائب اللغة، ولهذا ظفرت أراجيزهم بإعجاب علماء اللغة، وإن لم تظفر بإعجاب الخلفاء وسواد الناس، كما لم تظفر برضى الفن الشعري الخالص.

---

(١) المشطور: ما اسقط منه شطره.

(٢) المنهوك: ما ذهب ثلثاه.

(٣) طبقات فحول الشعراء، ص ٥٧٦ .

(٤) ابن جني، الخصائص، ٣/ ٢٩٧ .

نموذج من الرجز لأبي النجم العجلي[1]:

من الصعب أن نجد في الرجز الأموي أبياتاً سهلة، وقد اخترنا هذه الأبيات من رجزه لسهولتها، وهي في وصف فهود عبدالملك بن بشر بن مروان، وهو يستهلها بقوله :

إنــا نــزلــنــا خــيــرَ مَــنــزلاتِ بــيــن الحُــمَــيــراتِ المُــبــاركــاتِ
فــي لحــمِ وحــشٍ وحُــبــاريَــاتِ وإن أردنــا الــصّــيــدَ ذا الــلــذاتِ[2]
جــاء مُــطــيــعــا لمــطــاوعَــاتِ عُــلِّــمْــنَ أو قــد كُــنَّ عــالمــاتِ
فــهــيَ ضــوارٍ مــن مُــضــرَّيــاتِ تُــريــك آمــاقــا مُــخــطَّــطــاتِ
سُــوداً عــلــى الأشــداقِ ســائــلاتِ تَــلــوي بــأذنــابٍ مُــوقَّــفــاتِ

وكثير من رجزه على هذه الشاكلة، بعيد عن التقعر والإغراب، غير أنه "كان يتوسَّع في الكلام ويحمل بعضه على بعض ويشتق بعضه من بعض"[3] .

---

(١) هو الفضل بن قدامة، كنيته أبو النجم. يعد من كبار الرجاز في العصر الأموي. أراجيزه ذات موضوعات بدوية، وقد أشاد اللغويون بحسن وصفه للخيل. وصل إلى قمة نجاحه في خلافة هشام بن عبدالملك (ت ١٢٥هـ). ويبدو أنه توفي عن نيف وسبعين عاماً، قبل سنة ١٢٥هـ (انظر: فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، المجلد الثاني، الجزء الثالث، ص ٩١، ٩٢).

(٢) حباريات : جمع حبارى وهو طائر.

(٣) ابن جني، الخصائص، ١/ ٢٣٠ .

الفصل السابع

النثــــر

ازدهر النثر الفني في العصر الأموي، وازداد توسعاً. وعمد إلى الصنعة ولكن في اقتصاد، وكانت قاعدة البلاغة فيه الإيجاز. وقد انحصر في ثلاثة أنواع: الخطابة، والكتابة الفنية، والقصص الدينية. وسنقف في دراستنا هذه على النوعين الأول والثاني.

أولاً - الخطابة:

ازدهرت الخطابة في العصر الأموي ازدهارا، لعل العرب لم يعرفوه في أي عصر من عصورهم القديمة.

وقد أسهمت عوامل كثيرة في ذلك منها:

١ - كثرة الأحزاب السياسية والمذاهب الدينية وتناحر هذه الأحزاب والمذاهب ليثبت كل منها أنه على الحق وأن منافسه على الباطل.

٢ - ازدهار الوعظ الديني وبروز وعاظ متخصصين في هذا الفن، كانوا ينتهزون كل فرصة للخطابة الدينية، فضلا عن الخطب المفروضة كخطب الجمع والأعياد ومواسم الحج.

٣ - موهبة العرب البلاغية وفصاحتهم الفطرية، فالعرب أمة ذات مواهب مشهود

لها في البلاغة حتى لقد فضلها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين على جميع أمم الأرض في فن الخطابة [1].

٤ - كثرة الوفود التي كانت تفد على الخلفاء والأمراء من الأقاليم لتعرض أحوالها ومشكلاتها على المسؤولين وكان ذلك العرض يتم على هيئة خطب.

أما أنواع الخطابة فكانت تختلف باختلاف دواعيها، فمنها:

١ - **الخطابة السياسية:** وقد نمتْ في هذا العصر ونهضت نهوضا عظيما، إذ دارت على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة. وكان من أهم خطبائها زياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف من الحزب الأموي، وأبو حمزة الخارجي وقطري بن الفجاءة، وعمران بن حطان من حزب الخوارج.

٢ - **خطب المحافل والوفود:** ومعاوية هو أول من فتح أبوابه على مصاريعها للوفود التي كانت ترد تباعا إلى ساحته، تعلن تارة ولاءها، وتارة تعرض ظلامة لها، وهو دائم الحفاوة بها، وتبعه الخلفاء الأمويون يستنون سنته. وممن اشتهر بالخطابة بين يديه سحبان، خطيب وائل، وقد اشتهر بخطبته الشوهاء التي خطب بها عنده. والأحنف بن قيس خطيب تميم الذي لا يدافع.

٣ - **خطب الوعظ والقصص:** نشط الوعظ والقصص الديني في هذا العصر نشاطا عظيما، وانتشر الوعاظ في البلاد الإسلامية. ومن كبار وعاظ العصر وقصاصه الحسن البصري، وواصل بن عطاء.

ومن مشاهير الخطباء: زياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي، وأبو حمزة الخارجي، وقطري بن الفجاءة.

(١) انظر: شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص ٤٠٥ .

(أ) زياد بن أبيه (ت ٦٧٣م/٥٣هـ)

١ - حياتـه :

أبو المغيرة زياد بن سمية المعروف بزياد ابن أبيه من أهل الطائف، وقد اختلف المؤرخون في سنة مولده فذهب الكثيرون منهم إلى أنها السنة الأولى للهجرة، واختلفوا في من هو أبوه، فقيل عُبيد الرومي- وهو غلام للحارث بن كلدة- وقيل أبو سفيان. وكانت أمه سمية جارية للحارث بن كلدة الثقفي. فأسلم الغلام في عهد أبي بكر وظهرت عليه النجابة منذ حداثته، فاتخذه أبو موسى الأشعري كاتبا له أيام إمرته على البصرة، ثم ولاه علي بن أبي طالب إمرة فارس فأخمد ثورتها وضبطها؛ ولما توفى علي امتنع زياد على معاوية وتحصن في قلاع فارس، فجد معاوية في استمالته لما عرف من شدته وحسن إدارته وبعد نظره، واستلحقه بنسبه بعد أن شهد ناس من المسلمين أنه ابن أبي سفيان، وكتب إليه بذلك وأمنه، فسار إليه زياد وسلمه ما لديه من خراج فارس ويقدر بمليون دينار، فولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان ثم جمع له الهند والبحرين وعُمان، ولم يزل في تلك الولاية حتى توفي سنة ٦٧٣م/٥٣هـ.

وكان العراق في تلك الفترة من الزمن يضطرب بالثورة ويعج بالخوارج، فكان زياد حربا عليهم، فاشتد على المعارضة حتى اضطرها إلى السكينة والإذعان، وقد لجأ إلى الوسائل الفعالة، وبطش بالمشاغبين والمفسدين بطشا شديداً، حتى استتب الأمن في البلاد. فكان زياد أبرع شخصية تقلدت الولاية في عهد الأمويين ومن أقوى أهل زمانه بطشاً وشدة مراس؛ وقد قال الأصمعي: "الدهاة أربعة: معاوية للروية، وعمرو بن العاص للبديهة، والمغيرة بن شعبة للمعضلة، وزياد لكل كبيرة وصغيرة"(١) وبذلك يُعدّ سياسيا ماهرا بعيد النظر بحسن تصريف الأمور إلى أبعد غاية .

---

(١) انظر: الأغاني، ص ٣/١٦ وما بعدها.

٢ - آثاره :

لزياد خطب سياسية وإدارية متفرقة في كتب الأدب، أشهرها الخطبة المعروفة بالبتراء لأنه لم يبتدئها بحمدالله كما يفعل الخطباء عادة. (١)

ألقاها سنة ٦٦٥م/ ٤٥هـ حين قدم البصرة واليا من قبل معاوية "فوجم لها الناس، فمنهم من أذعن لها خائفا، ومنهم من أثنى متملقا، ومنهم من حاول الإنكار، ولكن سياسة زياد العملية لم تلبث أن بينت للناس أنه جاد غير هازل في ما أعلن من نذير" . (٢)

من الخطبة البتراء

أما بعد: فإن الجهالة الجهلاء(٣)، والضلالة العمياء، والغيُّ الموفيَ بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور التي يشب فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته.

قرّبتم القرابة، وبعّدتم الدين، كل امرىء منكم يذبُّ عن سفيه، صُنعَ من لا يخاف عاقبةً ولا يرجو معاداً. ما أنتم بالحلماء، وقد اتبعتم السفهاء.

حرام عليَّ الطعام والشراب، حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقا، إني رأيت آخر هذا الامر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، لينٌ في غير ضعف، وشدة في غير عنف. وإني لأقسم بالله لآخذنَّ الولى بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيعَ بالعاصي والصحيح بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: "انجُ سعد، فقد هلك سُعيد"، أو تستقيمَ قناتكم. وإياي ودلَج(٤) الليل، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه، وإياي ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد داعيا بها إلا قطعت لسانه.

(١) انظر: البيان والتبيين، ٢/ ٦٢ .

(٢) انظر: حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، ص ٣٢٨ .

(٣) الجهلاء: وصف مؤكد كما تقول ليلة ليلاء.

(٤) الدلج: السير ليلا.

ولقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، ولقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرّق قوما غرقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه، ومن نقبَ بيتا نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبرا دفناه فيه حيا.

وايم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاي (١).

أجزاء الخطبة :

١ - توبيخ لأهل البصرة بسبب تعاونهم على الفتنة وتفضيلهم القرابة على الدين.

٢ - تهديد للعصاة بأن يؤخذوا بأشد أنواع العقوبات، أو ما يسمى بالأحكام العرفية التي تأخذ الطائعين بذنب العصاة.

٣ - تحذير من السير ليلا (وهذا هو منع التجول) ومن دعوى الجاهلية.

٤ - تنديد بالجرائم التي ابتكرها أهل البصرة وفرض عقوبات تناسبها.

٥ - خاتمة عنيفة تحذر كل مواطن أن يكون ضحية للفتنة.

تعليق :

هذه الخطبة من أبلغ الخطب العربية. وهي تستمد روعتها من الأمور الآتية:

١ - التقسيم الرائع إلى فِقَرٍ متناسبة متوازية تحدث موسيقى مؤثرة ووقعا بليغا.

٢ - التأثر الواضح بأسلوب الإمام علي من حيث الصراحة والشدة ومن حيث البلاغة والتأثير.

٣ - التأثر العميق بالألفاظ الإسلامية وخصوصا في الجزء الأول من الخطبة.

٤ - السجع غير المتكلف الذي جمّل الأسلوب وجعل له رنينا مؤثرا.

٥ - تصور الخطبة ما صار إليه أهل البصرة من فساد وانحراف، فقد عاث فيها اللصوص والفُسّاق، واضطرب حبل النظام. ثم استطاع زياد بسياسته ردّ الأمن إلى البصرة.

---

(١) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ٢/٦٥ .

القيمة الفنية :

لهذه الخطبة قيمة فنية؛ إذ قامت على حسن التأليف وشدة العاطفة وروعة الأسلوب.

فالخطبة البتراء حسنة التأليف، مقسمة إلى فِقَر، وكأن لكل فِقرة وحدة قائمة بنفسها على غير ما عهدناه في الخطابة القديمة، تتسلسل الأفكار في إيجاز محكم من غير غموض ولا تعسف، في قوة تستمدها من عاطفة شديدة تعصف بالكلام عصفا، فيجري على الأساليب المتنوعة متقلبا بين تحذير وتهديد ووعد ووعيد، وضروب من الاستفهام والقسم والتعجب وما إلى ذلك مما يكسب الكلام حياة قوية فيُبقي في النفوس أثرا عميقا.

كل ذلك في صياغة حسنة وعناية باللفظ ظاهرة، وعبارات لا تخلو من التشبيه والاستعارة، وموسيقى شديدة الإيقاع. فلا عجب بعد ذلك كله أن قال الشعبي: "ما سمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن إلا تمنيت أن يسكت خوفا من أن يسيء إلا زيادا فإنه كلما أكثر كان أجود كلاما". [1]

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ٢/ ٦٥ .

(ب) الحجاج بن يوسف (٤١-٩٥هـ)

نسبه ونشأته

أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي ولد بالطائف نحو سنة ٦٦١م/ ٤١هـ. ونشأ نشأة فقيرة، فكان هو وأبوه وأخوه يعلّمون الصبيان. ولكنه كان طموحا يتطلع إلى المجد، ولذلك ترك التعليم وانتظم في سلك جيش يزيد بن معاوية، وفي عهد عبدالملك بن مروان انضم إلى الشرطة، ثم ولي على جند عبد الملك فضبط أمرهم وجعلهم كالخاتم في إصبع الخليفة، ولما رأى حزمه وشجاعته وجّهه لقتال عبدالله بن الزبير بمكة المكرمة فحاصرها ورمى الكعبة بالمنجنيق، وقتل ابن الزبير وقطع رأسه وبعث به إلى الحجاج، ثم صلبه فأوقع الرعب في قلوب أهل الحجاز.

ثم تولى العراق عشرين سنة، فأخذ الناس بالشدة، وأرجع الأمن إلى نصابه. هزم ابن الأشعث بدير الجماجم قرب الكوفة سنة ٨٢هـ وقد توفي الحجاج سنة ٧١٤م/ ٩٥هـ بعد حياة ملأها بالأعمال الإصلاحية والإدارية والعمرانية، وتسيير الجيوش لتوسيع رقعة الدولة الإسلامية.

صفات الحجاج :

١ - كان الحجاج من عظماء الرجال، ذكره ابن خلدون في الوزراء الذين عظمت آثارهم وطغت على الخلفاء أخبارهم. وكان الحجاج شجاعا ولم يكن يخلو من السياسة. ولكن عيبه الشديد في قسوته التي تجاوزت الحد، فقد قتل التابعي سعيد بن جبير.

٢ - كان الحجاج خطيبا بارعا يفتح ببيانه القلوب المقفلة.

٣ - كان مصلحا إداريا حازما، بنى مدينة واسط واتخذها مقرا له. ونقل لغة الدواوين من الفارسية إلى العربية، وسك العملة باللغة العربية وكتب على الدراهم لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولبى نداء امرأة سُبيت في الهند، فأنفق سبعة ملايين من الدراهم حتى هزم الأعداء وخلصها.

العوامل التي أثرت في أدبه :

١ - ثقافته اللغوية والأدبية: فقد نشأ معلما وتمتع بثقافة واسعة في اللغة والأدب، وكان لا يلحن في جد ولا هزل.

٢ - حفظه القرآن الكريم وفهمه لكثير من أحكام الدين، مما جعله يستشهد في خطبه بالقرآن.

٣ - فطرته ومواهبه الأصيلة، فهو من قبيلة ثقيف التي تعد أقوى قبائل الحجاز بعد قريش، ثم إنه ولد بخصائص عقلية ونفسية. ولعل قصره ودمامته وعور عينه كان لها أثر في شخصيته.

٤ - الفتن والثورات التي كانت طابع عصر الحجاج هي التي كشفت مواهبه وقدراته.

نموذج من خطبه :

خطبة الحجاج في مسجد الكوفة [١]:

أنا ابنُ جلا وطلّاعُ الثنايا متى أضع العِمامة تعرفوني[٢]

يا أهل الكوفة، إني لأرى رؤوسا قد أينعت، وحان قطافها، وإني لصاحبها وكأني أنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى. إني والله يا أهل العراق، ومعدنِ الشقاق والنفاق، ومساوىء الأخلاق، ما يقعقع لي بالشنان[٣]، ولا يغمز جانبي كتغماز التين، ولقد فررت عن ذكاء[٤] وفتشت عن تجربة، وجربت إلى الغاية القصوى. وإن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نثر كنانته[٥] بين يديه، ثم

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ١٤١/٢ .

(٢) هذا البيت لشاعر مخضرم هو سحيم بن وثيل الرياحي ابن جلا: الواضح المعروف، الثنايا: جمع ثنية وهي الطريق في الجبل.

(٣) الشنان: جمع شن، وهو الجلد.

(٤) فررت عن ذكاء: اختبرت فوجدت ذكيا.

(٥) الكنانة: جعبة السهام.

عجم[1] عيدانها، فوجدني أمرَّها عودا، وأصلبها مكسراً، فرماكم بي، لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغي.

أما والله لألحونكم[2] لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروة[3]، ولأعصبنكم[4]، عصبَ السلمة[5]، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل[6]، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقا رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، أما والله لتستقيمنُ على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده.

وإنَّ أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أُوجّهكم لمحاربة عدوّكم مع المهلّب بن أبي صُفرة. وإني أُقسم بالله لا أجدُ رجلاً تخلَّف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربتُ عنقه، وأنهبتُ ماله، وهدمتُ منزله.

مناسبة النص:

في سنة ٧٥ هـ ولّى عبد الملك بن مروان الحجاج أمر العراق وأعطاه سلطات مطلقة لكي يقمع الفتن، فتوجه إلى مسجد الكوفة وألقى هذه الخطبة الرائعة.

وقد حدَّث بعض من سمعوا الخطبة فقال: "بينما نحن جلوس في المسجد الجامع بالكوفة، إذ أتى آت فقال: هذا الحجاج قد قدم أميرا على العراق فإذا به قد دخل المسجد متقلدا سيفه متنكبا قوسا وقد تلثم بعمامته، فما تبدو إلا عيناه، فصعد المنبر، ومكث ساعة لا يتكلم. فقال الناس قبح الله بني أمية يُؤَمِّرون هذا الأحمق، وقال أحد المهرجين: ألا أحصبه لكم بحصاة؟

---

(١) عجم: ذاق، اختبر.
(٢) لحا العصا: قشرها.
(٣) المروة: حجارة الصوان.
(٤) عصب الشيء: طواه، لواه.
(٥) السلمة: نوع من الشجر.
(٦) الإبل الغريبة القادمة لورود الماء فتضرب وترد عنه.

ولما رأى الحجاج عيون الناس تنظر إليه حسر اللثام عن وجهه ونهض فقال: أنا ابن جلا وطلاع الثنايا، وانطلق كالسيل الهادر.

ولما فرغ من الخطبة قال لغلامه: يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين. فبدأ يقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) من عبدالله أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين. سلام عليكم فسكتوا. فقال الحجاج: اكفف يا غلام. والتفت إلى الناس فقال: أيسلم عليكم أمير المؤمنين ولا تردون؟ والله لأؤدِّبنكم غير هذا الأدب. فلم يبق في المسجد أحد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام.

التعليق:

يُعَدُّ الحجاج في الذروة من أهل الخطابة والبيان في العصر الأموي، حتى ليوضع مع زياد بن أبيه في طبقة واحدة، وإن فضله زياد بحلاوة منطقه فقد كان يمتاز بجزالة اللفظ وفخامته.

وأسلوب الحجاج في هذه الخطبة له مميزات منها:

١ - يعمد إلى الإغراب لتفخيم الأمور وتهويلها على السامعين، وهو يكثر من الصور المفزعة، والألفاظ الزاجرة، والأشعار الغريبة، في تحبير وتنميق.

٢ - إيجاز العبارة وجزالتها، وسرعة تدفقها، وشدة موسيقاها، يقع فيها سجع غير متكلف.

٣ - الاقتباس من القرآن الكريم.

٤ - تتجلى في معاني الحجاج وألفاظه شخصيته، فيبدو لمن يسمعه فصيحا فاتكا داهية شجاعا.

التقويم الذاتي :

السؤال الأول : اذكر مناسبة الخطبة كما رواها شاهد عيان.

السؤال الثاني : تتجلّى في الخطبة ثقافة الحجاج الدينية. ففي أي المواضع تظهر؟

السؤال الثالث : ماذا يقصد الحجّاج بقوله: "إنّ أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه"؟

السؤال الرابع : كيف تبدو، شخصية الحجاج من خلال هذه الخطبة؟

السؤال الخامس : أيُّهما أكثر لباقة في خطبته: الحجاج في هذه الخطبة، أم زياد في خطبته البتراء؟ التقط مقطعين في التهديد ووازن بينهما.

السؤال السادس : ما الأمر العاجل الذي أمر به أهل الكوفة؟ ولماذا قرنه بالرواتب؟

السؤال السابع : ما وجه الشبه بين الرؤوس والثمار؟

السؤال الثامن : اذكر من خطبة الحجاج مقطعا مسجوعا. ثم وضّح طبيعة سجعه.

(ج) أبو حمزة الشاري

اسمه المختار بن عوف الأزدي، وهو من البصرة، يعد من زعماء الخوارج الإباضية، وكانوا يدعون الشراة، لإنهم شروا (باعوا) أنفسهم لله. ومن هذا المنطلق لقب أبا حمزة الشاري.

ثار على مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وطلب البيعة لزعيم الشراة عبدالله بن يحي الكندي في حضرموت. وقد احتل أبو حمزة مكة والمدينة، ثم هزمه الأمويون بقيادة عبدالملك السعدي، في وادي القرى، ثم لحقه إلى مكة حيث دارت بينهما معركة انتهت بمصرع أبي حمزة سنة ١٣٠هـ.

خطبته بمكة المكرمة[١]

جو النص:

خطب أبو حمزة هذه الخطبة في مكة، ويقال بل ألقاها في المدينة، حين سمع الناس يتهامسون فيما بينهم بأن الشراة حفنة من الشباب الذين تنقصهم التجربة والرأي السديد. وهو في خطبته يدافع عن الشباب عامة وعن شباب الخوارج خاصة.

النص:

يا أهل مكة، تعيرونني بأصحابي، تزعمون أنهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلا شبابا؟ شباب والله مكتهلون[٢] في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، بطيئة عن الباطل أرجلهم، أنضاء[٣] عبادة، وأطلاح[٤] سهر، ينظر الله إليهم في جوف الليل، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وجباههم[٥]. واستقلوا ذلك في جنب الله، حتى إذا

---

(١) انظر: البيان والتبيين، ٢/ ١٢٢ .

(٢) مكتهلون: كبار عقلاء.

(٣) أنضاء: جمع نضو، وهو النحيف المهزول.

(٤) أطلاح: جمع طلح، وهو النحيف المهزول.

(٥) ركبهم وأيديهم وجباههم: مواضع السجود.

رأوا السهام قد فُوِّقت[1]، والرماحَ قد أُشرعت، والسيوفَ قد انتضيت، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت، استهانوا بوعيد الكتيبة لوعد الله، فمضى الشبابُ منهم قُدُماً، حتى تختلف رجلاه على عُنق فرسه[2]، وخُضِّبتْ محاسن وجهه بالدماء، وعُفِّر جبينه بالثرى، فأسرعت إليه سباعُ الأرض، وانحطّت عليه طيرُ السماء. فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من كفٍّ فارقت معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله. وكم خدٍّ عتيق[3]، وجبين رقيق، فُلِقَ بِعَمَد الحديد. رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحها الجنان.

ولعل هذه الخطبة تعد أروع خطبة للخوارج؛ إذ قيلت في عبارة بليغة، وأسلوب فصيح، وعاطفة جياشة، وأداء قوي. وجمعت أيضاً بين التأثير النفسي، وقوة الحجة والنغمة الصوفية الحزينة، حتى قيل فيهم: "لكلام هؤلاء أسرع إلى قلوب الناس من النار إلى اليراع". وقد قال عبدالملك بن مروان في خارجي جادله في مذهبه: "لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم، وأنا أولى منهم بالجهاد"[4].

(١) فُوِّقت: وُضع لها فُوق اي ريش تمهيدا لإطلاقها.
(٢) تختلف رجلاه على عنق فرسه: يسقط عنها قتيلا.
(٣) عتيق: جميل كريم الأصل.
(٤) انظر: محمد عبدالقادر أحمد، دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي، ص ٤٢ و٤٣.

التقويم الذاتي:

السؤال الأول : ما موضوع الخُطبة الرئيس؟ وما الذي حمل الخطيب على طَرْقه؟

السؤال الثاني : علل ما يأتي:

أ - تعدُّ هذه الخطبة من أشهر الخطب الإسلامية.

ب - العاطفة في هذه الخطبة جياشة.

ج - أسهب أبو حمزة في وصف القتلى.

السؤال الثالث : صوّر أبو حمزة الشباب بصورتين متقابلتين، اذكرهما.

السؤال الرابع : في الخطبة مواضع من الإطناب. حدّدها وبيّن الغرض البلاغي منها.

السؤال الخامس : في الخطبة محسنات بديعية. استخرجها ثم بيّن نوعها.

السؤال السادس : بمَ تتسم معاني الخطبة؟ ومن أين انتزعها الخطيب؟

ثانياً - الكتابة الفنية :

تطورت الكتابة في العصر الأموي، نتيجة امتداد رقعة الدولة الإسلامية وامتزاج العرب بغيرهم من الشعوب، وأخذهم بقسط وافر من التحضر، وتنظيم حكومتهم، وتعدد دواوينهم.

وقد يكون أول من ظهر تفوقه في صناعة الكتابة هذه سالم بن عبدالله مولى هشام بن عبدالملك، ثم تلميذه عبدالحميد بن يحيى الذي نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية، وصار إمام هذه الصناعة حتى لُقِّب بالكاتب تعظيما لشأنه، وحتى قيل: "بدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد" .

أنواع الكتابة :

تعددت أنواع الكتابة في العصر الأموي، فكانت ترسلا وتصنيفا. وكان الترسل على أنواع منها:

١ - الرسائل السياسية الصادرة عن ديوان الرسائل، ويلحق بها التوقيعات.

٢ - الرسائل الإخوانية في العتاب والشوق والشكر والتهنئة.

وأصبحت لفظة رسالة في آخر ذلك العصر وفيما بعده خصوصا تطلق أيضا على أبحاث طويلة في موضوعات شتى.

أما التصنيف فقد وجهت إليه العناية، وظهرت مصنفات في التاريخ إلا أنها لم تبلغ من الفن ما بلغته الرسائل. وسنقف على دراسة زعيم كُتّاب ذلك العصر، عبدالحميد بن يحيى الكاتب.

عبدالحميد الكاتب (ت ٧٥٠م/ ١٣٢هـ)

نشأته وحياته :

عبدالحميد بن يحيى بن سعد الكاتب ويعرف بعبدالحميد الأكبر تمييزا له من عبدالحميد الأصغر كاتب سليمان بن عبدالملك، وكان الجاحظ قد أطلق عليه هذه التسمية، ونصح الكتَّاب أن يتخذوا كتابته نموذجا لهم(١) .

ولد حوالي سنة ٦٠هـ في مدينة الأنبار بالعراق وسكن الرقة، لم يكن عربي الأصل بل كان من أصل فارسي.

وكان في أول أمره معلما للصبيان، ثم التحق بديوان هشام بن عبدالملك، وأعجب به سالم بن عبدالله كاتب هشام فأصهر إليه، وما زال به حتى خرّجه كاتبا لا يبارى، ثم أصبح كاتب مروان بن محمد أيام كان عاملا لهشام على أرمينية، ولما تولى مروان الخلافة (١٢٧ - ١٣٢هـ) أصبح عبدالحميد رئيس ديوانه.

ثم لما قامت الدعوة العباسية وزحفت جيوش العباسيين وهزم مروان في موقعة الزاب ولّى وجهه معه إلى مصر حيث قتلا معا في بوصير.

أما ما يزعمه بعض الرواة أن السفَّاح عذبه حتى مات أو أنه اختفى عند ابن المقفع قبل عثور السفاح عليه، فهي مزاعم لا تؤيدها الروايات الصحيحة، ولعل مما يدل على أنه قتل في مصر أننا نجد بها أبناءه وأحفاده، وقد استخدمهم بعض الولاة في دواوينهم(٢).

صفات عبدالحميد :

كان عبدالحميد على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة، وكان ورعا تقيا مشهودا له بالعفاف والاستقامة.

---

(١) انظر: الجاحظ، رسائله، ص ٤٢ .

(٢) انظر: الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٨٢ .

ومن أبرز صفاته الوفاء للصداقة، فقد ظل على وفائه لمروان حتى قتل معه ورفض أن يتحول إلى بني العباس، وكان مروان قد طلب منه ذلك.

ومن صفات عبدالحميد إخلاصه في عمله وإخلاصه أيضاً لكل من يحترف حرفة الكتابة. وتزعم بعض الروايات أن جنود بني العباس اقتحموا البيت الذي فيه عبدالحميد فوجدوه هو وعبدالله بن المقفع فسألوهما من منكما عبدالحميد؟ فجعل كل منهما يقول: أنا. وأخيراً تقدم عبدالحميد وأثبت لهما بالشواهد أنه هو فأخذ وقتل.

ومن صفاته التي تحلى بها أنه كان واسع الثقافة في العلوم الإسلامية والعربية عميق الفهم للقرآن الكريم، وكان إلى ذلك بعيد النظر في شؤون السياسة والحكم والمسائل العسكرية، كما كان على خبرة ممتازة بوسائل تربية الأبناء وولاة العهود.

مصادر ثقافته :

استقى عبدالحميد ثقافته من عدة مصادر، تكوّن له من مجموعها شخصية أدبية ممتازة، وهي :

١ - اطّلاعه على الآداب العربية القديمة، وبخاصة خطب الإمام علي < ، فقد سئل ذات يوم: ما الذي خرّجك في البلاغة؟ فقال: حفظي لكلام الإمام (يعني عليا <).

٢ - ثقافته الفارسية، فقد كان يجيد الفارسية ويلم بالأدب الفارسي، ويعرف عادات أدباء الفرس من ميل إلى التفخيم، والإطناب، وتخير العبارات.

٣ - إطلاعه على الثقافة اليونانية عن طريق اتصاله ومصاهرته لسالم بن عبدالله كاتب هشام الذي كان يتقن اليونانية.

٤ - اتصاله بالخلفاء، مما وسع من آفاقه وأتاح له فرصة التدرب والمران على أنواع متعددة من الرسائل في شؤون الدولة.

وخلاصة القول، فإن الرسائل تحوّلت عند عبدالحميد إلى رسائل أدبية في موضوعات بعينها مثل: الإخاء، والصيد، وقيادة الحروب، والكتابة، والشطرنج.

كتاب عبدالحميد إلى أهله :

مناسبة النص :

كان عبدالحميد كاتب الدولة، في عهد الخليفة الأموي مروان بن محمد (١٢٧ – ١٣٢هـ) آخر خلفاء بني أمية، وبعد هزيمة مروان أمام جيوش العباسيين تعرض هو وكاتبه عبدالحميد لمصائب وآلام غربة وتشريد وخصوصا في أثناء فرارهما إلى مصر. وفي تلك الظروف المؤلمة كتب عبدالحميد إلى أهله هذه الرسالة.

النص :

أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفة بالكرُه والسرور، وجعل فيها أقساما مختلفة بين أهلها، فمن درَّت[١] له بحلاوتها، وساعده الحظ فيها، سكن[٢] إليها ورضي بها وأقام عليها، ومن قرصته بأظفارها، وعضته بأنيابها، وتوطأته بثقلها قلاها[٣] نافرا عنها، وذمها ساخطا عليها، وشكاها مستزيدا منها[٤].

وقد كانت أذاقتنا أفاويق[٥] استحليناها، ثم جمحت بنا نافرة، ورمحتنا[٦] مولية، فَمَلُحَ عذبها، وخشن لينها، فأبعدتنا عن الأوطان، وفرقتنا عن الإخوان، فالدار نازحة[٧]، والطير بارحة[٨].

---

(١) درت: من الدرر وهو اللبن.
(٢) سكن إليها: آمنها واطمأن إليها.
(٣) قلاها: كرهها وأبغضها.
(٤) مستزيدا منها: طالبا منها.
(٥) أفاويق: ما يتجمَّع في الضرع من اللبن (الحليب)، جمع فيقة.
(٦) رمحتنا: رفستنا.
(٧) نازحة: نائية.
(٨) بارحة: مارة نحو اليسار (كناية عن الشؤم).
(٩) ظفر جارح ممن عليكم: يقصد الجيش العباسي.

وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعدا وإليكم وجداً، فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها، يكن آخر العهد بكم وبنا، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم(٩)، نرجع إليكم بذل الإسار، والذل شر جار.

نسأل الله الذي يعز من يشاء، ويذل من يشاء، أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة، في دار آمنة، تجمع سلامة الأبدان والأديان، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين.

إيجاز المضمون :

اشتمل النص على الأفكار الرئيسة الآتية :

١ - الدنيا دار ألم وسرور يطمئن إليها من تقبل عليه بسرورها ويتذمر منها من تسوق إليه مصائبها.

٢ - تنكُّر الأيام لعبد الحميد بعد أن كانت جميلة سعيدة.

٣ - احتمال أحد أمرين بالنسبة لعبدالحميد: إما موت في الغربة، وإما عودة ذليلة.

٤ - الدعاء بجمع الشمل وإصلاح الدنيا والدين.

نقد وتعليق :

تميزت رسائل عبدالحميد بصفات خاصة منها :

١ - التطويل والتفصيل والإطناب: أطال عبدالحميد الرسائل إطالة لم تكن معهودة من قبل، ولذلك قال النقاد: إنه أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات.

٢ - التنسيق والمنطق: معاني عبدالحميد متسلسلة ممتازة الروابط تسير في نسق منطقي رائع، وبخاصة في رسائله الرسمية.

٣ - تجويد العبارة وتفخيمها والاعتماد على السجع في غير تكلف، وعلى حسن تقسيم الجمل وتوازنها وترادف عباراتها، كما أنه يكثر من الطباقات.

٤ - الموسيقى: أخرج عبدالحميد كلامه مخرجا موسيقيا يعتمد على ضرب من التوقيع استمده من الترادف ومن جزالة الألفاظ.

٥ - التصوير: عني عبدالحميد بالتصوير القائم على التشبيه والاستعارة والتشخيص، إلا أن الصورة في رسالته تهدف إلى غاية بديعية خاصة، تكرر المعنى، تسمو به، حينا، وتسف حينا آخر، بحيث تتقارب معانيه وتتتابع، دون أن يكون ضرورة داخلية لها؛ فالمعنى اللاحق لا يغالي بالمعنى السابق ولا يضفي عليه ظلالا، في مثل قوله: "فمن درت له بحلاوتها وساعده الحظ فيها، ركن إليها ورضي بها، وأقام عليها"[1].

٦ - السهولة والرشاقة: فالألفاظ منتخبة دقيقة الأداء، وليس فيها تعقيد، وإنما فيها العذوبة والحلاوة.

والمعاني غزيرة مرتبة ليس فيها غموض ولا خفاء، وإنما فيها الوضوح وانكشاف الدلالة.

والحق أن عبدالحميد أوفى بالكتابة الأدبية في العصر الأموي على كل ما ينتظر لها من رقي وإبداع فني، مما جعل الشعراء يضربون الأمثال ببلاغة عبدالحميد؛ كما جاء في مدح البحتري لمحمد بن عبدالملك الزيات إذ يقول:

وتَفنَّنْتَ في البلاغة حتى   عطَّل الناسُ فنَّ عبدالحميدِ

وتداول النقاد قولاً مأثورا في النقد، سبق أن ذكرناه، وهو قولهم: بدئت الكتابة بعبد الحميد، وانتهت بابن العميد.

(١) انظر : إيليا حاوي، في النقد والأدب، الجزء الثاني، ص ٣٢٠ .

المصادر والمراجع

(١) أحمد، محمد عبدالقادر، دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي، الطبعة الأولى، ١٩٨٢ .

(٢) ابن الأثير، ضياء الدين نصرالله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، الطبعة الأولى، ١٩٥٩-١٩٦٢، ٤ أجزاء.

(٣) الأخطل، غياث بن غوث، ديوانه، شرح وتقديم مهدي محمد ناصر الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٨٦ .

(٤) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة، طبعة الخانجي، ١٩٧٥ .

(٥) جرير، ديوانه، بيروت، دار صادر، الطبعة الأولى، ١٩٦٤ .

(٦) جميل بن معمر، ديوانه، تحقيق حسين نصار، القاهرة، مصر للطباعة، د.ت.

(٧) ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، ٥٢-١٩٥٦، ٣ أجزاء.

(٨) حاوي، إيليا، في النقد والأدب، بيروت، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، ١٩٨٠ .

(٩) حسان بن ثابت، ديوانه، بيروت دار صادر، الطبعة الأولى، ١٩٦١ .

(١٠) حسين، طه، حديث الأربعاء، القاهرة، دار المعارف، د.ت.

(١١) حسين، محمد محمد، **الهجاء والهجاءون في الجاهلية**، بيروت، دار النهضة العربية، الطبعة الثالثة، ١٩٧٠ .
(١٢) الحطيئة، **ديوانه**، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٩٣ .
(١٣) الخنساء، **ديوانها**، عمان، دار عمار، الطبعة الأولى، ١٩٨٨ .
(١٤) ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الجيل، الطبعة الخامسة، ١٩٨١، جزءان.
(١٥) أبو زيد، سامي، **الفرزدق والنقاد**، بيروت، الجامعة اليسوعية، ١٩٩١ .
(١٦) ابن سلام، محمد الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٤، جزءان.
(١٧) ضيف، شوقي:
أ) **تاريخ الأدب العربي** (العصر الإسلامي)، القاهرة، دار المعارف، الطبعة السابعة عشرة، د.ت.
ب) **التطور والتجديد في الشعر الأموي**، القاهرة، دار المعارف، الطبعة السادسة، د.ت.
(١٨) طهمان بن عمرو الكلابي، **ديوانه**، تحقيق محمد المعيبد، بغداد، مطبعة الإرشاد، الطبعة الأولى، ١٩٦٨ .
(١٩) ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي، **العقد الفريد**، تحقيق محمد سعيد العريان، بيروت، دار الفكر، ١٩٥٤، ٤ مجلدات.
(٢٠) الفاخوري، حنا، **تاريخ الأدب العربي**، بيروت، منشورات المكتبة البولسية، الطبعة الثانية عشرة، ١٩٨٧ .
(٢١) ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري، **الشعر والشعراء**، بيروت، دار الثقافة، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠، جزءان.

(٢٢) القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، **جمهرة أشعار العرب**، تحقيق عبدالله الهاشمي، دمشق، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٩٨٧ .

(٢٣) كُثَيِّر عزَّه، **ديوانه**، تحقيق إحسان عباس، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٦٢

(٢٤) المبرّد، محمد بن يزيد، **الكامل في اللغة والأدب**، تحقيق زكي مبارك، مصر، ١٩٣٦ .

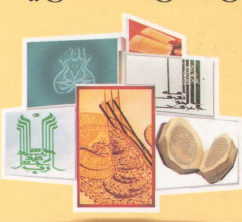
(٢٥) النابغة الذبياني، زياد بن معاوية، **ديوانه**، تحقيق فوزي عطوي، بيروت، الشركة اللبنانية للكتاب، د.ت.

(٢٦) ياقوت الحموي، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي، **معجم الأدباء**، القاهرة، مكتبة عيسى البابي الحلبي، ١٩٣٦-١٩٣٨، ٢٠ جزءاً.

ف: 305 ن:29/1/2009

L I T E R A T U R E

أدب
صدر الإسلام والدولة الأموية





العبدلي-عمارة الددو-مقابل البنك العربي
هاتف : ٥٦٩٥٦١١ فاكس ٥٦٨١٢٠٨
ص.ب ٩٢٧٢٨٥ عمّان ١١١٩٠ الأردن
E-mail:dar_honin@yahoo.com



دولة الكويت
حولي - شارع بيروت - عمارة الأطباء
هاتف 1985 264 فاكس 7784 264 965 +
ص.ب: 4848 الصفاة - الرمز البريدي 13049

دولة الامارات العربية المتحدة
العين: - ص.ب: 6431 هاتف: 7662189 فاكس 7657901 3 971 +
دبي: - ص.ب: 20438 هاتف: 2630618 فاكس 2630628 4 971 +

جمهورية مصر العربية
37 شارع النصر - امتداد رمسيس 2
مقابل وزارة المالية ومصلحة الجمارك
مدينة نصر - القاهرة
تلفاكس 8143 262 202 +
www.alfalahbookshop.com
E-mail:alfalah_egypt@hotmail.com



Design By
SERIOUS®